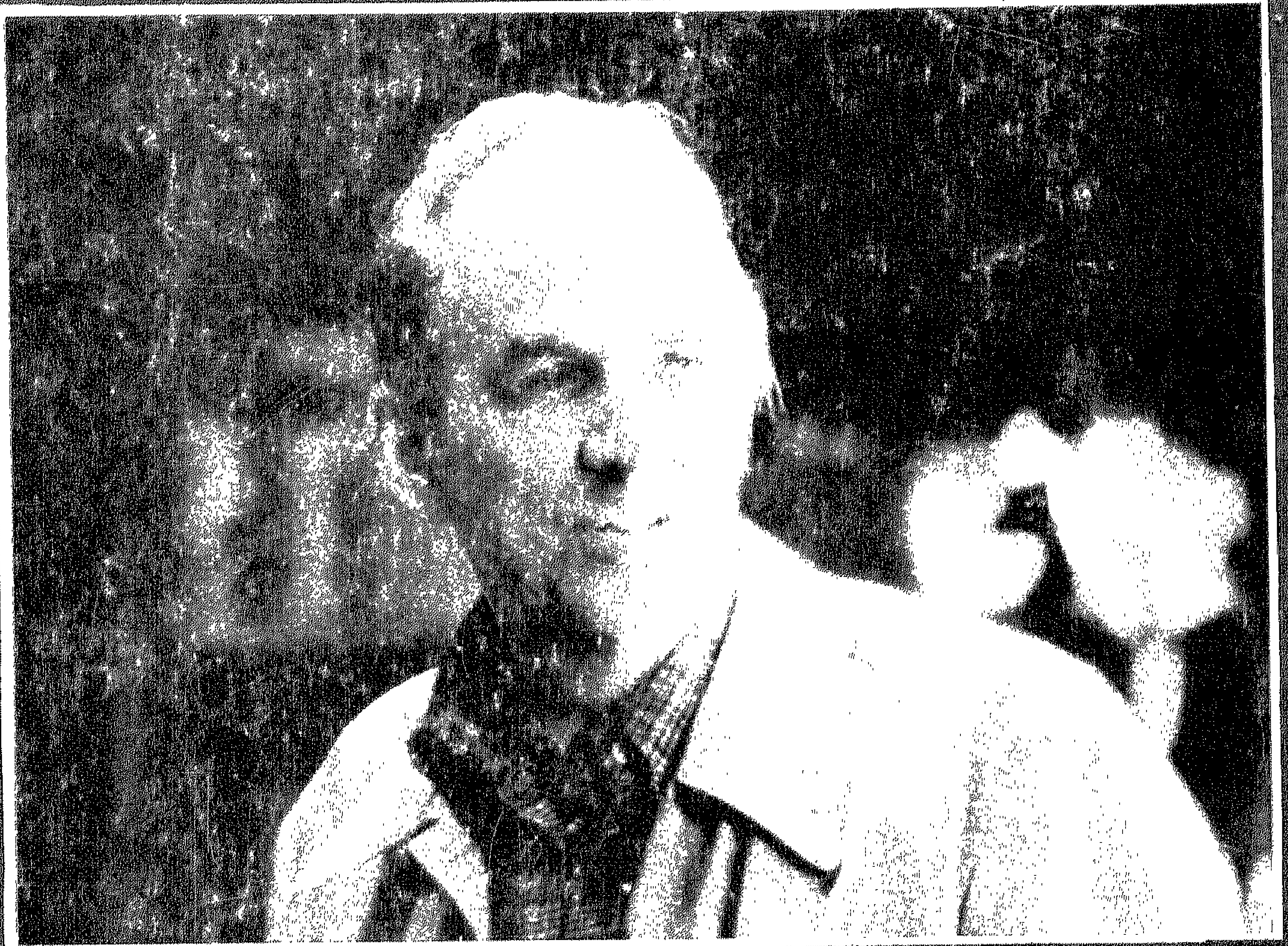
انغمار برغمان



المصباح السحري

السيرة الذاتيّة

الفن السابع ١١

منشورات وزارة الثقافة

المؤسسة العامة للسينما

ترجمة:

باسل الخطيب

الإشراف الفني: زهير الحمو

المصباح السحري

السيرة الذاتية

الفن السابع

«١١»

انغمار برغمان

المصباح السحري

السيرة الذاتيّة

ترجمة:

باسل الخطيب

منشورات وزارة الثقافة ـ المؤسسة العامة للسينما

في الجمهورية العربية السورية ـ دمشق ١٩٩٤

العنوان الأصلي للكتاب :

THE MAGIC LANTERN

By INGMAR BERGMAN

1987

المصباح السحري : السيرة الذاتية = The magic lantern/
انغمار برغمان ؛ ترجمة باسل الخطيب . ـ دمشق : وزارة الثقافة ،
١٩٩٤ . ـ ٣١٦ ص ؛ ٢٤ سم . ـ
(الفن السابع ؛ ١١) .

١ ـ ٩٢٧ : برغمان ، انغمار ب ٢ ـ العنوان ٣ ـ العنوان الموازي
٤ ـ برغمان ٥ ـ الخطيب ٦ ـ السلسلة

مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع ـ ١٢٢٥ /١١/١١/ ١٩٩٤م

الإهداء

إلى ديـانـا ...

باســـل

- ١ -

عندما وُلدتُ في عام ١٩١٨ ، كانت أمي مصابة بالانفلونزا الاسبانية، ونظرا لســوء حــالتي الصحيــة جرى تعميدي في المستشفى . وذات يوم زارنا طبيب العائلة العجوز ، وعندما رآني قال : « إنه يموت من سوء التغذية » . حملتني جدتي الى دارها الصيفية في دالارنا ، وخلال رحلة القطار التي كانت تستمر يوما كاملا آنذاك ، كانت تطعمني كعكاً منقوعاً بالماء . وعندما وصلنا اخيراً ، كنت على وشك أن اموت . لكن جدتي نجحت في العثور على ممرضة لطيفة ، ندية الوجه وجميلة الشعر ، في القرية المجاورة . ورغم تحسن حالتي فقد بقيت اتقيأ باستمرار ، وأعاني من آلام دائمة في المعدة .

أمراض مجهولة يصعب تحديدها كانت تعذبني دائماً ، لم أستطع ان أقرر أبدا فيما إذا كنت راغبا حقا بالبقاء على قيد الحياة . بوسعي الآن أن أستذكر حالتي الحقيقية في ذلك الوقت: رائحة إفرازات جسدي النتنة ، الملابس الرطبة والمتسخة ، ضوء الليل الاحمر المتوهج بنعومة، الباب المفتوح قليلا والمؤدي الى الغرفة الاخرى ، صوت تنفس الممرضة النائمة ، الخطوات المستعجلة والأصوات الهامسة ، انعكاسات الشمس على ابريق الماء الزجاجي . أستطيع أن أتذكر كل هذا ، دون تذكر اي وجود للخوف .

الخوف جاء فيما بعد .

كانت عائلتي تسـكن الطابق الأول في البنـاء الواقـع على زاويـة سكيبارغاتن وستورغاتن في استوكهولم ، وكانت غرفـة الطعام تواجه الفناء المعتم ذا الحائط الآجري المرتفع ، والمرحاض الخارجي وصناديق

تخزين الفحم . اجلس في حضن أحدهم ، يطعمني العصيدة من طبق ابيض مزين برسوم ورود زرقاء ، يعكس الضوء المتناثر من النافذة ، اميل براسي الى الأمام والى كلا الجانبين واستكشف زوايا مختلفة للرؤية ، فتتغير الانعكاسات على صحن العصيدة وترسم أشكالا جديدة . وفجأة اتقيأ على كل شيء .

ربما كانت هذه ذكرياتي الأولى .

في خريف عام ١٩٢٠ انتقلنا الى ڤيلاغاتن ٢٢ في مقاطعة اوسترمالم باستوكهولم . كانت تسود المكان رائحة الطلاء الجديد والارضية الخشبية الملمعة . أما غرفة نوم الطفل فقد غطيت أرضيتها بمشمع أصفر كالشمس ، وعلقت فيها ستائر زاهية الألوان عليها رسوم لقصور ومروج مزهرة . كانت يدا أمي ناعمتين ، وهي تجد الوقت الكافي لتروي قصصا . وكان أبي يشتم كل صباح بصوت عال . وكانت هناك فتاتان ريفيتان من دالارنا تعيشان في المطبخ ، تغنيان أحيانا بشكل عفوي ، بالاضافة الى فتاة في عمري ، صديقتي في اللعب ، تسكن في الجانب الآخر للبناء وتدعى تيبان ، وهي مغامرة وذات خيال . قمت معها ذات مرة باجراء مقارنة بين جسدينا فعثرنا على فروق هامة ، وقد ضبطنا أحدهم ، لكنه لم يقل شيئا .

عندما كنت في الرابعة ، وُلدت شقيقتي واختلف الوضع تماما . مخلوق رهيب وسمين فاز فجأة بالدور الرئيسي ، فأُبعدتُ عن سرير أمي ، في حين كان أبي ينحني مبتهجا فوق تلك الرزمة الباكية . لقد أنشب شيطان الغيرة براثنه في قلبي ، فاغتظت وبكيت وتدحرجت على الأرض . كنت أنا وشقيقي الأكبر ، أعداء ازليين ، فأرسينا السلام بيننا، وبدأنا نرسم خططا مختلفة لقتل هذه الحقيرة والبغيضة ، ولسبب ما ، قرر شقيقي انه يجب عليّ تنفيذ الخطة بنفسي ، فشعرت بالاطراء ، واخذت انتظر اللحظة المناسبة .

في ظهيرة يوم مشمس ، تسللت الى غرفة نوم والدي ، حيث كان المخلوق نائما في سلته الوردية . سحبت كرسيا وصعدت عليه ، ووقفت أحدق بالوجه المنتفخ والفم المقطر . كان شقيقي قد أعطاني تعليمات واضحة تماما ، لكنني أسأت الفهم ، وبدلاً من أن أعصر حنجرتها ، أخذت أضغط على صدرها ، فاستيقظت على الفور مع صرخة حادة . دفعت بيدي الى فمها فاحولت عيناها ، خطوت الى الامام لأنال منها أكثر ، لكنني فقدت توازني وسقطت على الارض .

اذكر أن هذا الحدث كان مرتبطا بمتعة شديدة ، ما لبثت أن انقلبت، وبسرعـــة ، الى رعب .

* * *

واليوم انحني على صور طفولتي لأتأمل وجه أمي من خلال العدسة المكبرة ، وأحاول أن الامس تلك المشاعر التي اختفت منذ زمن طويل . نعم ، لقد أحببتها ، وهي تبدو جذابة في الصور ، شعرها ممشط فوق جبينها العريض ، وجهها بيضاوي ناعم ، فمها شهواني رقيق ، نظرتها صادقة ودافئة ، يداها صغيرتان وقويتان .

كان قلبي ذو الأعوام الأربعة مولعاً بالحب والوفاء ، مثل الكلاب .

ومع ذلك كانت علاقتنا معقدة ، وكان وفائي يزعجها ويضجرها . وكانت تشعر بالقلق تجاه طريقتي في التعبير عن حناني وهيجاني المنيف ، فتبعدني عنها بكلمات ساخرة وباردة ، فأبكي بغضب وخيبة أمـــل . أما علاقتها مع شقيقي الأكبر فكانت أبسط من ذلك ، وكانت تدافـــع عنه دائماً من هجمات والدي الذي رباه بصرامة شديدة وجلد وحشي كانا محل جدال متوتر .

وبالتدريج لاحظت إن اعجابي بأمي ، الرقيـــق أحيانا ، والغاضب أحيانا أخرى ، له تأثير صغير . وسرعان ما بدأت أختبر السلوك الذي ربما يسعدها ويثير اهتمامها . كان المرض يثير تعاطفها على الفـــور ،

وعندما كنت طفلا مريضا ذا اعتلال جسدي مزمن ، كنت أجد الطريق المؤلم ، ولكن الناجح ، الى قلبها وحنانها . ومن ناحية أخرى كانت أمي ممرضة متمرسة . ما إن تكتشف الخدعة حتى تنوقع العقاب وأمـام الجميـع .

وجدت طريقة اخرى الفت انتباهها إلي ، وكانت مؤذية أكثر من سابقتها . تعلمت ان أمي لا تطيق اللامبالاة وانشغال الذهن ، إذ كانت تستعملهما سلاحين خاصين بها . وتعلمت ايضا ان اخفف من عواطفي. بدأت ألعب لعبة غريبة كانت مقوماتهـا الأولية الغطرسـة والبرود في التعامل . لا أستطيع أن أتذكر مـاذا فعلت آنذاك ، لكن الحب يدفع بالانسان ليغامر ، وقد نجحت ، وبسرعة ، في خلق الاهتمام بتركيبتي المؤلفة من الحساسية والغرور .

أصعب مشكلة واجهتني ، هي أنني لم أتمكن ابدا من البوح بسـر لعبتي ، والقاء القناع جانبـا ، والسماح لنفسي بدخول عـالم الحب المتبـادل .

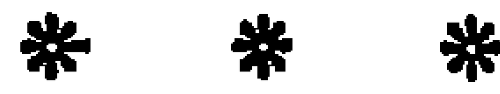
بعد سنوات عديدة ، وعندما كانت أمي راقدة في غرفتها بالمستشفى إثر أزمتها القلبية الثانية ، تحدثت معها عن حياتنا . أخبرتها عـن المعاناة التي لقيتها في طفولتي ، فاعترفت بأنها هي الأخرى كانت تعاني بسببها ، ولكن ليس كما توقعت أنا . لقد حملت مشاكلها الى طبيب نفساني مشهور ، فحذرها بعبارات كئيبة بانها يجب أن ترفض بحزم كل ما دعاه « وسائلي المرضية » . وأن أي تساهل قد يلحق الضرر بي مدى الحيـاة .

لا تـزال ذاكـرتي تحتفظ وبوضـوح بكـل تفاصيـل زيارة الطبيب . كنت ارفض الذهاب الى المدرسة رغم تجاوزي السادسة من عمري . ويوما بعد يوم كانوا يحملونني ويدفعون بي باكيا الى الصف، فأتقيأ على كل شيء أراه ، وسرعان ما أصابني الوهن وفقدت توازني .

وفي النهايــة ربحت يومــا جديدا دون مدرسة ، لكن زيارة الطبيب المشهور كان لا مفر منها .

كانت له لحية هائلة وياقة قميص مرتفعة ، وكانت تفوح منه رائحة السيجار . أرخى سروالي ووضع عضوي الهزيل في احدى يديه ، واخذ يتفحص بسبابة اليد الثانية الانفراج بين الساقين ، ثم قال لأمي التي كانت تجلــس ورائي مرتدية معطف الفرو وقبعة خضراء غامقــة ذات حجاب : « إن الصبي هنا لايزال يبدو كالطفل تماما » .

وعندما عدنا البسوني ثوبي الأصفر الفضفاض ذا الخطوط الحمراء، ثم ذهبت الى غرفة النوم التي استردتها الطفلة الصغيرة . كان أخي مصابا بالحمى القرمزية ، وكان في مكان ما خارج البيت . (كنت أتمنى طبعا لو أنه مات ، فهذا المرض كان خطيرا في تلك الأيام) . مضيت الى خزانة الألعاب واخرجت منها عربة خشبية ذات عجلات حمراء ودرجات صفراء ، وجهزت لها فرسا خشبيا . لقد تلاشى رعب المدرسة ، أمام ذكرى الانتصار المفرحة .



ذات يوم شتوي في مطلع عام ١٩٦٥ ، كنت في المسرح عندما اتصلت بي أمي واخبرتني أنه تم نقل ابي الى المستشفى لاستئصال ورم خبيث من حنجرته ، وطلبت إلي أن اذهب لرؤيته . لكنني اجبتها إنني لا أملك الوقت ، ولا حتى الرغبة لأن افعل ذلك ، وإنني وابي لا يوجد لدينـا ما يقوله بعضا لبعض ، وإن أبي انسان لا اشعر إلا باللامبالاة تجاهه وقد أسبب له الخـوف والاحراج بزيارتي ، ورؤيته على ما يمكن أن يكون فراش موته . كانت أمي غاضبة واصرت على ذهابي ، فتضايقت واخبرتها إنني أرفـض أن تبتزني عاطفيـا . هــذا الابتزاز الأبدي . « ألا تستطيع أن تفعلها لأجلي ؟ » صاحت وهي على وشك البكاء ، فقلت لها : إن الدموع لم تكن لتحدث اي تأثير علي ، واغلقت سماعة الهاتف بعنف .

في أمسية اليوم نفسه كنت أعمل في المسرح ، ذهبت الى الكواليس وتحدثت الى الممثلين ، ثم انفجرت بعدد من المشاهدين الذين وصلوا متأخرين بسبب العاصفة الثلجية ، وعدت الى غرفتي لأتابع اعداد مشهد من مسرحية (التحقيق) لبيتر وايز .

رن جرس الهاتف ، وأخبرتني عاملة القسم إن السيدة برغمان ترغب بالتحدث مع مدير المسرح . وبما انه كان يوجد العديد من النساء اللواتي يحملن اسم برغمان ، فقد سألتها بنزق عن اية سيدة برغمان تتحدث ، فأجابت العاملة بذعر : إن المرأة هي والدة مخرج المسرح ، وهي تريد أن ترى ابنها حالا .

ذهبت لأبحث عن امي التي كانت قد شقت طريقها الى المسرح وسط العاصفة الثلجية ، وكانت لا تزال تتنفس بصعوبة بسبب الجهد والقلب الضعيف والغضب . طلبت إليها أن تجلس ، وسألتها إذا كانت راغبة بفنجان من الشاي ، قالت : إنها لن تجلس ، وليست لديها اية رغبة لشرب الشاي ، وإن الغرض من زيارتها أن أعيد على مسامعها تلك الكلمات القاسية والخالية من الرحمة التي أسمعتها إياها على الهاتف في الصباح . كانت تريد أن ترى كيف أبدو وأنا أعق والدي واهينهما .

ذاب الثلج حول هذه الانسانة المكسوة بالفرو ، مخلفا بقعا غامقة على السجاد عند قدميها . كانت شاحبة للغاية ، عيناها السوداوان غاضبتان ، وانفها احمر من البرد .

حاولت أن اعانقها واقبلها ، لكنها دفعتني عنها وصفعتني . (كانت امي تمتلك تقنية خاصة للصفع لا يمكن التفوق عليها ، فالضربة تهوي مثل البرق ، بيدها اليسرى المحملة بخاتمي الزواج الثقيلين ، مؤكدة بذلك على الم العقاب) . انتابني الضحك ، أما أمي فانفجرت بالبكاء ، وانهارت ، بمهارة ملحوظة ، على مقعد قريب من طاولة المكتب ، وأخفت وجهها بيدها اليمنى ، وأخذت تبحث بيسراها عن المنديل في حقيبتها .

جلست الى جانبها ، وأكدت لها أنني سوف أذهب لرؤية أبي ، وانني نادم على كل ما قلت ، وطلبت منها أن تصفح عني .

طوقتني بذراعيها ، وقالت : إنها لن تزعجني أكثر من ذلك .

بعد ذلك شربنا الشاي ، وبقينا جالسين نتحدث بهدوء حتى الثانية صباحا .

حدث كل هذا يوم الثلاثاء . وفي يوم الأحد الذي تلاه ، اتصلت بي إمرأة من أقرباء العائلة ، كانت تسكن مع أمي أثناء وجود أبي في المستشفى ، واخبرتي أن أمي في حالة خطرة ، وان طبيبتها ناناشفارتز في طريقها اليها . هرعت الى ستورغاتن ٧ . وعندما وصلت ، وجدت الطبيبة تفتح لي الباب ، وتخبرني دون تردد بأن أمي قد توفيت منذ دقائق .

ويا لدهشتي ! إذ بدأت ابكي بصوت عال دون ان أستطيع السيطرة على نفسي . سرعان ما انقضت هذه الحالة ، وكانت الطبيبة العجوز تقف صامتة الى جانبي وهي ممسكة بيدي . وعندما هدأت قليلا ، اخبرتني أن الأمر كله تم بسرعة ... نوبتان استمرت كل منهما عشرين دقيقة .

لم يمض وقت طول حتى وجدت نفسي وحيدا مع أمي في الشقة الساكنة .

كانت مستلقية على سريرها برداء النوم الفلانيل وجاكيت صوف ازرق . وقد اشاحت بوجهها جانبا ، وانفرجت شفتاها قليلا . كانت شاحبة ، والظلال القاتمة تحيط بعينيها ، وكان شعرها الأسود مرتبا بأناقة .. ولكن لا ، فشعرها لم يعد أسود ، بل رماديا فاتحا ، وقد عمدت خلال السنوات الأخيرة الى الاحتفاظ به قصيرا . لكن صورتها في ذاكرتي لا تز ال تشعرني بأن شعرها كان أسود ، وبه تموجات رمادية.

كانت يداها تستريحان على صـــدرها ، وكان ثمة ضماد صغير يلف ســـبابتها .

وفجاة غمر الغرفة ضياء ربيعي مشرق ومبكر ، وكانت الساعة المنبه الى جانب السرير لا تزال تعمل بنشاط .

خيل إلي أن أمي كانت تتنفس وأن صدرها يعلو ويهبط ببطء ، وأن بوسعي ان اسمع صوت تنفسها ، وخيل إلي أن جفنيها يتحركان ، وأنها نائمة ، وعلى وشك أن تستيقظ ..

كانت هذه لعبتي الوهمية المعتادة مع الواقــع .

امضيت بقربها ساعات عديدة . بدأت أجراس كنيسة هيدفغ إليانورا تقرع داعية للصلاة ، وتبدلت الاضاءة داخل الغرفة ، وسمعت صوت عزف على البيانو . لا أعتقد انني كنت أعاني من الحزن وقتها أو افكر ، أو حتى اراقب نفسي أو أؤدي دورا ما ــ هذا الداء المتعلق بالمهنة ، والذي بقي يلاحقني طوال حياتي بلا رحمة ، ويسلبني أكثر خبراتي عمقاً .

لا اذكر كثيرا من تلك الساعات التي امضيتها في غرفة أمي . اكثر ما اذكره ، ذلك الضماد الصغير الذي كان يغطي سبابتها اليسـرى .

بعد ظهر اليوم ذاته ، ذهبت لأرى والدي في المستشفى واخبره بموت أمي . كان قد نجا من العملية ومن نتائج مرض ذات الرئـــة وكان يجلس على مقعد أزرق ، حليق الذقن ومرتب الثياب . نظر إلي بتامل.. عيناه هادئتان ، صافيتان وواسعتان . وعندما اخبرته بما أعرف ، أوما برأسه ، وطلب مني أن ادعه وحده .

* * *

ارتبطت نشأتنا بمفاهيم الخطيئة والاعتراف والعقاب والغفران وصلاة المائدة .. عوامل قاسية حكمت العلاقات بين الأبناء والآباء والله . كان ثمة منطق فطري في كل ما كنا نتلقاه ونعتقد أننا فهمناه ، وربما ساهمت هذه الحقيقة في تقبلنا المدهش للنازية . لم نكن قد سمعنا بالحرية ولم نذق طعمها أبدا .. ففي النظام الكهنوتي تكون الأبواب موصدة تماما .

لهذا كان العقاب أمرا بديهيا لا يجوز التساؤل بصدده . أحيانا يكون سريعا وبسيطا مثل صفعة على الوجه أو ضربة على المؤخرة ، وأحيانا أخرى ، يكون بالغ التعقيد ومتوارثاً عبر الأجيال .

عندما كنت اتبول في فراشي ، الأمر الذي كان يحدث بكثرةوسهولة، كنت أجبر على ارتداء تنورة قصيرة حمراء لبقية اليوم ، وكان هذا العقاب يعتبر مؤذيا ومضحكا في آن واحد . الجرائم الكبيرة كانت تحصد عقابا نموذجيا يبدأ من لحظة اكتشاف الجريمة . وفي حالات اخرى قليلة كان المجرم يعترف بفعلته لأمه ، أو لأحدى الخادمات ، أو النساء الكثيرات اللواتي كن يوجدن في بيت الكاهن لأسباب مختلفة .

النتيجة الفورية للاعتراف كانت تتمثل في التجاهل المطلق .. فلا احد يكلمك ، ويطول زمن العقاب وموعد حلول الغفران . بعد العشاء والقهوة ، يقام اجتماع في غرفة الأب ، حيث يعاد الاستجواب والاعتراف ، ثم يؤتى بالمضرب الخشبي الذي يستخدم عادة لتنظيف السجاد ، وعليك أن تقرر بنفسك عدد الضربات التي تستحقها . وبعد أن تحدد حصتك ، وينزع عنك البنطال والسروال الداخلي ، وتنبطح على الأرض ، ويمسك احد بعنقك ويبدأ بعد الضربات .

لا أذكر أن الأمر كان مؤلما . المؤلم حقا كان الجو بحد ذاته ، واحساس الذل المرتبط به ، وقد نال شقيقي نصيبه من هذا العقاب ، وكانت أمي تجلس الى جوار سريره ، تعالج له مؤخرته التي ترك المضرب

الخشبي عليها آثاره الدائرية الحمراء . وبما أنني كنت أكره شقيقي وأخشى من ثورات غضبه المفاجئة ، فقد كنت أشعر بالرضى وأنا أراه يُعاقب بهـذه القسوة .

وبعد أن ينتهي عدّ الضربات ، يجب أن تقبل يد والدك .. فيعلن بدوره الغفران .. فيزول عبء الخطيئة ، وتُتلى الصلاة . ومع ذلك ، عليك أن تمضي الى فراشك دون عشاء ، لكن شعورا بالراحة يرافقك آنـذاك .

وكان ثمة نوع آخر من العقاب ، غير سار بالنسبة لطفل يعذبه خوفه من الظلام ، إذ يحبس داخل خزانة خاصة . وقد أخبرتنا آلما في المطبخ أنه بداخل هذه الخزانة يعيش مخلوق مخيف ، يلتهم أصـابع أقدام الأطفال سيئي السلوك ، وكنت أسمع بوضوح صوت شيء ما يتحرك داخل الخزانة في الظلام ، فيصل رعبي الى أقصى درجاته . لا أذكر ماذا كنت أفعل عندها ، ربما كنت أتعلق بحمالة الثياب لأنقذ قدمي من الالتهام .

وسرعان ما فقد هذا العقاب فعاليته المخيفة عندما وجدت الحل .. فقد اخفيت في إحدى زوايا الخزانة مصباحا يصدر ألوانا حمراء وخضراء. وما أن أُحبس داخل الخزانة حتى التقطة ، وأوجه حزمة الضوء الملونة على الجدار .. وأتظاهر انني في السينما . وذات مرة فتح باب الخزانة فجأة ، فألقيت بنفسي على الأرضية الخشبية ، واغمضت عيني وتظاهرت بأنني فاقد وعيي ، فأصيب الجميع بالفزع ، باستثناء أمي التي أحست بالخدعة ، لكنها لم تجد الدليل على ذلك .. وهكذا تأخر موعد العقاب التـالي .

عرفت أنواعا أخرى من العقاب : حرمان من السينما والطعام ، حجز في السرير ، وظائف اضافية ، ضرب على الرأس ، شد الشعر ، تنظيف المطبخ (وقد كان عملا لطيفا) . لا أحـد يتكلم معك لمدة من الزمن .. وهكذا .

أما الآن ، فانني أستطيع أن أتفهم سبب اليأس الذي كان ينتاب والدي ، فأسرة الكاهن تعيش عادة بشكل مكشوف ، غير محمية من عيون الآخرين . ويجب أن يكون بيت الكاهن مفتوحا على الدوام لتعليقات وشكاوى رعايا الكنيسة . لقد كان والديّ قريبين الى درجة الكمال ، لكنهما كانا يضعفان أمام ضغوط غير طبيعيـة ، كان يوم عملهما يبدأ ولا ينتهي ، وكان زواجهما صعبا ، ونظامهما الخاص شديد الحزم ، وكان ولداهما يعكسان كثيرا من الصفات الموجودة لديهما أساسا ، والتي طالما عاقبا نفسيهما لأجلها . فشقيقي كان ابنا عاصيا وغير قادر على حماية نفسه ، وقد استخدم والدي كل طاقته من أجل تحطيمه ، ونجح في ذلك . أما شقيقتي فكانت محبوبـة جدا لديهما ، وكانت تستجيب لهما على نحو فيه كثير من الجبن وطمس الذات .

أعتقد أن أحوالي تحسنت عندما أصبحت كاذبا ، وأوجدت شخصا إضافيا في داخلي لا يشترك مع حقيقتي إلا بالشيء القليل ، بعدها لم أتمكن من الفصل بين ذاتي وهذا الشخص ، الأمر الذي ترك أضرارا لاحقة على حياتي وإبداعي في مرحلة النضج . أحيانا أكون مضطرا الى مواساة نفسي بحقيقة أن الانسان الذي عاش كذبة ، يحب الحقيقة.

كذبتي الواعية الأولى تقف بوضوح في ذاكرتي ... فعندما أصبح والدي قسيسا ملحقا باحدى المؤسسات ، انتقلنا الى بناء أصفر قريب من الحديقة الواسعة التي تحيط بمنطقة ليجانسكوجن في استوكهولم . كان يوما شتائيا باردا ، وكنا نتسلى ، أنا وشقيقي ورفاقه ، بالقاء قطع الثلج على نوافذ أحد البيوت وتحطيمها ، أسـرع بواب البناء واخبر والدي بالأمر . بدأت التحقيقات ... اعترف شقيقي ، وتبعه رفاقه . في ذلك الوقت كنت موجودا في المطبخ أشرب الحليب ، وأراقب إلما تجهز الفطائر ، عندما دخلت سيري ، خادمة المنزل ، وأطلعتنا على عملية العقاب البشعة التي تجري خارجا ، ثم التفتت الي وسألتني فيما اذا كنت قد اشتركت في هذا التخريب المتعمد ، وهو الامر الذي سبق وأنكرته أثناء التحقيقات الاولية (وقد أطلق سراحي مبدئيا لعدم توفر

الادلة) . لذلك عندما سألتني سيري ، أدركت على الفور أنها تحاول الايقاع بي ، فأجبتها بصوت هادىء بأنني كنت أراقبهم ، ثم رميت ببعض الكرات الثلجية الصغيرة ، وعدت الى المنزل لأن قدمي قد تجمدتا من البرد . بعدها فكرت بأنني يجب أن اتكلم بهذه الطريقة الهادئة عندما اكـذب .

كان اكتشافا حاسما ، وبالطريقة نفسها التي اتبعها (دون جوان) موليير ، قررت بدوري ان أصبح منافقا . لا أستطيع الجزم بأنني كنت ناجحا في ذلك دائما ، كانت تعوزني الخبرة ، وأحيانا كان يفتضـح أمـري .

احدى قريبات أسرتنا ، كانت امراة محسنة واسعة الثراء ، تدعى العمة آنا ، وكانت تدعونا الى حفلات للاطفال مليئة بالمسرات ، وتهدينا أشياء ثمينة ومشتهاة في ليالي عيد الميلاد ، وتاخذنا كل سنة الى العرض الاول لسيرك شومان في دجورغاردن ، هذا الحدث الذي كان يدفعني الى حالة من الاثارة المحمومة : الرحلة بالسيارة مع سائق العمة آنا ، عبر الابنية الخشبية المضيئة ، ذات الروائح الغامضة . قبعة العمة آنا الفضفاضة ، الاوركسترا المدوية ، سحر التحضيرات ، وزئير الاسود والنمور وراء ستائر مدخل السيرك الحمراء ، أحدهم يهمس بأن اسدا ظهر تحت القبة وان المهرج مصاب بالفزع . سرعان ما اغفو اثر احساس شفاف ، ثم استيقظ على صوت موسيقا رائعة وأجد امامي امراة في ثياب بيضاء تمتطي صهوة حصان فحل أسود .

وفجأة وجدت نفسي اقع في حب هذه المراة ، وادخلها الى عالـم تخيلاتي ، وأدعوها اسمرالدا (ربما كان هذا اسمها) . لكن تخيـلاتي سرعان ما أخذت طريقها وبشكل مخطر الى عالم الواقع بعد أن عهدت بسري الى صديق لي في المدرسة ، يجلس بجانبي في الصف ، ويدعى نايس . . . اخبرته بأن والدي قد باعني الى سيرك شومان واني ، سأرحل قريبا عن المدرسة والبيت لاتدرب وأصبح بهلوانا واعمل مع اسمرالدا

التي تعتبر اجمل امرأة في الدنيا . وفي اليوم التالي انتشـر سري في المدرسة كلهـا .

استاذة الصف اعتبرت الأمر شديد الخطورة ، فبعثت لأمي برسالة عنيفة . بعد ذلك بدأ مشهد المحاكمة المخيف ، فوقفت ووجهي للحائط وعانيت من الاذلال والخزي في كل من المدرسة والبيت .

بعد خمسين سنة ، سألت أمي فيما اذا كانت لاتزال تذكر قصة بيعي للسيرك ، فأجابت بأنها تذكر القصة جيدا ، فعدت أسألها لماذا لم يسخر أحـد مني ، أو على الأقل لم يصب بالدهشة لهـذا الخيـال الجريء ؟ لماذا لم يتساءل احد منهم حول السبب العميق الذي يجعل طفلا في السابعة يتمنى لو يهجر بيته ويباع الى السيرك ؟ وعندئذ أخبرتني امي بأنهم كانوا قد عانوا الكثير ــ وفي مناسبات عديدة ــ بسبب تخيلاتي وأكاذيبي ، وأنها في فورة غضبها استشارت أخصائيا للاطفال فأكـد لها أهمية ان يتعلم الطفل ، في مرحلة مبكرة ، التمييز بـين الخيال والواقع . وهكذا كان يجب مواجهة أكاذيبي الوقحة والآثمة بالعقـاب المناسب .

حاولت أن انتقم من صديقي السابق الذي افشى سري ، فسرقت سكين شقيقي وطاردته وهو يفرّ أمامي ويدور حول بناء المدرسة ، وعندما القت المعلمة بنفسها لتفصل بيننا ، حاولت أن اقتلها .

أبعدت عن المدرسة وضربت بقسوة . أما صديقي المزيف فقد أصيب بشلل الأطفال ومات .. ففرحت كثيرا . توقف صفنا عن الدراسة لمدة ثلاثة أسابيع ، وبعدها نسوا كل شيء .

أما أنا فقد بقيت اتخيل أسمرالدا . ازدادت مغامراتنا خطورة . وأصبح حبنا أكثر تأججا ، في الوقت الذي بدأت اتعلق بفتاة في صفي تدعى غلاديس ، ومن ثم مع واحدة اخرى ، هي تيبان ... الخائنة .

حديقة صوفيا همت ، المستشفى الملكي الكبير ، الواجهة المطلة على فالهالفاجن ، الستاد على جانب ، وكلية التكنولوجيا على الجانب الآخر . والأبنية التي تتناثر على المساحات الخضراء المنبسطة ...

كنت أتجول في هذه الأمكنة بحرية تامة ، وأختبر الأشياء كلها . أثارت اهتمامي كنيسة صغيرة مبنية من الآجر الصغير في عمق الحديقة، فاستطعت من خلال صداقتي مع خادم الكنيسة الذي يقوم بنقل الجثث من المستشفى الى الكنيسة ، أن أتعرف على كثير من القصص الجيدة ، وأن أشاهد جثثاً في حالات مختلفة من تعفنها . كان هناك بناء آخر يحظر دخوله ، ويؤدي الى غرفة الأفران الأربعة الضخمة التي كان يؤتى بالفحم اليها بواسطة عربات صغيرة تجرها الخيول في أيام محددة من الاسبوع . واليوم ، كما في الماضي ، لا تزال هذه الأفران تستخدم لحرق حمولات سرية من الجثث المشوهة والأعضاء المبتورة .

في أيام الآحاد ، كان والدي يرأس الخدمة الاجتماعية في الكنيسة التي كانت تمتلىء بالمرضات بزيهن الأسود الموحد والمراويل البيضاء واغطية الرأس الخاصة بصوفياهمت . وعلى الطرف المقابل لبيت الكاهن ، كان يوجد بناء تقطنه المرضات المسنات اللواتي وهبن حياتهن للمستشفى . كن شبيهات بالراهبات ، يعشن ضمن نظام الأديرة الصارم . وكان بوسع جميع قاطني هذا البناء أن يروا كل ما يحدث داخل بيت الكاهن ... وكانوا يرونه فعلاً .

وكي أكون صادقاً ، فإنني أنظر آلى سنواتي المبكرة بكثير من البهجة والفضول . كان خيالي وأحاسيسي مشبعين تماماً ، ولا أذكر وجود لحظات باهتة في طفولتي . كانت الأيام والساعات تتفجر بالاكتشافات والرؤى غير المتوقعة واللحظات السحرية . لا يزال بوسعي أن أطوف الآن في عوالم طفولتي ، وأختبر مرة أخرى كل الأضواء والروائح والغرف واللحظات والتلميحات والهمسات ... هذه الذكريات التي تشبه كثيراً فيلماً سينمائياً قصيراً أو طويلاً ، تم تصويره بشكل عشوائي .

تمتاز الطفولة بانها تزيل كل ما هو مخفي بـين السحر والعصيدة الدقيقة ، بين الرعب المطلق والفـرح الغامر . لا وجود لتخوم سوى الحظر والأنظمة التي كانت مبهمة وغير مفهومة . أذكر على سبيل المثال انني لم أستوعب مفهوم الزمن .. قيل لي : « يجب أن تتعلم كيف تكون دقيقاً في مواعيدك . لقد أعطيت ساعة يد ويجب أن تخبر الوقت بدقة » لكن الزمن يتوقف بالنسبة لي ، شيء ما يخبرني اني جائع ، وسرعان ما يحدث شجار .

كان يصعب تمييز الخيال عن الحقيقـة . فعلت كل ما بوسعي . وربما كان من الممكن الإبقاء على الواقع كحقيقـة . ولكن ماذا أفعـل بالأشباح والأطياف .. وقصص البطولة القديمة !؟! أهي حقيقة ؟ الرب والملائكة ؟ المسيح ؟ آدم وحواء ؟ الطوفان ؟ وحقيقة ما حدث بين ابراهيم واسحاق ؟ هل كان ابراهيم سيذبحه حقاً ؟ وانظر برعب ، فأتعرف على اسحاق في نفسي ، هذه كانت حقيقة . الأب يريد ان يجز عنق انغمار . ماذا سيحدث لو تأخر الملاك ؟ سوف يبكون ، ويسيل الدم ، وانغمار يبتسم بكآبة .. إنها الحقيقة .

ثم جاءت السينما .

قبل عيد الميـلاد بأسابيع ، جاءنا سائق العمة الثرية آنا ، بزيه الأنيق ، حاملاً كمية من الهدايا وُضعت كالعادة في السلة المخصصة لهدايا العيد في خزانة أسفل الدرج . ثمة رزمة أثارت اهتمامي على نحو خاص . كانت بنية اللون وتحمل صورة مخزن هامنفاتن ، الذي لم يكن يبيع آلات التصوير الفوتوغرافي فحسب ، بل وأيضا كاميرات سينمائيـة حقيقية .

شغفت بآلة السينما هذه أكثر من أي شيء آخر . وكنت قد ذهبت الى السينما في العام الماضي لأول مرة في حياتي ، وشاهدت فيلماً يحكي قصة حصان ، وربما كان اسم الفيلم (الأسود الجميل) ، وهو مقتبس

عن كتاب مشهور ، وكان يعرض في سينما شتور حيث جلسنا في مقدمة الصالة . هذه كانت البداية بالنسبة لي ، لقد أصبت بالحمى التي لم أشفَ منها قط. في السينما ظلال صامتة تلتفت إلي . . . فأرى وجوهها الشاحبة ، وأسمع أصواتاً غير واضحة تخاطب أكثر أحاسيسي عمقاً وسرية . لقد مضى ستون عاماً ولم يتغير شيء : الحمى لا تزال هي نفسها .

في وقت مبكر من خريف العام ذاته ، زرت صديقاً يملك آلة عرض سينمائي ومجموعة من الأفلام ، فوضع لي ولصديقتي تيبان فيلماً ، وسمح لي أن أدير الجهاز بيدي ، في حين أخذ هو يعانق تيبان ويقبلها .

كان عيد الميلاد مليئاً بالمسرات، وقد أدارته أمي بحزم . . . إذ كان من الضروري وجود تنظيم معتبر خلف طقوس الضيافة ووجبات الطعام وزيارات الأقارب وهدايا العيد وإجراءات الكنيسة .

تبدأ عشية عيد الميلاد هادئة ، فبعد صلاة الساعة الخامسة في الكنيسة ، نتناول وجبة خفيفة على أضواء الشموع المثبتة على الشجرة، ثم نستمع الى قصة الميلاد ونذهب الى السرير في وقت مبكر (إذ يجب علينا الاستيقاظ مبكراً في صباح اليوم التالي لحضور القداس) . الهدايا لم تسلم بعد ، لكن الأمسية تمضي مبهجة ... تعزف فيها مقدمات موسيقية لمهرجانات عيد الميلاد . بعد وجبة الطعام ، يكون والدي قد انتهى من واجباته الكهنوتية ، فيستبدل غفارته ببزة سوداء ، ويصبح مزاجه في افضل حالاته ، فيرتجل حديثاً شعرياً ، ويرحب بالضيوف ، وينشد اغنية خاصة بالمناسبة ، ويتبادل الأنخاب مع الموجودين ، ويقلد بعض أصدقائه فيضحك الجميع . لقد كنت أفكر في أحيان كثيرة ، بطيبة قلبه المفرحة وبلطافته ، ودماثته وكرمه ، كل هذه الصفات التي كانت تتوارى خلف سوداويته ووحشيته وجمهوده . أعتقد انني لم أكن منصفاً بحقه في ذاكرتي .

بعد الافطار في اليوم التالي، نعود الى أسرتنا لبضع ساعات، ويستمر نظام المنزل الأزلي حتى الساعة الثانية عندما تقدم قهوة بعد الظهر ، ثم نفتح أبواب المنزل لكل من يرغب بتهنئة الكاهن بالعيد ، وكان عدد من الأصدقاء موسيقيين متمونين ..... فكانت فترة بعد الظهر مهرجانـا موسيقياً مرتجلاً . بعدها تبدأ ذروة يوم الميلاد بالتصاعد، وجبة العشاء . . . وكانت تقام في المطبخ الواسع حيث توضع المراتب الإجتماعية والكهنوتية جانباً لبعض الوقت ، ويقدم الطعام كله على الطاولة ويغطى الى أن يتم توزيع الهدايا في غرفة الطعام . كان والدي يشرف على العملية وهـو يدخن السيجار ويحتسي الليكيور . تعطى الهدايا ، وتتلى الأشعار بصوت عالٍ ، فيطرى أو يعلق عليها . لا هدايا دون قراءة الأشعار .

بعدها حدثت قصة جهاز السينما ، فقد حصل شقيقي عليه .

وعلى الفور بدأت أعوي ، واختفيت تحت الطاولة وانفجرت بالبكاء. قالوا لي إنني يجب أن أسكت فوراً . لكنني اندفعت الى غرفة النوم وانا ألعن واشتم واهدد بالهروب . وفي النهاية غفوت بعد أن أرهقني الحـزن .

واستمرت الحفلة .

في وقت متاخر من المساء ، استيقظت على صوت غرترود وهي تنشد اغنية شعبية في الأسفل . كانت مصابيح المساء مضاءة ، ولمحت من بين هدايا شقيقي الأخرى الموضوعة على الطاولة ، آلة العرض السينمائي بغطائها الملتوي واوحة عدساتها الجميلة ، ودولاب الأفلام المسنن .

اتخذت قراري دون تردد ، فأيقظت شقيقي داغ وعرضت عليـه صفقة : جيشي المؤلف من مائة جندي مقابل جهاز السينما . وبما أن داغ كان يمتلك جيشاً ضخماً ، ويتورط مع أصدقائه دائماً في العاب الحرب ، فقد تمت الصفقة وبموافقة الطرفين .

وأصبح جهاز السينما ملكاً لي ..

لم تكن آلة معقدة ، فمصدر الضوء كان مصباح كيروسين ، وذراع التدوير كانت مرتبطة بدولاب مسنن . وفي مؤخرة الصندوق المعدني توجد مرآة عاكسة بسيطة ، وثمة شق صغير وراء العدسة لشرائح الفيلم . كذلك كان الجهاز يتضمن مربعاً أرجوانياً يحتوي على شرائح زجاجية ، ومقطعاً من الفيلم (قياس ٣٥ مم) طوله ثلاثة أمتار ، ملصق على الدولاب المسنن . وكانت هناك معلومات على الغطاء ، تفيد بأن عنوان الفيلم (السيدة هول) . لم يكن أحد يعرف من هي السيدة هول ، ثم اتضح انها كانت المرادف الشعبي لآلهة الحب في دول البحر المتوسط .

وفي الصباح التالي ، لجأت الى خزانة الثياب الحائطية الواسعة في غرفة النوم ، ووضعت آلة العرض السينمائي على قفص ، واضأت مصباح الكيروسين ، ووجهت حزمة الضوء الى الجدار المطلي بالأبيض ، ثم وضعت الفيلم داخل الآلة .

ظهرت صورة مرج أخضر على الحائط . وفي منتصف المرج كانت تنام فتاة ترتدي اللباس الشعبي . وفجأة أوقفت العرض ! من المستحيل أن اصف ذلك . لا أستطيع أن أجد الكلمات المناسبة لأعبر عن إثارتي . ولكنني أستطيع في اي وقت أن استحضر رائحة المعدن الساخن ، الممتزجة برائحة كرات النفتالين الموزعة في خزانة الثياب ، وذلك الغبار الضوئي في فضاء الخزانة ، والمقبض في يدي ، والمربع المرتعش على الحائط .

تابعت العرض ، فرأيت الفتاة تنهض ، ثم تجلس ، ثم تنهض من جديد ، وتمد ذراعيها في الهواء وتستدير وتختفي في الجهة اليمنى . ولو كنت تابعت تحريك المقبض لظهرت الفتاة مرة أخرى ، نائمة على العشب ، تعيد تماماً كل حركاتها السابقة .

لقد كانت تتحرك .

* * *

- ٣ -

طفولة تمضي مع صلوات المائدة في بيت الكاهن بصوفياهمت ، مع الإيقاع اليومي وأعياد الميلاد ومهرجانات الكنيسة وأيام الآحاد ، مع الواجبات والألعاب ، مع الحرية والإنسجام والأمان . في الشتاء طريق طويل ومعتم الى المدرسة ، وفي الربيع ركوب الدراجات ولعبة البلى ، ثم القراءة بصوت مرتفع ، قرب النار في أمسيات الأحد الخريفية .

لم نكن نعرف أن أمنا قد مرت بقصة حب عارم، وأن والدنا كان يعاني من إحباط قاس . كانت أمنا تستعد لإنهاء زواجها والإنفصال عن والدنا، الذي هددها بالإنتحار لو فعلت . تصالحا ، وقررا أن يستمرا سوية « لمصلحة الأطفال » ، كما قيل لنا آنذاك .

ذات أمسية خريفية، كنت مشغولاً بآلتي السينمائية في غرفة النوم، وكانت شقيقتي نائمة في غرفة أمها ، وشقيقي يلعب في الخارج ، عندما سمعت فجأة صوت شجار في الأسفل ، صوت مخيف لم أسمعه من قبل . كانت أمي تنتحب وأبي غاضباً . اقتربت متسللاً من الدرج ورأيت والديّ على وشك أن يتقاتلا ، أمي تحاول سحب معطفها إليها وأبي يمنعها ، ثم تركت معطفها واندفعت نحو الشرفة ، لكن أبي هرع وراءها، ودفعها جانباً، ووقف مقابل الباب ، صفعته على وجهه، فدفعها بقسوة تجاه الحائط ، ففقدت توازنها وسقطت على الأرض . كانت شقيقتي قد استيقظت بسبب الضجة وبدأت تبكي . عندها توقف والديّ عن الشجار .

لا استطيع أن اذكر تماماً ماذا حدث بعد ذلك .. كانت أمي جالسة على الأريكة في غرفتها ، أنفها ينزف دماً ، تحاول تهدئة شقيقتي .

عدت الى غرفتي ونظرت الى آلة السينما ، وتهالكت على ركبتي بشكل يدعو للشفقة ، ووعدت الله انه بوسعه الحصول على هذه الآلة والأفلام كلها إذا عاد أبي وأمي أصدقاء من جديد .

وقد استجاب الله المدعواتي . تدخل قس أبرشيه هيدفع إليانورا ، وكان يرأس والدي في عمله ، فتصالحا ، ثم دعتهما العمة آنا الى إجازة طويلة في إيطاليا ، وأخيراً تدخلت جدتي وحسمت الموضوع ، وعاد الوهم بالأمان .

كانت جدتي تعيش في أوبسالا ، وتمتلك بيتاً ريفياً في دالارنا . فعندما ترملت في الثلاثين ، وزعت شقتها الأنيقة في تراد غاردسغاتن ، وانتقلت الى شقة أخرى مؤلفة من خمس غرف ومطبخ وغرفة للخادمة. عندما كنت صغيراً ، كانت جدتي تسكن هناك مع الآنسة هيلين نلسون ـ النصب التذكاري الخالد لنموذج المرآة في مقاطعة سمالاند ـ كانت تطهو طعاماً طيباً ، ومتدينة جداً ، وتدلعنا نحن الأطفال . وبعد ان توفيت جدتي ، جاءت الى أمي التي شملتها بالرعاية . وعندما بلغت الخامسة والسبعين ، بليت بسرطان الحنجرة ، فاعتزلت حجرتها ، وكتبت صيتها ، ثم رحلت الى شقيقها في بارا هولم ، حيث توفيت بعد بضعة أشهر . هيلين نلسون ، التي كنا نحنا الصغار ندعوها (لالا) ، عاشت مع جدتي وأمي ما يربو عن الخمسين عاماً .

عاشت جدتي ولالا باستقلالية مزاجية مشتركة ، استلزمت قدراً كبيراً من التجاوزات دون أن تثير تساؤل احد . بالنسبة لي ، كانت تلك الشقة الواسعة في تراد غارد سفاتن ، مثالاً للأمان والسحر : الساعة الحائطية الضخمة ، ضياء الشمس الذي يزهو على السجاد الأخضر ، ألسنة النار في الموقد الآجري ، المدخنة الهادرة ، وأبواب الموقد الصغيرة الرنانة . أما الشارع ، فثمة مركبة ثلجية بأجراسها المجلجلة تمضي في مكان ما ، ونواقيس الكاتدرائية تدعو لصلاة أو جنازة ، ودائماً في

الصباح والمساء ، كنت أسمع أجراس كاتدرائية غونيلا البعيدة والمرهفة .

أثاث قديم ، ستائر قاتمة ، لوحات غامضة . وفي نهاية الصالة الممتدة والمظلمة ، توجد غرفة عجيبة ذات أربعة ثقوب في أسفل بابها ، وورق جدران أحمر ، وكرسي من خشب الماهوغاني ، منحوت على شكل عرش ومزين بالنحاس والزخارف . كانت هناك مسافة قصيرة مغطاة ببساط ناعم تؤدي الى كرسي العرش ذي الهوة القاتمة والرائحة الغريبة، وكان الجلوس على عرش الجدة يتطلب شجاعة حقيقية .

كان موقد الصالة يبعث رائحة خاصة به ، هي مزيج من الفحم المحترق والمعدن الساخن ، وعندما كانت لالا تحضر العشاء في المطبخ ، كان شذى الطعام يطفو بدفء في الشقة كلها ، ويندمج باتحاد علوي مع الروائح الغامضة المنبعثة من الغرفة السرية .

وكان السجاد يفوح برائحة النظافة وكرات النفتالين التي تخزن به عندما يطوى في الصيف . وكانت لالا تقوم كل جمعة بتلميع الأرضية الخشبية بشمع النحل والتربنتين وسائل ذي عبير نفاذ ، أما اللينوليوم فكانت تستخدم لتنظيفه مزيجاً من الحليب الفاسد والماء . وهكذا كان الناس يسيرون في الشقة وكأنهم وسط سيمفونيات من الروائح ... بالاضافة الى روائح البودرة والعطور وصابون القطران والبول والجنس والعرق ومراهم الشعر والسعوط والطعام . بعض الأشخاص كانت لهم روائح بشرية ، والبعض الآخر روائح تشعر بالخطر . فالعمة إيما كانت تضع شعراً مستعاراً تلصقه على صلعتها بواسطة نوع خاص من الصمغ . فكانت تفوح منها رائحة الصمغ دائماً . أما جدتي فكانت لها رائحة الغليسيرين وماء الورد . وأمي لها رائحة طيبة مثل الفانيليا . أما الرائحة المفضلة عندي فكانت لمرضة شابة عرجاء ، مكتنزة ، ذات شعر أحمر . وكان أروع شيء في العالم أن أضع راسي على ذراعها وأنام معها في سريرها ، وأدفن رأسي في رداء نومها الخشن .

كان عالماً مغموراً بالأضواء والروائح والأصوات . واليوم ، عندما اكون هادئاً ، استطيع أن امضي من غرفة لاخرى ، فأعرف واشعر بكل شيء كان . في هدوء بيت جدتي تفتحت أحاسيسي التي قررت أن احتفظ بها الى الأبد . ولكن اين اختفى كل هذا الآن ؟ هل ورث احد من أبنائي تلك الإنطباعات التي تركتها احاسيسي ؟ أبوسع احد أن يرث الإنطباعات التي تتركها الأحاسيس والتجارب والرؤى ؟

الأيام والأسابيع والأشهر التي أمضيتها في بيت جدتي أشبعت قدرتي على الصبر وحاجتي الى الصمت والنظام . كنت ألهو بألعاب وحدتي دون رغبة بوجود أصدقاء معي ، في حين كانت جدتي تجلس على كرسي في غرفةالطعام ، متشحة بالسواد ، تقرأ كتاباً أو تراجع حسابات أو تكتب رسائل ، فأسمع صوت ريشتها الفولاذية تصِرّ بوهن ، وكانت لالا تغني وحدها في المطبخ . انحنيت على لعبة المسرح ، وجعلت الستار يرتفع بشكل مثير ، كاشفاً عن قاعة الرقص المشرفة حيث ترقص سندريلا . كانت العابي تجعلني سيد المسرح ، وخيالي يجعل هذا المسرح مأهولاً بالشخصيات .

استيقظت ذات يوم احد وانا اشعر بآلام في حنجرتي ، فأعفيت من الذهاب الى الكنيسة وبقيت في الشقة وحدي . كان الطقس ربيعياً وأشعة الشمس تروح وتجيء بحركات سريعة صامتة على الستائر واللوحات . جلست تحت طاولة الطعام الضخمة وأسندت ظهري الى إحدى قوائمها المزخرفة . كانت الكراسي تحيط بالطاولة ، والجدران مغطاة بالورق الأصفر الذي بدأ يبهت لونه مع الزمن ويفوح برائحة القدم . وكان بوفيه الغرفة يرتفع خلفي كالحصن ، وإبريق الماء الزجاجي مع قطع الثلج فيه يتلألأ بأضواء متوهجة . وعلى الحائط المقابل علقت لوحة لبيوت بيضاء وصفراء وحمراء تقوم على ضفاف نهر ترسو فيه قوارب مستطيلة .

ساعة غرفة الطعام التي كانت تلامس السقف المزخرف ، كانت تحدث نفسها مثلما يفعل انسان منطوي على ذاته . وكان بوسعي أن أرى من موقعي تحت الطاولة ، الخضرة المبهجة لغرفة الاستقبال ذات الجدران الخضراء والسجاد والاثاث والستائر ، وأن أرى كذلك التمثال الصغير لتلك السيدة العارية البيضاء ، المبتورة اليدين ، وهي تنحني الى الامام قليلا وتنظر إلي مبتسمة . وكانت هناك ساعة مطلية بالذهب وفيها قبة زجاجية ، يوجد بداخلها شاب يمسك الناي ، وفتاة بقبعة كبيرة وتنورة قصيرة . وكان كلاهما مطليا بالذهب ، وعندما كانت الساعة تدق الثانية عشرة ، كان الشاب يبدأ العزف وترقص الفتاة .

يشع ضوء الشمس أكثر ويضيء المواشير الزجاجية للثريا ، وتدق الساعة ، فيعزف الشاب وترقص الفتاة ، ويومىء رأس السيدة البيضاء العارية ، وأرى شبح الموت يسحب منجله على الارض ، وأرى ابتسامة جمجمته الصفراء ، وخياله على زجاج باب الشرفة .



تملكتني رغبة لان أرى وجه جدتي ، فأمسكت بصورة ورأيت فيها جدي ، مدير المواصلات ، وجدتي ، وابناء زوجها الثلاثة . كان جدي ينظر الى جدتي بفخر ، لحيته السوداء مشذبة بعناية ، نظارته الأنفية ذات اطار ذهبي ، ياقة قميصه عالية ، وبزته دون أخطاء . أما أولاده الثلاثة فكانوا شباباً ، لهم نظرات مترددة وهيئات واهنة . أما أولاده العدسة المكبرة ، وبدأت أتفحص ملامح جدتي ، عيناها شاحبتان ولكنهما حادتان ، وجهها ريان وممتلىء ، رقبتها عنيدة وفمها حازم رغم الابتسامة اللطيفة التي تقتضيها كاميرا الاستوديو . شعرها أسود وقصير ومرتب بدقة . لا أستطيع القول : إنها كانت جميلة ، لكنها كانت تشع بقوة الارادة والذكاء والمرح .

كانت وجدي عريسين جديدين ، يعطيان انطباعاً قوياً بالثقة بالنفس وكانهما يقولان : لقد قبلنا بأدوارنا وسوف نتصرف وفقاً لها . أما الأبناء فقد بدوا مشتتين ، مقهورين ومتمردين أيضاً .

لقد بنى جدي في دالارنا واحداً من أجمل بيوتها الصيفية ، وكان يطل على النهر العريض ومخازن الحبوب والهضاب . وكان جدي يحب القطارات وخط السكة الحديدية الذي يخترق ارضه في منحدر يبعد بضع مئات من الأمتار عن الدار ، فكان يجلس على الشرفة ويحدد مواعيد القطارات الثمانية واتجاهاتها وحمولاتها ، وكان بوسعه أن يرى ايضا الجسر الذي تمتد فوقه السكة الحديدية عبر النهر ، والذي كان عملا هندسياً مبدعاً يبعث في نفس جدي الفخر والسعادة . قالوا : انني كنت أجلس طويلاً على ركبتيه ، لكنني لا اذكر شيئا من هذا ، لقد ورثت عنه شكل اصابعي الحاد ، وربما حماسه المنقطع النظير للمحركات البخارية .

ترملت جدتي بسرعة ، فاتشحت بالسواد وابيض شعرها . تزوج الابناء ورحلوا عن المنزل وبقيت هي وحيدة مع لالا . لقد أخبرتني أمي ذات يوم بأن جدتي لم تحب أحداً سوى ابنها الاصغر ارنست ، وأن أمي حاولت أن تحظى بحبها عن طريق التشبه بها في كل مناسبة، لكنها أخفقت لانها كانت إنسانة من النوعية الأكثر طيبة .

اما ابي فقد وصف جدتي بانها بغي مستبدة ، وطبعاً لم يكن وحيداً في رأيه هذا .

وعلى الرغم من كل هذا ، فإن أروع أوقات طفولتي انقضت برفقة جدتي . كانت تعاملني بحنان قاس وبرغبة للفهم . لقد حافظت معها ، ضمن أشياء أخرى عديدة ، على طقس كنت احبه للغاية . فقبل العشاء ، كنا نجلس على الكنبة الخضراء ونناقش اموراً كثيرة لمدة ساعة من الزمن . كانت جدتي تحدثني عن العالم والحياة والموت (الذي كان يشغل حيزاً

كبيراً من تفكيري آنذاك) : وكانت تريد أن تعرف كيف أفكر بدوري ، فتستمع إلي باهتمام ، وتراني من خلال أكاذيبي ، واحيانا ترميها جانباً بسخرية ودودة . لقد منحتني الفرصة لأن اتحدث كانسان حقيقي ، له حق في الكلام ، دون أن يلجأ للخداع .

كانت احاديثنا تدور في امسيات الشتاء الحميمة .

جدتي كانت تمتلك صفة أخرى مفرحة . كانت تحب الذهاب الى السينما ، واذا كان الفيلم مسموحاً به للاطفال ، كانت تأخذهم معها . وكان هناك عنصر واحد يفسد علينا متعتنا ، وهو حذاء جدتي المطاطي . فجدتي كانت تكره مشاهد الحب التي كانت أعشقها ، وعندما يجتمع البطل والبطلة في النهاية ، ويفيض بهما الشوق ، ويعبران عن مشاعرها ، كان حذاء جدتي المطاطي يصأصىء ، وكان صوته يملأ قاعة السينما كلها .

كان كل واحد منا يقرأ للاخر بصوت مرتفع ، كنا نخترع قصصاً ، خصوصاً تلك المتعلقة بالاشباح وامور الرعب الاخرى ، وكنا نرسم اشخاصاً على شكل مسلسل ، يبدأ أحدنا برسم مشهد ويتابع الاخر رسم المشهد التالي حتى يتطور الحدث . كنا نرسم « أحداثاً » لأيام عديدة ، ويتجمع لدينا حوالي اربعين أو خمسين مشهداً يتضمنون نصوصاً وشروحات .

أما النظام المنزلي في تراد غاردسغاتن فقد كان صارماً جداً . فعندما تشعل النار في المواقد الاجرية ، تكون الساعة السابعة صباحاً ، فنستيقظ ونغتسل بالماء البارد ، ونتناول العصيدة والخبز المدهون بالزبدة ، ثم نصلي وننصرف الى وظائفنا ودورسنا تحت اشراف الجدة . وفي الواحدة نتناول الشطائر والشاي ، ثم نغادر المنزل مها كانت الأحوال الجوية ، ونمضي لنشاهد ماتعرضه دور السينما . العشاء في الخامسة بعد الظهر ، ثم التسلية بألعاب قديمة تعود الى طفولة العم ارنست . نقرأ بصوت عال ، نصلي صلاة المساء ، ثم تقرع أجراس غوفيلا . ويبدأ الليل في الساعة الثامنة .

استلقي على السرير الضيق ، وانصت الى الصمت ، واتأمل حزمة الضوء المتدفقة من مصباح الشارع عبر زجاج النافذة ، ترسم أضواءً وظلالاً على السقف . وعندما تتعرض سهول او بسالا للعواصف الثلجية، كان مصباح الشارع يتأرجح بعنف فتتجدل الظلال ، وتسمع أصوات قصف في المواقد الآجرية .

في أيام الآحاد ، كنا نتناول العشاء في الساعة الرابعة وذلك بسبب حضور العمة لوتن . كانت تقطن منزلاً يعود الى ارسالية تبشيرية قديمة، وقد درست مع جدتي في المدرسة الثانوية نفسها ، وكانتا من الدفعة الاولى المتخرجة في هذه المدرسة ، وعلى مستوى البلاد . بعدها ذهبت العمة لوتن الى الصين ، ففقدت جمالها واسنانها واحدى عينيها .

كانت جدتي تعرف بأنني أعتبر العمة لوتن مقززة ، فرأت أن تقسو علي وتجلسني دائما في مواعيد العشاء بجانب العمة ، فأستطيع أن أرى أنفها ذا الشعر مباشرة ، وداخل أنفها ، حيث كتلة المخاط الصفراء المخضرة . كانت تفوح منها رائحة بول جاف ، ويتخلخل طقم أسنانها عندما تتكلم . وأثناء الطعام ترفع صحنها الى وجهها ، وأسمع أحيانا هديرا مكبوتا يعلو في معدتها .

لكن هذا الانسانة المثيرة للاشمئزاز كانت تمتلك كنزا . فبعد العشاء والقهوة كانت تخرج من صندوق خشبي أصفر ، مسرح ظلال صينياً . وكانت تمد قماشاً أبيض فوق عتبة الباب الفاصل بين غرفتي الاستقبال والطعام ، وتطفىء الضوء وتبدأ باستعراض لعبة الظلال تلك . كانت ماهرة للغاية اذ تشكل عدة ظلال في آن واحد . في البداية تصبح الشاشة حمراء أو زرقاء ، وفجأة يندفع عفريت على الخلفية الحمراء ، ثم يسطع القمر على الزرقاء ، ثم يتحول كل شيء الى اللون الأخضر ونرى سمكة عجيبة تغوص في اعماق البحر .

كان الأعمام يأتون للزيارة أحيانا وبرفقتهم زوجاتهم المرعبات .

كان الرجال سمانا ، ملتحين ، يتحدثون بأصوات مرتفعة . وكانت النسوة ترتدين قبعات كبيرة وتعبقن برائحة العرق . كنت أحاول أن اكتم أنفاسي قدر الامكان ، لكنهم كانوا يحملونني ، ويضمونني ويقبلونني ، يقرصونني ويعضونني ، وكنت انا هدفا لأسئلة حميمة : هل بلل الصبي نفسه هذا الاسبوع ؟ او الاسبوع الذي قبلـه ؟ افتح فمك ودعني أرَ هل يوجد لديك أسنان رخوة ؟ هنا يوجد شيء سيء ، هل نخلعه ؟ سوف تحصل على عشرة أورات(*) أعتقد أن الصبي يعاني من بداية حول . انظر هنا الى اصبعي ، نعم ، هـذه عين لا تستطيع أن تتتبع جيـدا . يجب أن تغطي عينك مثل القرصان . أغلق فمك . أنت تتثاءب كثيرا . لديك الزائدة الأنفيـة على ما اظن . أغلق فمك . الانسان يبدو أبـله اذا بقي فمـه مفتوحا . يجب أن تسعى جدتك لاجراء عملية جراحية لك . من المسيء ان تتجول وفمك مفتوح باستمرار ...

كانوا يتحركون بسرعة ، ويلتفتون حولهم بلا لباقة . وكانت الزوجات يدخنَّ ، لكنهن يمتنعن عن ذلك في حضور الجدة . فيستشطن غضبا ، ويتعرقن . كانت أصواتهن حادة وسريعة ووجوههن مطلية . لم يكنَّ يبدون كأمهات ، رغم انهن كن أمهات . لكن العم كارل كـان مختلفـا .



(*) اور : عملة سويدية .

٣

كان العم كارل جالسا على أريكة جدتي الخضراء ، يتلقى اللوم منها . كان رجلا ضخما وسمينا ذا جبهة عالية ، يعلوها القلق في هـذه اللحظة بالذات . وكان رأسه الأصلع منقطا ببقع بنية ، وشعيرات أذنية حمراء . وكانت معدته تطفو فوق فخذيه ونظاراته المغبشة دائما تخفي عينيه الزرقاوين اللطيفتين ، وقد عقد بقوة يديه المكتنزتين الناعمتين بين ركبتيـه .

أما جدتي فجلست باتزان على مقعدها عند طاولة غرفة الاستقبال، ووضعت كشتبانا على سبابتها اليمنى . وعندما كانت تريد التشديد على كلمة ما كانت تدق بالكشتبان على سطح الطاولة اللامع . وكالعادة ، كانت متشحة بالسواد ، تضع ياقة بيضاء ، وبروشا من حجر كريم ذي نقش بارز . وكان شعرها الأبيض يلمع بسبب حزمة ضوء الشمس . كان يوما شتائيا باردا ، النار متأججة في المواقد والنوافذ مزينة بأصص الأزهار المتجمدة . دقت الساعة معلنة الثانيـة عشرة ، وبدات الفتاة ترقص للشاب داخل القبة الزجاجية ، وعبرت مركبة ثلجية بأجراسها المتراقصة الشارع المرصوف بالحصى ، وتركت صدى ثقيلا .

كنت جالسـا على الأرض في الغرفة المجاورة ، حيث انتهيت لتوي مع العم كارل من وصل السكة الحديدية للقطار الذي أهدته اليه العمة الثرية آنا بمناسبة عيد الميلاد ، عندما ظهرت جدتي في الباب فجأة ودعت العم كارل الى المحاكمة بصوت مرتعش ، فنهض ، وتنهد وارتدى سترته ، وشد حزام بنطاله ولحق بجدتي الى غرفة الجلوس . أغلقت جدتي الباب ، لكنها لم تغلقه جيدا ، فاستطعت أن أتابع كل ما يحدث كما لو كان على خشبة المسرح ...

كانت جدتي تتحــدث ، والعم كارل يمطمط شفتيــه المزرقتين استياء ، ويغوص براسه أكثر فأكثر بين كتفيه . كان العم كارل نصف عم ، اذ كان الابن الأكبر لزوج جدتي ، ولم يكن يصغر جدتي بفارق كبير . وكانت هي وصية عليه ، فقد كان رقيقا وغير قادر على الاعتناء بنفسه ، لدرجة انه كان يبحث أحيانا عن مأوى يلجأ اليه ، لكنه كان يعيش كضيف يدفع ثمن اقامته مع سيدتين في منتصف العمر ، وهما العمتان بيدا واستر اللتان كانتا تعتنيان به قدر الامكان . كان مخلصا ورقيقا مثل كلب ضخم ، لكنه تجاوز الحد كثيرا في الآونة الأخيرة ، عندما اندفع ذات صباح ، خارجا من غرفته ، شبه عار ، وانقض بعنف على العمة بيدا وامطرها بوابل من القبلات والكلمات غير اللبقة . أمــا العمة بيدا فلم تصب بالفزع ، وركلت العم كارل في الموضع المطلوب ، تماما كما نصح الطبيب . ثم اتصلت بجدتي .

أحس العم كارل بالكرب الفظيع وسالت دموعه . لقد كان بطبيعته إنسـانا مسالما ، يتردد كل يوم أحد على الكنيسة بصحبة العمتين بيدا واستر ، وهو يرتدي حلته الغامقة النظيفة ، مظهره لطيف ، وصوته من طبقة الجهير الأول فكان غالبــا أحد المنشدين ، يشــارك في جميع الفعاليات ، ويقوم بدور حامل الصولجــان ، ويظهر في حفلات القهوة وتجمعات الخياطة ، فيقرأ بصوت عال للنسوة اللاتي ينصرفن بانشغال كامل الى خياطتهن .

كان العم كارل مخترعا حقيقيا ، حاصر مكتب براءات الاختراع الملكي بعشرات التصاميم والرســومات دون أن يلقى النجــاح الكافي ، واختاروا مشروعين اثنين فقط من كل ما قدمــه : آلة تجعــل حبــات البطاطس ذات حجم واحد ، وفرشاة مغسلة أوتوماتيكية .

كان العم كارل كثير الشكوك ، يعيش هاجسا مرعبا من أن أحدهم سوف يسرق أفكاره الجديــدة ، لذا كان يحمل أوراقــه معه دائما ، يضعها في لفة من القماش المشمع ويخفيها بين بنطاله وسرواله الداخلي

الطويل ، وقد كان القماش المشمع ضروريا لأن العم كان يعاني من التبول المرضي العفوي . وأحيانا ، اثناء التجمعات الكبيرة لم يكن بوسعه مقاومة عواطفه الجياشة ، فكان يلفّ ساقه اليمنى حول احدى قوائم الكرسي الأمامية ، ويرتفع قليلا ، ويدع بنطاله وسرواله الداخلي ينتقعان بالسائل اللطيف المستحث ذاتيا .

كانت جدتي والعمتان على معرفة بنقاط ضعفه ، وكن قادرات على كبحه من خلال مناداته باسمه بشكل حاد وسريع : « كارل » . ولكن ذات مرة سمعت العمة اغدا صوت أزيز في الموقد الحار ، فأسرعت رجدته يتبول في الموقد ، ويقول لها : « ها انا اصنع فطائر محلاة » .

كنت احترم العم كارل وأعتقد جازماً بكلام العمة سيفن حوله ، بأنه واحد من اكثر اخوته موهبة . في الماضي وبدافع الغيرة القاتلة وجه البرت ضربة بالمطرقة على راس شقيقه الاكبر كارل ، فأصابه بوهن مستديم في عقله .

وقد اعجبت به كثيرا عندما اخترع اشياء جديدة لمصباحي السحري وجهازي السينمائي . اعاد تركيب العدسات وحامل الشرائح الفيلمية ، أدخل الى الجهاز مرآة مقعرة واضاف ثلاث قطع من الزجاج الملون ، وأوجد خلفية متحركة للاشكال . وكانت الانوف تكبر ، والأشباح تظهر من القبور التي يضيئها القمر والسفن تغرق ، وأمٌ ترفع بطفلها عالياً قبل أن تبتلع الأمواج كليهما . واشترى العم كارل شرائح فيلمية جديدة دفع خمسة أورات ثمن المتر الواحد منها، ونقعها في ماء حار ممزوج بالصودا ليزيل المستحلب الاساسي ، وبعد أن جفت الشرائح ، رسم عليها مباشرة وبواسطة الحبر الصيني ، رسوما متحركة ، وأحيانا أشكالا لا على التعيين يمكنها فيما بعد أن تتحول وتنفجر وتتقلص .

كان يجلس وراء طاولة العمل باستغراق مطلق ، ويضع شرائح الفيلم فوق صحيفة زجاجية مضاءة من الاسفل ، ويرفع نظاراته الى جبهته ،

ويضع عدسة مكبرة على عينه اليمنى . كان يدخن غليونا معقوفا قصيرا ، ويحتفظ بمجموعة من الغليونات المتشابهة أمامه على الطاولة ، منظفة ومعباة وجاهزة للاستخدام . اما انا فكنت أحدق بتصميم في الاشكال الصغيرة تنشأ بسرعة ودون تردد في الكادرات الصغيرة ، وأسمع العم كارل وهو يثرثر وينفخ غليونه ويلهث أثناء عمله ... ويتحدث :

.« ها هو تيدي ، كلب السيرك ، يتشقلب الى الامام . انه يعرف كيف يفعل هذا . لكن المدرب القاسي يدفعه ليتشقلب الى الوراء ، وتيدي المسكين لا يعرف ، ها هو رأسه يرتطم بالدائرة ويرى شموساً ونجوماً . سوف نلون النجوم بالوان أخرى ، كالاحمر مثلا . هناك نتوء يظهر مكان الضربة ، لونه أحمر أيضاً . لا اعتقد ان العمتين بيدا واستر موجودتان في المنزل . اذهب الى غرفة الطعام وافتح الجارور الصغير على يسار البوفيه وستجد بداخله كيساً مليئاً بالشوكولا المحشية بالكريما ، لقد اخفوها عني لان امك قالت : لا يجوز لي أكل الحلويات خذ اربع قطع واحذر أن يراك أحد .. » .

اديت المهمة ، واحضرت اربع قطع اعطاني منها واحدة فقط ، والقى بالقطع الباقية في فمه واخذ يستمتع بها ، ثم أسند ظهره الى الكرسي واخذ يحدق بفسق الشتاء الرمادي ، وقال فجأة : « سوف اريك شيئاً ، ولكن اياك أن تقل لامك . » ونهض وأضاء المصباح الرئيسي في الغرفة ، فانعكس أصفر على سطح غطاء الطاولة الشرقي ودعاني للجلوس مقابله ، ثم مزق قطعة من قميصه حول معصمه الايسر ، بدأ بحذر ، ثم اخذ يمزقها بعنف الى أن تحرر معصمه وذراعه من كم القميص وبدا لي ان بضع قطرات من سائل بلون الفيوم قد اخذ يتدفق فوق الطاولة . هكذا بدا لي .

« توجد عندي حلتان ، ويجب علي أن اذهب كل يوم جمعة الى بيت جدتك لاغيّر حلتي وملابسي الداخلية ، انني اقوم بهذا منذ تسعة وعشرين عاماً ، ويجب أن اتعلق به كالطفل .. هذا ليس عدلا .. سوف

يعاقبها الله . ان الله يعاقب المتسلطين .. انظر هناك ... ان النار تشتعل في البيت المقابل . » .

كانت شمس الشتاء قد ظهرت فجاة . وشقت فجوة بين الغيوم الرمادية القاتمة وصبت ضياءها مباشرة على اللوح الزجاجي لاحد بيوت البناء المقابل في غاملا آغاتن ، وكانت انعكاسات الضوء تلقي بمربعات صفراء داكنة على سطح ورق الجدران . أضيء نصف وجه العم كارل بالضوء المتوهج ، وكانت يده العارية تستند على الطاولة .. أو هكذا كان يبـدو لـي .

عندما توفيت جدتي أصبحت أمي وصية على العم كارل ، فانتقل الى إستوكهولم حيث استأجر غرفتين صغيرتين من سيدة عجوز تقيم في رينغافاغن . واستمر النظام نفسه . كان يأتي كل يوم جمعة الى بيت الكاهن ويتسلم ثياباً داخلية نظيفة ويرتدي بدلة نظيفة ومكوية وبلا بقع ، ويتناول العشاء مع العائلة . لم يتغير مظهره ابداً ، جسمه لا يـزال مستديرا وثيلا ، وجهه وردي منتفخ ، عيناه الزرقاوان اللطيفتان خلف النظارات السميكة . واستمر يحاصر مكتب براءة الاختراعات بمشاريعه الجديدة وينشد التراتيل أيام الآحاد في الكنيسة . وكانت أمي تدبر له أموره المالية وتمنحه مصروفاً ثابتاً ، وكان يدعوها « الأخت كارين » ، ويسخر أحيانا من محاولاتها للتشبه بجدتي : « تحاولين أن تكوني زوجة أب . توقفي عن ذلك . فانت طيبة أكثر من اللازم » .

في يوم جمعة ، جاءت صاحبة المنزل حيث يسكن العم كارل وتحدثت مع أمي طويلا . كانت المرأة تبكي بصوت عال يمكن سماعه من خلال بضعة حيطان . وبعد ساعة أو ساعتين ودعتنا وكان وجهها منتفخاً واحمر من البكاء . انضمت أمي الى لالا في المطبخ ، جلست على الكرسي ، وبدأت تضحك .

قالت : « لقد خطب العم كارل واحدة تصغره بثلاثين سنة » وبعد بضعة أسابيع جاء الخطيبان الجديدان لزيارتنا ، وللتحدث حول مراسيم

الزفاف التي يفترض أن تكون بسيطة للغاية وتقام في الكنيسة . كان العم كارل ، على غير عادته ، يرتدي قميصاً رياضياً وسترة فضفاضة وبنطالا ضيقاً من الفلانيل دون بقع عليه . وكان قد استبدل بنظاراته القديمة اخرى حديثة ، وبحذائه ذي الأزرار آخر جديداً . كان صامتاً ، حزيناً ومنطوياً ، لم يتفوه بكلمة اعتراف واحدة ، ولم تبدُ عليه اية شطحة من شطحات الخيال العاصفة .

كان قد حصل على وظيفة حامل الصولجان في كنيسة صوفيا وتخلى عن اختراعاته ، لكنه همس لي : « هذا مجرد وهم .. سوف ترى .. » .

كانت خطيبته قد تجاوزت الثلاثين ، ضئيلة ورفيعة ، عظام كتفيها بارزة وساقاها رفيعتان . كانت اسنانها بيضاء وكبيرة وشعرها بلون العسل ، انفها حاد ودقيق ، فمها رقيق ورقبتها مستديرة . عيناها سوداوان ولكن مضيئتان ، وكانت تعامل خطيبها بحنان وتملك وتسند يدها القوية على رغبته . لقد كانت معلمة رياضة .

وهكذا توقفت الوصاية التي كانت تبدو أبدية . قال العم كارل : « ان رأي زوجة ابي فيما يتعلق بحالتي العقلية هو احد أوهامها . لقد كانت شخصاً يحب السلطة ، لذا فهي بحاجة دائمة لوجود شخص تتحكم به » .

أما خطيبته فاخذت تتأمل الاسرة بعينيها البراقتين ، ولم تقل شيئاً . بعد بضعة اشهر انفسخت الخطوبة . وعاد العم كارل الى غرفتيه في رينغافاغن وترك عمله كحامل صولجان في الكنيسة . وقد اعترف لامي أن خطيبته حاولت أن توقفه عن اختراعاته وانتهى الأمر بالصراخ والمشاجرات وبخدوش على وجنتي العم كارل الذي قال : « ظننت أن بوسعي التوقف عن الاختراعات ، لكن الامر كان مجرد وهم .. » .

وعادت أمي وصية عليه من جديد ، وعاد يأتي الى بيتنا كل يوم جمعة ، فيغيّر حلته وثيابه الداخلية ويتناول العشاء مع العائلة ، وزدادت رغبته في أن يتبول على نفسه .

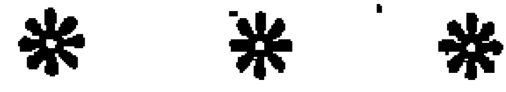
كانت لديه عادة اخرى اشد خطورة .. فاثناء عبوره الى المكتبة الملكية أو مكتبة المدينة ، حيث كان يمضي معظم ايامه ، كان يعبر الطريق من خلال نفق السكة الحديدية في جنوب استوكهولم . لقد كان في النهاية ابن مهندس مواصلات شيد الخط الحديدي الواصل بين كريلبو وابنسون فضلا عن عشقه للقطارات . وعندما كانت القطارات تهدر داخل النفق وتعبر امامه ، كان يلتصق بظهره الى الجدار الحجري . يسحره الصوت واهتزاز الحجارة القديمة ، ويسكره الدخان والغبار .

وذات يوم ربيعي ، عثروا على جثته ممزقة عند قضبان السكة ، ووجدوا داخل بنطاله ملف القماش المشمع وبداخله تصميم لمشروع يجعل عملية استبدال الكرات الزجاجية لمصابيح الشارع اكثر سهولة .

* * *

٤

عندما بلغت الثانية عشرة ، سُمح لي أن أرافق موسيقياً يعزف على آلة السلستا في كواليس المسرح أثناء عرض مسرحية سترندبرغ (لعبة حلم) . كانت تجربة قاسية . كنت أراقب ليلة بعد ليلة ، من موقعي في برج ستار المسرح مشهد الزواج بين المحامي والفتاة . كانت اول مرة في حياتي احس بسحر التمثيل . وكان هناك ممثل يؤدي دور ضابط ، يقف في الكواليس بانتظار لحظة دخوله ، كان ينحني ويتفحص حذاءه وقد شبك يديه خلف ظهره ، ثم يبدأ بتنظيف حنجرته دون صوت . كان انساناً عادياً على نحو مثير للدهشة . وعندما تحين اللحظة يفتح الباب ويدخل الى بقعة الضوء . وهناك كان يتحول ... كان يصبح الضابط .



بالاضافة الى انني كنت اخفي في داخلي حالة اضطراب مستمرة وجب علي أن اراقبها وأسيطر عليها ، فقد كنت أعاني من الغضب الشديد عندما اواجه اموراً لم تكن متوقعة او متنبأ بها . وهكذا تتحول ممارسة مهنتي الى ادارة متحذلقة لأمور سيئة لا يصح ذكرها . انني اتصرف كوسيط ينظم ويهيىء الطقوس المناسبة . ثمة منتجون يخلقون فوضى خاصة بهم ، ومن ثم ، في أفضل الاحوال ، يخرجون بعرض مسرحي من هذه الفوضى . ان أسلوب عمل الهواة هذا يثير اشمئزازي . انا لا أشارك في الدراما ابدا ، بل أحولها واجعلها صلبة . والاهم من هذا كله انني لا املك حيزاً لعقدي الذاتية ، ولكن مفاتيح لاسرار النص والسيطرة على نبضات ابداع الممثل . أكره الشغب والعدوانية والعواطف المتفجرة بلا حساب . ان البروفات التي أجريها بمثابة عمليات للمقدمات واستعداد للهدف حيث يجب أن يسود النظام الذاتي والنظافة والهدوء . ان البروفات عمل لائق وليس معالجة خصوصية للمنتج أو الممثل .

انني احتقر والتر الذي يأتي ثملا في التاسعة والنصف صباحاً ويتقيأ كل عقده الذاتية ، اشمئز من تيريزا التي تندفع وتعانقني وسط عاصفة من رائحة العرق والعطور ، اود أن اضرب بول ، هذا الرجل المخبول الذي يأتي بحذاء ذي كعب عال ، وهو يعرف انه سيمضي يومه ذهابا وايابا على الخشبة ، لا استسيغ فانيا ، التي تأتي دائماً متاخرة وهي غير مرتبة ، تثرثر وتنفخ ، وتحمل الاكياس والحقائب ، تضايقني سارة التي نسيت نسختها ، ولديها مكالمات هاتفية يجب أن تقوم بها . اريد هدوءاً مطلقاً ونظاماً ومودة . هكذا فقط نستطيع أن نلامس عالما بلا حدود ؛ وأن نفسر الامور الغامضة ، ونتعلم آلية البروفة ... البروفة المتدفقة بالحياة . انه العرض المسرحي نفسه يجري كل ليلة ، ومع ذلك فهو دائماً يولد من جديد . الامر يتعلق بادراك السر ، بحيث لا يتحول العرض الى تكرار متعمد لا حياة فيه . الممثلون الجيدون يعرفون السر والممثلون متوسطو الجودة عليهم ان يتعلموا ، اما السيئون فلن يتعلموا أبداً .

اذاً يكمن عملي في ادارة النصوص وساعات العمل . انا مسؤول عن الايام بحيث لا تمضي بلا جدوى . اراقب ، اسجل ، ابني واسيطر . انا العين والاذن البديلتان للممثل . اقترح ، أواسي ، اشجع او ارفض . لست تلقائياً ولا مندفعاً . يجب أن ابدو وكأنني هكذا فعلا . اذ يكفي أن ارفع القناع للحظة واعبر عما اشعر به حقاً حتى يلقي بي اصدقائي من النافذة .

وعلى الرغم من القناع فانا لا اتنكر ابداً . ان حدسي يتكلم بسرعة ووضوح . انا حاضر دائماً . القناع مجرد مرشح لا يسمح لاي امر شخصي أن ينفذ من خلاله . يجب أن يبقى اضطرابي في مكانه بحيث لا يلحظه احد .

لقد عشت لفترة طويلة مع ممثلة موهوبة للغاية ، تكبرني سناً . كانت تحتقر نظريتي في النقاء والطهارة وتعتبر المسرح خراء وشهوة ، غضباً وحقداً .

وكانت تقول لي : « الشيء الوحيد الممل فيك يا انغمار برغمان هو ولعك بالأشياء الصحيحة والمفيدة. يجب أن تتخلىعن هذا الولع فهو وهم مشكوك به ، وسوف يخلق أمامك عقبات لن تجرؤ على تجاوزها . يجب ان تتصرف كالدكتور فاوست عند توماس مان ، وتبحث عن عاهرة مصابة بالسفلس » .

ربما كانت محقة ، وربما كان كل هذا مجرد هراء رومانسي في تيار فن البوب ومشاهد المخدرات المشبوهة . لا اعرف بالضبط . كل ما أعرفه أن هذه الممثلة الجميلة والمتألقة قد فقدت ذاكرتها وأسنانها وتوفيت في سن الخمسين بمستشفى للأمراض العقلية. وهذا ماحصلت عليه مقابل تعبيرها عن مشاعرها .

ولهذا فان الممثلين الاذكياء معرضون للخطر إذ تصبح تأملاتهم الجديدة ذات صفة كارثية . لقد كان ايغور سترافنسكي يحب التعبير عن نفسه وكان يكتب قدرا كبيرا من المقطوعات المرتجلة ، فالبركان المتأجج في داخله يصعب كبحه . ثم يأتي موسيقيون متوسطو الجودة ويقرؤن أعماله ويومئون برؤوسهم تعبيرا عن اعجابهم . ومن ثم يبدؤون وهم أشخاص لا وجود لأقل اثر من البركان في داخلهم ـ برفع هراواتهم ، ويقودون العمل الموسيقي ويحاولون كبحه ، في حين أن سترافنسكي الذي لم يكن معتادا على قيادة مقطوعاته ، قاد ذات مرة مؤلفه (أبولون موسافيت) كما لو كان تشايكوفسكي بنفسه . أما نحن الذين كنا قد قرأنا المؤلف ، فقد استمعنا اليه بدهشة .



في عام ١٩٨٦ شرعت باخراج مسرحية سترندبرغ (لعبة حلم) للمرة الرابعة . وقد بدا القرار صائبا بتقديم (الآنسة جولي) و (لعبة حلم) في العام نفسه . كانت غرفتي في المسرح الدرامي الملكي ، والمعروف

باسم دراماتن ، قد أعيد تصليحها فانتقلت اليها مجددا وشعرت كأنني في بيتي .

رافقت فترة التحضيرات مجموعة من المشاكل والتعقيدات . في البداية تعاقدت مع مصمم مناظر في غوتبزغ والذي ما لبث أن تخلت عنه زوجته بعد عشر سنوات من الحياة المشتركة وذهبت مع ممثل شاب. هبت على مصمم المناظر آلام القرحة ووصل الى بيتي في فارو (جزيرة الخراف) بحالة بائسة ، وكان ذلك بعد منتصف الصيف .

بدانا اجتماعاتنا اليومية وكلنا أمل بأن أجواء العمل سوف تحتوي شعوره بالاحباط والقهر . كانت شفتاه ترتعشان ، نظر إلي بعينين بارزتين وهامدتين وهمس قائلا : « أريدها أن تعود » . لم أباشر بعلاج الأرواح ، واكدت له ضرورة الاستمرار في العمل ، لكنه بعد أسابيع قليلة انهار تماما واعترف بأنه لن يكون بالمستوى المطلوب ، ثم حزم حقائبه وعاد الى غوتبزغ ، حيث أبحر بعد فترة مع عشيقة جديدة .

اضطررت للاستعانة بصديقة قديمة وهي ماريك فوس . كانت ودودة ومتحمسة للعمل ، فجاءت واستقرت في بيت الضيافة وبدأنا بداية طيبة . كانت ماريك قد عملت في المسرحية نفسها مع أولف مولاندر ، مؤسس التقليد المسرحي الخاص بسترندبرغ .

لم أكن أشعر بالرضى تجاه الحلول الاخراجية الثلاثة السابقة ، فالنسخة التي صورها التلفزيون السويدي كانت محزنة بسبب الكوارث التقنية ، إذ لم يكن ممكنا في ذلك الوقت اجراء مونتا للأشرطة . والعرض الثاني لم ينجح بسبب ضيق المسرح رغم وجود ممثلين ممتازين . أما التجربة التي أخرجتها للألمان فقد لاقت فشلا ذريعا .

هذه المرة قررت تقديم نص المسرحية كاملا دون أي تعديل أو حذف ، تماما كما كتبها سترندبرغ ، وكنت أسعى كذلك الى ايجاد

حلول تقنية وجمالية للمشاهد صعبة التنفيذ ، أردت أن يشعر الجمهور بالجو القذر في فناء مكتب المحامي ، بالجمال العريق لمنطقـة فيفرفيك الريفية ، بالضباب الجهنمي لجحيم سكامسوند ، وبالازهار الساحرة المحيطة بقلعة ريسنغ .

كانت خشبة المسرح في دراماتن غير عملية ، مضغوطة وفي حالـة يرثى لها . وكانت أساسا قاعة للعرض السينمائي قد حوّلت لمسـرح دون أن تخضع للاصلاحات منذ عام ١٩٠٤ ، وقد قررنا إزالة أربعـة صفوف من الكراسي الأمامية حتى نوسع خشبة المسرح،ونكسب خمسة أمتار اضافية .

وبهذه الطريقة حصلنا على غرفتـين اضافيتين ، واحدة خلفيـة واخرى أمامية . الغرفة الامامية ، الأقرب الى الجمهور ، هي غرفـة الكاتب ، لها نافـذة ملونة حديثة الطراز وتطل على شـجرة النخيل ، وتضم خزانة الكتب ذات الباب السري . والى يمين الخشبية أكـوام النفايات وحجرة المؤونة الغامضة ، وفي الزاوية جلست « إديت البشعة » قرب البيانـو ، كانت ممثلة وعازفـة بيانو ممتازة ، ترافق الاحداث بالفعل والموسيقا .

وكانت الغرفة الامامية تفضي الى غرفة اخرى سحرية . عندمـا كنت طفلا ، اعتدت أن أقف في غرفة الطعام المظلمة ، وانظر الى الصالون عبر الابواب المفتوحة قليلا .. كانت الشمس تضيء الأثاث والاشياءوكل شيء يبدو أخضر مثل الأكواريوم ، وكان الناس هناك يتحركون ، يختفون ، ثم يظهرون ويقفون ويتحدثون بأصوات خافتة ، كانت الازهار تتالـق على حافة النافذة . والساعة تتكتك . كانت غرفة سحرية ، أردت إن أخلق واحدة مثلها في الغرفة الداخلية على خشبة المسرح .

- في أيار عام ١٩٠١ تزوج سترندبرغ من فتاة جميلة وغريبة تعمل في مسرح الدراما الملكي . كانت قد بلغت الثلاثين وحققت نجاحاملحوظا .

استأجر سترندبرغ شقة جديدة في كارلابلان ، تحتوي على خمس غرف واختار لها الأثاث وورق الجدران واللوحات والتحف العتيقة . وهكذا دخلت العروس الشابة الى عالم من الديكور اختاره لها زوجها الكهل، وبدأ الشريكان المتناقضان تماما يتحملان بحب واخلاص وذكاء ، من أجل الاستمرار في الدورين المختارين لهما . ومع ذلك سرعان ما سقطت الاقنعة واتضحت مأساتهما ، فتركت الزوجة المنزل غاضبة وذهبت لتقيم عند اهلها في احدى الجزر ، وبقي سترندبرغ وحيدا معديكوراته في بيته ، في مدينة هجرها أهلها هربا من الحر ، وأصيب بمرض مجهول .

في مسرحية (الى دمشق) يقول الغريب رداً على السيدة التي جاءت لتلعب معه لعبة الموت : « تماماً مثلما ألعب مع الحياة . لقد كنت كاتباً . لم استطع أن أقاوم إحساسي الفطري بالكآبة ولا أن أنظر الى الأمور بشكل جدي حتى عندما كانت تتعلق بأحزاني الكبيرة ، وثمة لحظات كنت أشعر خلالها أن الحياة ليست واقعية أكثر من كتاباتي » .

والآن اصبح الجرح عميقاً وبدأ ينزف بغزارة ، ولم يعد ممكناً تجاوزه كما يحدث أثناء مصائب الحياة الأخرى . إن الألم يشق طريقه نحو الغرفة المجهولة ويفتح مسرباً للفيضان . سترندبرغ يكتب في يومياته انه يبكي وان الدموع تطهر عينيه ، وأن بوسعه رؤية نفسه بنظرات متسامحة وقانعة . لقد كان يتحدث بلغة جديدة .

ويمضي نصف المسرحية الأول بسلاسة ، دون صعوبة في التأويل ، وكل شيء يبدو مليئاً بالفرح والعذاب والحياة والاصالة والمفاجآت . إن هذه الدراما تخلق مسرحها بنفسها .

تبدأ الصعوبات بعد ذلك ، فتحل مشاهد فاغرفيك بعد سكامسوند . يتعثر الإلهام . لو لجأت الى الإختصار فسوف تموت المشاهد ، واذا قدمتها كاملة ، فسوف يتعب الجمهور .

كان الأمر يتطلب اعصاباً باردة ومحاولة التقاط إيقاع مفقود . وكان هذا ممكناً فالنص لا يزال قوياً ومسلياً وشاعرياً ، ولم تعد (لعبة حلم) مجرد لعبة حلم ، ولكن عرضاً موضوعياً ذا نوعية مشكوك بها .

ومع ذلك بقيت لدينا أكثر المشاكل تعقيداً . نحن نعرف أن السلام يعم المنزل الآن ، فالزوجة الشابة الحامل وهبت نفسها لزوجها الكاتب الذي توقف عن التدخين حتى يثبت حسن نيته . إنهما يذهبان الى المسرح والأوبرا ، ويقيمان حفلات عشاء وينظمان أمسيات موسيقية . إن مسرحية الحلم تزدهر هنا . ويكتشف سترندبرغ أن الدراما تتبلور لتصبح بانوراما لحياة إنسانية يشرف عليها رب مشغول البال ، ويشعر فجاة بأنه مدعو لأن يعبر بالكلمات عن الحد الفاصل الذي كان يستعرضه سابقاً بطريقة غير حازمة . تاتي ابنة اندرا وتمسك بيد الكاتب ، لتأخذه بعيداً ، ويقرأان أشعاراً عديمة القيمة .

إن المخرج الذي يترك سترندبرغ يتخبط في عصارته الذاتية، سوف يواجه متاعب لا يمكن تحملها . كيف يمكن خلق كهف مينغل دون أن يفسد روح المشهد ؟ كيف يمكن المناورة بصدد عويل الكاتب الطويل والموجه الى اندرا والذي يتألف بشكل أساسي من الشكوى واللوم ؟ كيف يمكن خلق عاصفة ، وتحطم السفن ، والأصعب من هذا كله ، عرض المسيح وهو يسير على الماء ؟

حاولت أن أقدم عرضاً مسرحياً صغيراً ضمن العرض الأساسي . ينظم الكاتب مكاناً للتمثيل يحتوي على شاشة وكرسي وغرامافون ، ويغطي ابنه اندرا بشال شرقي ، ويتوج نفسه أمام المرآة ويعطي لصديقه الممثل بضع صفحات من النص الأساسي ، ثم يتدرجون من اللعب الى الجد ، من المحاكاة الساخرة الى الهزل ، ثم يعودون الى الجد ثانية ، مسرح عظيم وهارمونية نقية وبسيطة .

لقد أسعدنا هذا الحل ، وعثرنا في النهاية على طريقة عملية .

أما المشاهد التالية التي تدور في كواليس المسرح فهي باهتة ولا تقول شيئاً ، ومع ذلك فلا يمكن إلغاؤها .

وعلى الرغم من كل ذلك، فإن المشهد الختامي عند المذبح يبدو رائعاً للغاية ، حيث تعلن ابنة اندرا عن حل لسر الحياة وغموضها . ووفقاً ليوميات سترندبرغ ؛ فقد كان يقرأ في تلك المرحلة كتباً حول الميثولوجيا والفلسفة الهندية . لقد مزج ثمار قراءاته بحبكة المشهد ، لكن هذه الثمار لم تتجمع في أسفل الصحن ولم تعطه أي طعم ، وبقيت قطعة من القصص الهندية لا مكان لها في بقية النص .

يطـرح مشهد البداية السريع ومشهد النهاية مشكلة مستعصية بشكل خفي .. في البداية يتحدث طفل الى والده قائلا : « إن القلعـة تزداد ضخامة . هل لاحظت كم كبرت منذ السنة الماضية ؟ » وفي النهاية يعترف الكاتب العجوز : « أوه ، الآن فقط اشعر بآلام الوجود . وهذا ما يعنيه كوني إنساناً . » . طفل في البداية ورجل عجوز في النهاية ، وثمة حياة إنسانية كاملة بينهما . لقد وزعتُ دور ابنة اندرا على ثلاث ممثلات . البداية متوهجة والنهاية ملائمة ، وحتى سر الحياة يصبح قصة بطولية حية من خلال الخبرة الحياتية والتفاني المدهش لممثلات عظيمات . إن التي تؤدي دور الابنة في مرحلة النضج قوية ، فضولية ، مرحة ، نزِّية ، ومأساوية عندما تمضي في الحياة .

لم يتطلب اتخاذ قرار مناسب من أجل المحافظة على الحلول الجيدة والملائمة للمفاهيم الجديدة مثل هذا الجهد والزمن في حياتي كلها . لكن عملية الإلغاء كانت ضرورية ، وفقاً لنصيحة فولكنر القاسية : « اقتل أحباءك » . وفي حين كان اخراج مسرحية (الآنسة جولي) مجرد لعبة مسلية ، فإن إخضاع (لعبة حلم) تحول الى حملة عسكرية متعبة .

اول مرة في حياتي اشعر أن العمر المتزايد قد بدأ يقوضني . فالصور لا تظهر إلا بصعوبة بالغة ، واتخاذ القرار يصبح صراعاً ، وينتابني خجل

غير مألوف . ما كان مستحيلاً بقي مستحيلاً واخذ يخنقني . كنت على وشك الاستسلام ، وهذا أمر نادر جداً بالنسبة لي .

بدات البروفات يوم الخميس الرابع من شباط ، مع لقاء ناقشنا خلاله بعض التفاصيل العملية والتقنية . كنا قد اتفقنا على ضرورة حفظ النص في أسرع وقت ممكن . إن الدوران في المكان ووضع الأنف في الكتاب مع تجميد إحدى الذراعين بات شيئاً من الماضي . يعتقد الممثلون الكسالى أنهم سوف يتشبعون بالنص بشكل حيوي أكثر خلال البروفات دون أن يكونوا قد قرؤوه جيداً قبل ذلك ، لكن ذلك سيسبب الفوضى ، إذ سيحضر ممثلون يعرفون ماذا سيقولون وآخرون لا يعرفون ، وتصبح البروفة اشبه بقطعة قماش مرقعة .

إن الإمتحان الأكثر أهمية بالنسبة للممثل هو التركيز والتجاوب المطلق مع زميله الممثل .

عندما اعود الى قراءة يوميات العمل على (لعبة حلم) لا تبدو القراءة مشجعة .. كنت في حالة سيئة آنذاك ، وكنت اشعر بالإرهاق وخيبة الأمل ، وكان وركي الأيمن يؤلمني باستمرار ، وكانت الصباحات مليئة بالمتاعب والهموم . كانت معدتي تمارس عمليات تخريب ضدي من خلال التشنجات ونوبات الإسهال المباغتة ، وكان الملل مطبقاً على روحي ويخنقني .

لكنني لم أبد شيئاً . كان إهمالاً في الواجب أن أدع التأثيرات الشخصية تتطفل على عملي . يجب أن يكون المزاج هادئاً وقوياً وان أقمع هذه النزوات التي لا تحصى . يجب الإعتماد على التحضيرات الدقيقة والتطلع الى أشياء افضل .

قبل شهر من بدء البروفات ، طلبت لينا أولين أن تتحدث إلي ، وكان مفترضاً أن تؤدي دور ابنة اندرا ، لكنها كانت مصابة بداء

الخصوبة السائد في المسرح . بحيث أنها ستكون في شهرها الخامس ليلة الإفتتاح وسوف تلد في آب ، وهكـذا لم يعد ممكناً الحديث عن عروض في الخـريف ، كذلك لم يكن ممكناً تأجيـل العـروض الـى الربيع المقبل .

كان الوضع محيراً . أذكر أن مسرحيتي التلفزيونية (بعد البروفة) كانت تدور حول لقاء بين ممثلة شابة (أدت الدور لينا أولين) ومخرج عجوز يعمل على (لعبة حلم) للمرة الرابعة . تعترف الممثلة بأنها حامل ، فتنهار أعصاب المخرج الذي كان يعتمد عليها منذ البداية ، لكن الممثلة لا تلبث أن تجهض حملها .

أما لينا أولين فلم تكن عازمة على ذلك . كانت إنسانة قوية وجميلة، مفعمة بالحياة وعاطفية الى حد بعيد ، ومشوشة أحياناً ، ولكن مستقرة دائماً وذات تفكير صائب . كانت سعيدة لأنها حامل ، وكانت ترى كل الصعوبات وتقول إنها إذا كان لا بد أن تنجب ولداً فيجب أن يحدث هذا الآن وليس فيما بعد ، رغم أن نجمها بدأ يلمع لتوه .

قد يبدو الأمر مضحكاً بالنسبة للمخرج ، لكنه ليس كذلك بالنسبة لمن ستصبح أماً في المستقبل . إن لينا اللطيفة والمحبوبة قد تخلت عن مهنتها وقررت أن تنجب ولداً .

لم يكن ممكناً تحديد مشاعري . أعتقد أن لينا ألحقت بي هزيمة نكراء . إن ما يدعى بالواقع قد يبدل كل الأحلام والتخطيطات ، ولكن سرعان ما تبدد إحساسي بالخيبة .

إن جهودنا المسرحية لا تشكل أهمية على المدى البعيد ، أما ولادة طفل فإنه حدث ذو معنى . كانت لينا سعيدة ، وكنت انا سعيداً بها .

أجواء البروفات الباهتة لم تكن مرتبطة بما حدث . مضت الأسابيع وبقيت نتائج جهودنا تدعو للإحترام .

وفي يوم الجمعة ، ١٤ شباط ، قمنا بمراقبة العرض كاملاً دون انقطاع او إعادة . وقد كتبت في يومياتي : « العرض يشعرني بالإحباط. جلست اتابعه محملقاً ، ساكناً . ولكن هناك متسع من الوقت » . كان الإفتتاح مقرراً في ١٧ نيسان ، (وكان يصادف مرور تسع وسبعين سنة على يوم العرض العالمي الأول للمسرحية) .

في يوم الأحد كنت جالساً في غرفتي مع ارلند يوزفسن ، نتحدث عن باخ الذي عاد من أحد أسفاره ليجد أن زوجته وأولاده قد ماتوا جميعاً اثناء غيابه ، فكتب في مذكراته : « يا إلهي ، لا تدع فرحي يهجرني » .

لقد أمضيت حياتي كلها مع ما كان يدعوه باخ بالفرح . كانت حياة مليئة بالأزمات والأحزان وبحالات يتعب القلب معها ولا يعود قادراً على التحمل . لكن هذه الحالات لم تكن معادية أو مدمرة ، وهي نفسها التي دعاها باخ « فرحي » ... يا ربي ، لا تدعى فرحي يهجرني .

وفجاة وجدت نفسي أقول لارلند : « إنني على وشك ان أضيع فرحي ، اشعر بهذا ، إن الفرح يهرب من داخلي ، إنه يتلاشى » .

بدأت ابكي ، ثم شعرت بالخوف لأنني لم أبك أبداً . في طفولتي كنت ابكي متعمداً ، وكانت أمي ترى الكذب من خلال دموعي فتعاقبني . توقفت بعدها عن البكاء . لكنني كنت أشعر احياناً بصوت البكاء في أعماقي وكان صداه يصلني ويضربني دون تحذير ... إن طفلاً يبكي بشكل مكبوح يبقى سجيناً الى الأبد .

في تلك الأمسية القاتمة في غرفتي بالمسرح ، هاجمتني نوبة البكاء على نحو غير متوقع . لقد كان حزني عميقاً وقاسياً .

منذ سنوات رزت صديقاً يموت بالسرطان . كان يتآكل ويتحول الى قزم ذابل بعينين كبيرتين واسنان صفراء . كان يرقد على

جانبه وقد ارتبط جسده بعدد من الأجهزة الطبية ، وكان يضع يده قريبة الى وجهه ويحرك أصابعه . ابتسم ابتسامة مخيفة وقال : « انظر ، لا ازال قادراً على تحريك أصابعي .. إنها تسلية دائمة » .

قلت لنفسي : يجب أن يتكيف الإنسان مع نفسه ، وينسحب من الخطوط الأمامية ، فالمعركة انتهت بالخسارة ولا يمكن توقع أي شيء ، رغم أنني عشت متأثراً بضلال مثير للفرح : بأن برغمان سوف يبقى معافى للأبد . يتساءل الممثل سكات في فيلم (الختم السابع) وهو متشبث بقمة شجرة الحياة : « الا توجد أية استثناءات بالنسبة للمنافقين ؟ » . فيجيبه شبح الموت وهو يضع منشاره على جذع الشجرة : « لا توجد استثناءات بالنسبة الممثلين » .

وفي ليلة الإثنين ارتفعت حرارتي وبدأت أعرق وأرتجف . كانت تجربة غير مألوفة بالنسبة لي ، ولم أكن أبداً مريضاً على هذا النحو .. كنت أمرض أحياناً ولكنني لم أكن أتوقف خلال المرض عن البروفات أو التصوير .

بقيت حرارتي مرتفعة لعشرة أيام امضيتها نائماً في السرير غير قادر حتى على القراءة . كنت افقد توازني عندما أنهض من السرير . وكان الأمر مثيراً أن أكون مريضاً لهذه الدرجة ، أنعس فأنام ، ثم أستيقظ ، فأسعل وأتنشق . ازدهرت الانفلونزا وازدادت درجة حرارتي . لقد كانت فرصتي ، إنها اللحظة المناسبة لو أنني قررت التخلي عن (لعبة حلم) .

كنا قدصورنا العرض التجريبي على الفيديو ، فشاهدته مرات عديدة ولاحظت نقاط الضعف والإخفاقات . وقد شجعتني امكانية تجاوزها على النهوض والاستمرار ... لم أكن قد مت بعد .

قررت أن أعود للبروفات في ١ نيسان مهما كانت حالتي الصحية . وفي الليلة السابقة لهذا اليوم عادت حرارتي للارتفاع وهاجمتني

تشنجات المعدة ومع ذلك فقد شرعت بالعمل . مزقت أوراقاً قديمة وبدأت كل شيء من البداية . وقد تجاوب الممثلون معي بحماس شديد . وفي الليالي كنت أعاني من الأرق والإجهاد الجسدي .

في يوم الأربعاء ٩ نيسان أنهينا عملنا في غرفة البروفات ، وقد كتبت في يومياتي : « تحقق التفاهم وقويت دعائمه . يجب أن أتابع بقوة . أنا حزين ولكني لست محطماً » .

بعد ذلك انتقلنا الى فوضى المنصة ، وبدأنا بتغيير الأشياء وتعديل الإضاءة وتحضير الملابس والأقنعة . كان العالم كله يهتز ويتداعى . هل سأنجح حقاً . ملاحظات كثيرة : تحتاج هنا الى قطعة قماش كبيرة . إن مكياجك شديد البياض . قاتل باله لا يزال طليقاً . آلة الثلج لا تعمل جيداً . إن الثلج يخرج أكواماً . إن جهاز الإضاءة الأيمن يعطي ضوءاً مختلفاً عن غيره . لماذا ؟ يوجد خطأ في هذه المرآة ، الخطأ أساسه من المصنع . لا توجد مرايا في السويد ، يجب أن نحضر مرآة جديدة من النمسا . اضطرابات في جنوب افريقيا ، مزيد من القتلى والجرحى . لماذا تصدر المراوح هذا الضجيج ؟ إن أجهزة التكيف ميئوس منها . لماذا لم ترتدي حذاءك ؟ صانع الأحذية مريض ولا بد من الانتظار الى يوم الجمعة . الا استطيع أن أتعامل مع الأمور ببساطة ؟ إن حنجرتي متقرحة . ابق مكانك ، خطوتين الى اليمين ، هذا جيد . هل تشعر ببقعة الضوء الآن ؟

الصبر والمرح ، الضحك عوضاً عن الشجار ، هكذا تمضي الأمور على نحو أسرع ، لكنها تبقى مؤلمة .

إن العالم يهتز ويتداعى . ونحن نغمغم بفضول داخل الحيطان السميكة لهذا البناء . إنه عالم صغير من الفوضى المزعجة ، من الصناعة، من المهارة والحب . وهذا كل ما نعرفه .

في الصباح التالي لاغتيال أولف بالمه تجمعنا في قاعة الانتظار بالمسرح . كان من المستحيل أن نبدأ العمل . تحدثنا بتلكؤ محاولين الوصول الى بعضنا البعض . احدهم كان يبكي . إن مهنتنا تبدو غريبة عندما يشق الواقع طريقة إليها ويمزق العابها الوهمية . فعندما احتلت المانيا النريج والدانمارك ، كنت أحضر (ماكبث) مع مسرح للهواة في صالة مدرسة سفيابلان . قمنا بإنشاء خشبة مسرح واستغرق إعداد المسرحية عاماً كاملاً . تحولت المدرسة الى موقع لحامية عسكرية وتم استدعاء عدد منا للخدمة ، ولسبب يصعب تفسيره سُمح لنا بأن نتابع عروضنا . كانت المدافع المضادة للطائرات قد نصبت في ساحة المدرسة وغطيت ارضية الصفوف والممرات بالرمال وانتشر الجنود في المكان . ثم جاءت الغـارة .

كنت ألعب دور دنكان ، وقد أعطيت باروكة صغيرة للدور . صبغت شعري باللون الأبيض والصقت لحية . لم يكن أحد ممن لعبوا دور دنكان يشبهني وأنا أبدو كالكبش . أما السيدة ماكبث فلم تكن تتمرن دون نظارات ودون أن تطأ بقدمها طرف ثوبها . وكان ماكبث يبارز بوحشية لا مثيل لها (كنا قد استلمنا السيوف في اللحظة الأخيرة) بحيث أصاب ماكدوف بجرح بليغ في رأسه فتاير الدطم منه ونقلناه الى المستشفى .

أما الآن فقد اغتيل أولف بالمـه . كيف سنتصرف وسط هـذه الفوضى ؟ هل نلغي البروفات ؟ هل نلغي العرض المسائي ؟ انتخلى عن (لعبة حلم) الى الأبد ؟ لا يستطيع أحد أن يقدم مسرحية حول شخص ما يدور ويعظ قائلا : انه ليس من السهولة أن يكون المرء إنسانا .

وفجأة قالت احدى الممثلات الشابات : « ربما اكون مخطئة ، لكنني أعتقد بأننا يجب أن نتمرن . يجب أن نستمر . إن الذي قتل بالمه كان يريد إحداث فوضى ، وإذا تركنا المسرحيـة فاننا نشارك في

هذه الفوضى وندع انفعالاتنا تسيطر علينا . إن الأمر يتجاوز مشاعر خاصة طارئة . يجب الا تسود الفوضى .. » .

وشيئا فشيئا ، ببطء وتردد ، أصبحت (لعبـة حلم) عرضـاً جاهزا . كنا نقوم ببعض البروفات أمام الجمهور . كان يقظا ومتحمسا احيانا ، صامتا ومتأملا احيانا اخرى . بدأ تفاؤل حذر يلون وجناتنا . كان الزملاء متعاطفين معنا ، وبدأنا نتلقى رسائل تشجيع وتأييد .

إن اسبوع البروفات الأخير هو الفترة التي يصعب تحملها بالنسبة للمخرج ، حيث تكون المغامرة قد فقدت خطورتها وبات القلق خانقا ، وإحساس بارد باللامبالاة يجثم كغشاوة ساكنة فوق الدماغ والرأس .

لا اعرف طعما للنوم .. الكوارث ، ونبرات الأصوات والتلميحات تمر في مخيلتي . الاضاءة المركزة بطريقة خاطئة تنتصب كشرائح حادة أمام عيني . لقد أصبحت ليالي طويلة وبائسة . لم تكن قلة النوم تقلقني ، كان يقلقني الانفعال . اين يكمن الاخفاق الأعمق ؟ هل هو في النص نفسه ، في الصدع بين الالهام اللامع والمواقف الواعظة ، بين الجمال القاسي والثرثرة العذبة ؟ هل المحاكاة الساخرة في مشهد كهف فينغل مجرد تجديف لا اكثر ؟ يجب الا أنسى توسيع بقعة الضوء في غرفـة المحامي ، إن مزيداً في الاضاءة سيخلق أجواء جديدة . سوف يكون سفن نيكفست مسرورا مني .

ها انا على وشك ان انام ، وتتراءى لي الأبقار واقفة عند الحيز الضيق بجانب دكان الحداد ، تحدق بي ، وقد انتشرت عند خطومها واعينها سحابات من الذباب . ثمة عجل صغير ملون له قرون قصيرة ، ويقال إنه مفترس .

وهذه هيلغا بقميصها الرطب الملتصق بصدرها المنتفخ ، تضحك فتظهر اسنانها البيضاء الكبيرة والثغرة في منتصفها حيث كان برينلوف

قد ضربها ؛ ثم تمضي الى ضفة النهر وتغرق قارب برينلوف ، وتفتح علبة من سمك الآنشوف وتختبىء خلف الباب . وعندما يأتي برينلوف لتناول العشاء ، تدفع بالعلبة المفتوحة الى وجهه وتجرحه بها . يغيب برينلوف عن الوعي وعندما يستيقظ يتناول قبعته الصغيرة المستديرة ويمضي الى بورلانغ والدم يتدفق من جبهته ووجنتيه وسمك الآنشوف معلق برأسه . يذهب الى المصور هلتغرني ويطلب منه أن يصوره بقبعته المستديرة وسرواله الملطخ وانفه المدمى واسماك الآنشوف على رأسه ووجنته ، وهذا ما حدث . بعدها قدم الصورة اليها كهدية بمناسبة عبد ميلادها . سوف اذهب للنوم الآن .. الآن يدق جرس المنبه .

أرقد بلا حراك ، مستيقظاً وقلقاً . استطيع أن اقتل أي شخص قد يتفوه بكلمات غير مناسبة عن ممثلي . الآن بروفة الملابس وبعدها نفترق . سوف يقرؤون الجرائد بعد غد حتى ولو ادعوا بأنهم لن يفعلوا ، سوف يثنى عليهم ويهنئونهم ويشجعونهم أو يزجرونهم ويقابلونهم بالقطيعة . وفي الامسية نفسها يجب عليهم الصعود مجدداً الى خشبة المسرح .

منذ سنوات رأيت صديقاً يقف بكامل ثيابه ومكياجه في إحدى زوايا الكواليس . وكان من شدة قلقه قد التهم شفته السفلى فتدفق الدم منها على ذقنه وسال الزبد من طرفي فمه ، وكان يهز رأسه بالنفي قائلا : إنه لن يخرج الى خشبة المسرح ابداً ... لكنه خرج إليها .

جرت بروفة الملابس مساءً في ١٤ نيسان ، وأثناء النهار عقدنا اجتماعاً تمهيدياً لمشروع مسرحية (هاملت) التي كان مقرراً افتتاحها في ١٩ كانون الاول . اطلعتهم على تصوراتي الاولية ، حيث تكون الخشبة فارغة إلا من مقعدين ومضاءة بشبات ودون فلاتر ملونة او اجواء خاصة ، وهناك دائرة قطرها خمسة أمتار موصوله بأرضية المسرح قريباً من الجمهور، سيدور فيها الحدث بشكل أساسي. سوف يقتحم فورتنبراس ورجاله الباب في الحائط الخلفي وتدوي العاصفة الثلجية ويندفع الجميع إلى قبر أوليفيا . يتهان هاملت ويقتل هوراشيو .

في لحظة ما كنت غاضباً للغاية وأردت الانسحاب من هذا المشروع . فقيل عدة اشهر طلبت انغفار كيلسون لدور حفار القبور فوافق ، ثم مالبث ، ومن وراء ظهري ، أن ارتبط بمشروع آخر ينتظره فيه دور أكبر. ولم أنجح بالعثور على ممثل شاب للدور لأسباب مختلفة . إن معظم الممثلين الشباب لايحبذون الوقوف امام من يؤدي دور هاملت ويكون في سنهم وأحياناً أصغر منهم . لم يعد مهماً بالنسبة لهم أن يبقوا للعمل مع برغمان ، فهو سيتوقف عن صنع الأفلام .

وفي الوقت نفسه فهمت ... بالطبع فهمت ، ووجدت الأمر سهلاً لأن افهم .. إن الممثل قريب جداً من ذاته ، فهو يتلوى ويستغل ويزن الأمور. لقد فهمت ، ومع ذلك فإنه شيء يدعو للغرابة . أذكر عندما أراد آلف سيوبرغ ان يضربني لأنني أخذت منه مارغريتا بايستروم ولم تكمل معه دورها في (السيتيس) . وجدت نفسي في موقف مماثل . وأثناء جنازة سيوبرغ التفت أحد اعضاء هيئة المسرح الى ممثل يقف بجانبه وقال له : « تهاني .. لقد أصبح عدد مشاكل المخرجين في الدراماتن اقل الآن » .

وفي يوم الخميس ٢٤ نيسان ، في السابعة مساء (وكنا قد أعلنا في جميع الصحف ، بأنه لن يسمح لأحد بالدخول بعد بدء العرض) ، كانت قد انتهت بروفة الملابس الاخيرة . وكان الممثلون يشعرون بنفحة واهية من النجاح المقبل وكانوا مبتهجين . وقد وجدت معاناة في مشاركتهم توقعاتهم السعيدة . كنت قد سجلت في مكان ما من اعماقي إحساساً بالفشل ، ليس بسبب عدم رضائي عن العرض ، بالعكس ، فبعد كل آلامنا سوف يقدم على المسرح عرض من الدرجة الأولى ، مؤدى بشكل جيد رغم كل الظروف .

ومع ذلك ، كنت أعرف أن مغامرتنا لن تنجح .

بدأ العرض، وغادرت القاعة برفقة مدير المسرح . وما ان خرجنا الى الشارع من باب جانبي ، حتى هاجمنا المصورون بعنف وهم يرموننا بأضواء فلاشاتهم القوية . أمسكني شخص من كتفي وقال إنني يجب ان أدعه يدخل فقد تأخر عن العرض لعشر دقائق واليوم هو فرصته الوحيدة لمشاهدته . وكان قد حاول اقناع البواب الذي رفض ادخاله إطاعة للأوامر . فقلت له بنزق : أنني لا أستطيع ولا أرغب أساساً في مساعدته وعليه أن يلوم نفسه لتأخره . بعد ذلك اكتشفت أنه محرر الصفحة الفنية في جريدة سفنسكا داغبلادت ، وكان ناقداً مسرحياً . فحاولت أن أبدو ودوداً واخبرته بأنه يجب أن يتفهم القوانين ويحترمها، وشعرت في الوقت نفسه برغبة لا تقاوم لضربه . كان يفترض انطلاقاً من موقعه المهني أن يحضر قبل بدء العرض بوقت كاف، لكنه وصل متأخرا. حاول ثانية مع مدير المسرح ثم استدار وابتعد غاضباً . عندئذ أحسست بالمضايقات التي ستظهر وتستمر على الصفحة الفنية في سفنسكا داغبلادت ، فركضت وراء الرجل الحانق ووجدت له مقعداً في الصالة .

مشهد ثانوي أكد لي إحساسي بخيبة الامل الكاملة : مرض مصمم المناظر الأولى وقرحة معدته ، حمل لينا أولين ، الحلول المكروهة ، التعقيدات اثناء البروفات ، الانفلونزا التي أصابتني وماتلاها من احباط، كوارثنا التقنية ، الممثلين لمسرحية (هاملت) ، المحرر الفني المهان، وفوق كل هذا اغتيال أولف بالمه . إن الاضواء تتغير حولنا وكل هذه الامور قد خلقت لدي البصيرة .

في الامسية التي سبقت الافتتاح ، وبعد بروفة الملابس ، تجمعنا في أحدى غرف البروفات وتناولنا سندويتشات وشمبانيا . كان الجو مفرحاً وكئيباً في آن واحد . من الصعب دائماً الإفتراق عن مجموعة أشخاص ارتبط الانسان معهم لفترة طويلة وبشكل قريب. انتابني احساس بالحب العاجز تجاه هؤلاء الناس . لقد انقطع الحبل السري لكن جسدي يتألم . تحدثنا عن فيلم أندريه فايدا (المايسترو) حيث يقول إنه لايمكن تأليف موسيقا من دون حب. واثناء التوتر الانفعالي لتلك اللحظة،

اتفقنا أنه يمكن صنع مسرح دون حب ، وبدونك « أنت » لا وجود لي « أنا » لقد عشنا تجربة مسرح رائع ، نما وخرج من الكراهية والعربدة ، لكن الكراهية هي طريقة للتواصل ، والحب قد يكون خطيرا مثل الكراهية . تأملنا في هذه الافكار ووجدنا امثلة لها .

ذابت الشموع المثبتة على الطاولة وانطفأت . حان وقت الرحيل . عانق الجميع بعضهم البعض وتبادلوا القبل وكأنهم لن يلتقوا بعد هذه اللحظة أبداً ، « لكننا بحق المسيح سوف نلتقي غداً صباحاً .. » ، قلنا ذلك وضحكنا . لقد كان الافتتاح في اليوم التالي .

ولأول مرة في حياتي المهنية أشعر بالحزن نتيجة الفشل لمدة تزيد عن الثماني والأربعين ساعة . يستطيع الانسان أن يواسي نفسه أحياناً بالقاعة المكتظة بالجمهور. لم يكن عدد الحضور سيئاً أثناء الأربعين عرضاً، لكنه لم يكن كافياً أيضاً . كل الجهود والتعب والقلق والملل والأمل .. كل هذا ضاع هباءً .

* * *

٥

كان البيت الصيفي في دالارنا يدعى « ڤارموس » وهذه الكلمة تعني باللهجة المحلية « الشيء الخاص بنا » . وكنت قد زرت المكان في طفولتي ، ولا يزال يعيش في ذاكرتي . كان صيفا دائما ، أشجار البتولا الضخمة تتراقص ، وضياء الشمس ينتشر فوق التلال ، الناس في ملابسهم الخفيفة يجلسون على الشرفات . النوافذ مفتوحة ، وأحدهم يعزف على البيانو ، تتدحرج كرات الكروكيت ، وتصفر قطارات الشحن بعيدا في محطة دوفناس ، ومياه النهر تتدفق قاتمة وغامضة حتى في أكثر الأيام اشراقا ، وتطفو عليها أخشاب الأشجار المقطوعة بكسل . كل الأطفال تلونت مرافقهم وركباتهم تلون العشب . كنا نستحم في النهر او البحيرة وقد تعلمنا السباحة مبكرا ، فكلا المكانين كان مليئا بالصخور المائية الغاورة .

استعانت امي بفتاة من المقاطعة تدعى لينيا لتساعدها في أعمال المنزل . كانت هادئة ولطيفة ومعتادة على الصغار . وكنت أنا في السادسة من عمري ، عندما سحرتني هذه الفتاة بابتسامتها المشرقة وجلدها الأبيض وشعرها المائل للحمرة . كنت أطيع نزواتها وأقطف لها كميات من الفريز البري لأرضيها . كانت سباحة ماهرة علمتنيْ كيف أسبح ، وعندما كنا نذهب ونسبح سوية وحدنا ، كانت تهمل ارتداء زي السباحة الأسود ، وهي عادة° كنت احبها كثيرا . كانت طويلة ونحيلة ذات كتفين عريضين ونهدين صغيرين وقاسيين . لم أسبح في حياتي مثلما سبحت في ذلك الصيف ، وعندما كنت أشعر بالبرد وتصطك أسناني وتزرق شفتاي ، كانت لينيا تصنع خيمة من منشفة حمام كبيرة ، تضمني إليها ونتدفأ سوية .

في إحدى امسيات أيلول ، وقبل أن نعود الى استوكهولم ، دخلت الى المطبخ فوجدتها جالسة قرب الطاولة وأمامها فنجان قهوة . لم تكن قد أضاءت مصباح الكيروسين ، وكانت تسند رأسها بيدها وتبكي بغزارة ولكن بصمت . احسست بالخوف ، فاقتربت منها واحطتها بذراعي ، لكنها دفعتني بعيداً ، شيء لم تفعله من قبل . بدأت أبكي بدوري اذ بدا لي البؤس في كل مكان . اردتها أن تتوقف عن البكاء وتصالحني ، لكنها تجاهلتني تماما .

وعندما تركنا ڤارموس بعد أيام قليلة ، عائدين الى استوكهولم ، لم تكن لينيا معنا . سألت أمي عن السبب ، فراوغت في الاجابة .

بعد مرور اربعين عاما سألت أمي عما حدث للينيا ، فأخبرتني بأن الفتاة كانت حاملا آنذاك وأن الرجل قد انكر الحمل . وكان من المستحيل إبقاء فتاة حامل بطريقة غير شرعية في بيت كاهن ، لذلك قرر أبي أن يطردها على الرغم من احتجاجات أمي العنيفة . وعندما تدخلت جدتي لمساعدة الفتاة كانت قد اختفت . وبعد أشهر قليلة عثروا على جثتها قريبا من خط السكة الحديدية ، وافترض رجال الشرطة انها القت بنفسها من فوق الجسر .

كانت محطة دوفنناس تتألف من بناء أحمر طليت زواياه بالأبيض ، مع حجرتين صغيرتين كتب عليهما « للرجال » و « للنساء » ، وكانت المحطة تضم أحيانا مخزنا للبضائع وعربتي تحويل ورصيفاً حجرياً وقبواً تحت الأرض نما في سقفه المكسو بأعشاب الفريز البري . كانت العربة الرئيسية متجهة صوب دجورما الواقعة قبل ڤارموس والتي يمكن رؤيتها من المحطة . وعلى مسافة مئات الأمتار الى الجنوب كان النهر يغير اتجاهه بشكل حاد عند منطقة تدعى غرادن ، ويصبح خطيرا مليئا بالدوامات الكبيرة والصخور البارزة . وفوق هذا التحول في اتجاه النهر كان ينهض جسر السكة الحديدية مع معبر المشاة الضيق الى يمينه .

كان اجتياز الجسر ممنوعا ، لكن أحدا لم يهتم بذلك ، لأنه كان الطريق الأقرب والأسرع الى ثروة الأسماك الموجودة في سفارتسيون .

كان مدير المحطة يدعى أريكسون ، وكان يعيش منذ عشرين عاما مع زوجته المصابة بالغدة الدرقية في البيت الملحق بالمحطة ، ويعتبره سكان القرية رجلا غريبا يجب أن يعامل بحذر . كان هناك قدر كبير من الصمت يحيط بشخصية العم أريكسون .

حصلت على موافقة جدتي للتردد على المحطة دون استشارة العم أريكسون الذي كان يعاملني بصداقة وذهن شارد . كان مكتبه يفوح برائحة الغليون ، والذباب الكسول يئز عند زجاج النافذة ، وجهاز التلغراف يقرع ويخرج شريطا ورقيا ضيقا مليئا بالنقاط والقواطع . وكان العم أريكسون يجلس وراء طاولته ويدون معلومات في مجلدات سوداء كبيرة ويصنف بواليص الشحن . أحيانا كان أحدهم يدق الباب ويشتري بطاقة الى ريباكن أو إينسيون أو بورلالغ . وكان الصمت الذي يسود المكان مهيبا ، مثل صمت الأزل ، ولم أكن أقطعه بحديث غير ضروري .

لكن الهاتف يرن فجأة حاملا رسالة قصيرة بأن القطار القادم من كريلبو قد غادر لتوه محطة لانهيدن ، فيجيب العم أريكسون بشيء ما ، ثم يضع قبعته الرسمية ، ويحمل الراية الحمراء ويمضي الى الخارج ويضيء الاشارة الجنوبية . لم يكن هناك وجود لأي قطار بعد ، وكانت أشعة الشمس الحارة تنعكس على جدار مخزن البضائع وعلى الخط الحديدي ، وعند الجسر كان النهر يهدر بعنف . صمت وانتظار . وقطة العم أريكسون نائمة على ترولي المحطة .

وفجأة يصفر القطار فوق المنعطف ، قبل لانفسيون ويظهر في البعد كلطخة سوداء على المساحات الخضراء ، صامتا في البداية ولا يلبث أن يعلو ضجيجه ، ثم ينقطع أثناء عبور الجسر ، وكأن الضجيج يغرق في

النهر . تهتز الأرض ويقترب القطار من الرصيف وسحب الدخان تخرج على نحو ايقاعي من المدخنة ومكابس البخار ، تندفع العربات بسرعة مخلفة زوابع هوائية عند مرورها ، وتضرب العجلات الحديدية السكة بعنف فتهتز الارض اكثر . يحيي العم أريكسون سائق القطار الذي يرد التحية بمثلها . وخلال بضع دقائق يتلاشى الضجيج وينعطف القطار عند ثارموس ويختفي تحت الجبل وهو يصفر ، ويعود الصمت ليسود المكان من جديد .

يرفع العم اريكسون سماعة الهاتف ويقول : « غادر دوفانس اثنين وثلاثين » ويعيد السماعة ويكف الذباب عن الطنين . يصعد العم اريكسون الى الطابق الأول ليتناول وجبة طعام ويستمتع بقيلولة قبل وصول قطار البضائع الجنوبي بين الرابعة والخامسة . هذا القطار لم يكن دقيقا في مواعيده ابدا إذ كانت تلحق به عربات جديدة في كل محطة تقريبا .

في الطريق الصاعد الى المحطة كان يوجد دكان حداد ، وكان الحداد يشبه شيخ قبيلة منغولية ، متزوج من امراة جميلة ولكن مرهقة تدعى هيلغا ، وكانا يعيشان مع أطفالهما في غرفتين فوق الدكان حيث يسود جو حميم وفوضى . كنت واخي نحب أن نلهو مع أولاده ، وهيلغا لاتزال ترضع أصغر ابنائها ، وعندما يشبع الصغير كانت هيلغا تنادي على صديقي في اللعب والذي كان في سني ، وتقول له : « تعال يا جونت .. تعال وخذ حصتك » . وكنت انظر اليه بحسد وهو يقف بين ساقي أمه ، فتدفع له بصدرها الضخم فينحني قليلا الى الامام ويبدأ برضع الحليب بنهم . سألت فيما إذا كان بامكاني أن أتذوق قليلا ، فضحكت هيلغا قائلة إنه يجب أولا طلب الإذن من السيدة اكربلوم . كانت السيدة اكربلوم هي جدتي ، ولاحظت بخجل انني قد تعثرت من جديد بهذه القوانين غير المفهومة والتي تعترض طريقي .

صورة خاطفة ! أرقــد على سريري ذي الحواف العالية . الوقت مساءً وقد أضيئت الأنوار . بين يدي قطعة نقانق أتلذذ بعصرها . انها طرية وذات رائحة محببة . وفجأة ارمي بها بعيدا وأدعو لينيا بشوق. يفتح الباب ويدخل والدي ويقف ضخما . لا تبــدو ملامحه . وقــد حجب ضوء الصالة من خلفه ، ثم يشير الى قطعة النقانق ويسأل عن ماهيتها ، فأنظر اليها وأجيبه بقلب مرتجف إنها لا شيء على الاطلاق . المشهد التالي : مؤخرتي محمــرة من الضرب وأنا جالس على ركبتي انتحب في وسط الغرفة . يضاء مصباح السقف وتدخل لينيا غاضبة لتبدل ملاءات سريري المبللة .

أسرار ، صمت مفاجيء ، اضطراب جسدي غامض ... هل تشبه حالة الارتياب هذه حالة ابنة اندرا في (لعبة حلم) عندما تسأل نفسها: « ماذا فعلت ؟ » . إنني أطرح السؤال نفسه ، وأعرف الاجابة جيدا . طبعا أنا مذنب . ثمــة أعمال شريرة غــير مكتشفة لاتزال تضايقني في داخلي. كنا نجلس على نحو قريب جدا في أحواض الاستحمام ونتجسس على مؤخراتنا ، كنا نسرق الزبيب من المطبخ، ونسبح في الدوامات العميقة عند المحطة ، وكنا نسرق النقود من معطف والدي ، ونجدف بالرب . كنت أنا وشقيقي في معظــم الاحيان ، نتشارك الافعــال ، لكن كراهية متآكلة كانت تفصل بيننا ، فقد كان داغ يعتبرني كاذبا بالاضافة الى كوني مدللاً لدى والديّ . وكنت أنا اعتقــد بأن شقيقي الذي يكبرني بأربع سنوات ، يتمتع بمزايا محروم أنا منها ، كالسماح بالخروج في المساء ومشاهدة أفلام سينما محظورة بالنسبة للاطفال . كان يضربني حين يشاء ، ولم أدرك إلا في وقت لاحق انه كان معرضا باستمرار لمشاعر كراهية وحسد من قبل والدي .

وكادت الكراهية بيننا أن تصل الى حد القتل ... لقد أساء داغ معاملتي وكنت مصمما على الانتقام مهما كان الثمن .

حملت ابريقا زجاجيا ثقيلاً وصعدت على كرسي واختبأت وراء الباب في الغرفة التي كنا نتقاسمها في ڤارموس . وعندما فتح شقيقي الباب القيت بالابريق على رأسه ، فتحطم الابريق وسقط شقيقي على الأرض والدم يتفجر من جرح شق رأسه . بعد حوالي شهر هاجمني مباغتة من دون تحذير وحطم لي سنين في مقدمة فمي ، فقمت بوضع شمعة مشتعلة في سريره أثناء نومه ، لكن النار انطفأت وحدها ، وتوقفت الأعمال العدوانية مؤقتا .



في صيف عام ١٩٨٤ جاء شقيقي وزوجته اليونانية لزيارتي في بيتي بجزيرة فارو . كان قنصلاً عاما متقاعدا في التاسعة والستين من عمره، وقد بقي في وظيفته لمدة طويلة رغم امراضه الكثيرة . أما الآن فكان شبه مشلول ، لا يستطيع أن يحرك سوى رأسه، وكان يتنفس بارتعاش ويصعب فهم كلامه ، ومع ذلك فقد امضينا الأيام نتحدث عن طفولتنا.

كانت ذاكرته اقوى من ذاكرتي . تحدث عن كرهه لأبينا وعن تعلقه القوي بأمنا . كانا لايزالان بالنسبة له مجرد والدين ، مخلوقين غريبين، نزيين ، لا يمكن فهمهما ، كانا أكبر من الحياة نفسها . كنا نذهب ونتنزه سوية ، يحدق كل منا بالآخر بدهشة ... رجلان مسنان تفصل بينهما مسافة لا يمكن تخطيها . اختفى النفور المتبادل بيننا وحل الفراغ مكانه ، لا وجود لأي نوع من التواصل أو الحميمية . كان شقيقي يود لو يموت ، لكنه كان خائفا من الموت ، لذلك حافظت ارادته الغاضبة على عمل رئتيه وقلبه ، وكان قد اشار الى أنه لا يستطيع الإنتحار بسبب عجزه عن تحريك يديه .

كان هذا الرجل القوي والمتكبر والذكي يجازف باستمرار . كان يبحث عن الخطر ويستمتع بالصيد ويطوف الغابات . كان قاسيا وأنانيا ومرحا ، ودائما يفوز بالحظوة عند والدي رغم كراهيته له ، ويتعلق بأمي رغم محاولاته المرهقة للتحرر منها .

بالنسبة لي كـان مرض شـقيقي مفهوما ، لقـد شـله الغضب وشخصيتان ساحقتان ، معقدتان وغامضتان ، هما أبي وأمي . وربما يجب الاشارة الى انه كان يحتقر التحليل النفساني والدين والواقـع الروحي . كان كائنا عقلانيا جدا ، يتحدث سبع لغات ويفضل قـراءة التاريخ والسير الذاتية للسياسيين، وقد أملى سيرته الذاتية، وحصلت عليها كاملة في ثمانمائة صفحة مكتوبة بأسلوب أكاديمي جـاف ومازح في آن معا . كان يتحدث عن حياته بعبارات مباشـرة ، وكانت سيرته تتضمن بضع صفحات عن أمي ، وكل ماعداها هـو سخرية ولامبالاة تجاه الحياة التي اعتبرهـا مغامرة تفتقر الى الاثارة . وفي الثمانمائة صفحة المذكورة لم يشر ولو بكلمة واحدة الى مرضـه . لم يتذمر أبدا، لكنه كان يكره قدره . فواجه آلامه المذلـة بصبر وغضب ، ولم يدع احدا يشعر بأحزانه لأنه لم يكن يريد شفقة من احد .

احتفل بعيد ميلاده السبعين في حفلة أقيمت له بالسفارة في أثينا. كان مريضا جدا واعتقدت زوجته بضرورة إلغاء الحفلة ، لكنـه رفض والقى خطابا ترحيبيا رائعا بضيوفه . بعد أيام قليلة نقلوه الى المستشفى حيث أعطوه علاجا خاطئا فمات إثر نوبة اختناق طويلة . كان واعيـا طيلة فترة اختناقه ، لكنه عاجز عن الكلام بسبب الثقب الذي أحدثوه في قصبته الهوائية . وبسبب عجزه المطلق عن التواصل فقـد مـات غاضبـا .



كانت علاقتي مع شقيقتي الصغرى مارغريتا طيبـة للغاية . كانت تصغرني بأربـع سنوات ، لكننـا كنا نلعب سـوية بألعابها ونختلـق سلسلة من الأحداث المعقدة التي تدور في بيت ألعابها . عندما أتأمـل ألبوم صور العائلة أراها وهي طفلة صغيرة مدورة ذات شـعر أشـقر وعينين مفتوحتين باتساع من الخوف . كانت كتلة من الحساسية ، من

فمها الرقيق الى يديها المضطربتين . كانت محبوبة جدا من قبـل أبي وأمي ، تحـاول أن تكون الطفـل اللطيف الذي يعـوض عن الصبيين الشقيين .

ذكريات طفولتي عن مارغريتا غامضة تكاد تفلت مني . أنشأنا سوية مسرحا للعرائس ، فكانت تخيط الملابس وأنا أصمم المسرح . وكانت أمنا مشاهدا صبورا ، وقدمت لنا قطعة قماش من المخمل الأزرق المطرز ، لنستعمله كستار للمسـرح . كنا نلعب بمـزاج رائق ، ولا أذكر أننـا تشاجرنا قط .

عندما كنت في الحادية عشرة وشقيقتي في السابعة ، أمضيناالصيف في لانغانغن قرب استوكهولم . وكانت قد أُجريت لأمي عملية جراحية فوجب بقاؤها في صوفياهامت لعدة اشهر ، وكان أبي يريدنا الى جانبه تحت اشراف مربية لطيفة تعمل في مدرسة ابتدائية . لكننا كنا نجـد نفسينا وحيدين في أوقات كثيرة ، فكنا نذهب الى حوض الاستحمام في الحمام ونلعب ألعابا محرمة ، ولكن فجاة ، ومن دون أي توضيح أو استفسار ، منعنا من البقاء وحدنا في الحمام .

وبدات مارغريتا تستغرق أكثر فأكثر في علاقتها مع والدينا ، وفقدت العلاقة معها تواصلها الحميم . وعندما بلغت التاسعة عشرة من عمري هربت من المنزل ولم أعد ألتقي بها إلا نادرا . وقد ذكرت لي مرة أنهـا عرضت علي محاولتها في الكتابة فمزقتها من شدة جهلي آنذاك . أمـا أنا فلا أذكر هـذه الحادثة . وبقيت شقيقتي تكتب ، وتنشر كتابا بين الحين والآخـر . ولو انني فهمت كل ما كتبته بشكل صحيح لأدركت ان حياتها جحيم لا يطاق .

في بعض الأحيان كنا نتحدث بالهاتف ، وذات مرة التقينا في حفل موسيقي...وقد أصبت بالخوف والارتباك عندما شاهدت وجهها المعذب الغريب وسمعت صوتها البارد واللامبالي .

عندما افكر احيانا بشقيقتي اشــعر بتأنيب الضمير . لقــد بدات تكتب سرا دون أن تطلع أحدا على كتاباتها ، وأخيرا تشجعت وطلبت مني ان اقرأ لها . فأحسست انني في ورطة ، إذ كانوا يعتبرونني مخرجا واعدا ويدينونني ككاتب . كنت أكتب بطريقة سيئة متأثرا بهايلمر برغمان وسترندبرغ ، ثــم وجدت الأسلوب المتوتر والمتعب نفســه في كتابات شقيقتي ، فحكمت عليها بالموت دون أن ادرك أن هــذه كانت طريقتها الوحيدة للتعبير . وقد اعترفت فيما بعد بأنها تخلت عن الكتابة نهائيا : إما لتعاقب نفسها ، أو ربما بسبب عدم التشجيع . . .لست ادري تماما .

* * *

- ٦ -

لم يكن قراري بالتخلي عن الكاميرا السينمائية مأساوياً ، وقد خلصت اليه بعد العمل على فيلم (فاني والكسندر) . ولا أدري ان كان جسدي يتحكم بروحي أم أن روحي تؤثر على جسدي ، لكنني وجدت شيئاً فشيئاً أنه بات من الصعب جداً التغلب على حالة الارهاق الجسدي التي أصابتني .

في صيف عام ١٩٨٥ اعتقدت أنني وجدت فكرة آسرة لفيلم جديد اقترب من خلاله الى عالم السينما الصامتة ، وذلك بالعمل على مقاطع طويلة تخلو من الحوار والمؤثرات الصوتية . كانت تبدو فرصة للخلاص من الثرثرة .

وعلى الفور بدأت بكتابة السيناريو ، وكانت النعمة الالهية الى جانبي ، وكانت لدي الرغبة للعمل ، فامتلأت ايامي بنوع من الطمأنينة الهادئة والاثبات القوي لصواب رؤيتي .

بعـد ثلاثة أسابيع من العمـل المثمر ، شعرت فجأة بأنني مريض جداً ، كانت ردة فعل جسدي مزيداً من التشنجات وفقدان التوازن . ويبدو أنني قد تسممت وسكنني ألم مبرح . ادركت بأنني لن أصنع فيلماً مرة أخرى فقد كان جسدي يرفض التعاون معي ، وكان احساس التوتر المستمر ــ الذي يشكل جزءاً اساسياً في صنع الفيلم ــ أمراً قد تعودت عليه . فوضعت النص جانباً ، وكنت قد حولت فيه احدى شخصيات الحكايات الشعرية للأطفال الى صانع أفلام مجهول يعود عهده

الى زمن السينما الصامتة ، عثر على افلامه الداوية في علب معدنيـة لا تحصى مدفونة تحت ارضية بيت ريفي متداع على وشك أن يعـاد بنـاؤه .

كنت اعاني دائماً من معدة متوترة ، وهذه كارثة سخيفة ومذلة في آن واحد . فأمعائي تخرب علي" قواي ، لذلك كانت المدرسة بؤسـاً متواصلا لا استطيع فيها ان اقدر اوقات النوبات التي تهاجمني ، فاتغوط فجاة في سروالي ويالها من تجربة محرجة . كانت النوبات تأتي كالصاعقة دون انذار ، يرافقها ألم شديد يصعب تحمله .

وعلى مدى السنوات ، علمت نفسي ان أتحكم بهذه المتاعب بحيث استطيع الاستمرار بالعمل دون ان يبدو علي" اي اضطراب . كان الأمر يشبه ايواء شيطان شرير في أكثر مناطق الجسد حساسية . وبواسطة انظمة صارمة كان يمكن السيطرة على هذا الشيطان وكانت قواه تتقلص بدرجة ملحوظة عندما كنت أقرر أنا بنفسي ، وليس هـو ، ماذا يجب علي أن أفعـل .

كل الادوية كانت بلا فائدة وقد أخبرني طبيب حكيم بأنني يجب أن اتقبل عاهتي واتكيف معها . وهذا ما فعلته بالضبط . ففي كل المسارح التي عملت لديها خلال فترات زمنية مختلفة ، كان يوجد مرحاض خاص بي وحـدي . وربما كانت هـذه مساهمتي الاكثر استمرارا في تاريخ المسرح .

بالاضافة الى كل هذا فقد عانيت ولمدة تزيد عن العشرين عاماً من الارق المزمن ، الذي لم يكن مضراً مثل معدتي ، اذ بوسع المرء ان يتدبر أمره اذا نام عدداً من الساعات أقل مما يتوقعه ، وبالنسبة لي فان خمس ساعات من النوم كانت كافية تماماً . كان احساس البلى والتمزق يأتي ليلا ، مصحوباً بأسراب من الطيور السوداء التي تلازمني طوال الليل ، مثل القلق والغضب والخجل والندم والملل . فالارق في النهاية يمكن

معالجته بطقوس محددة ، كتغيير السرير أو اضاءة المصباح وقراءة كتاب أو الاستماع الى الموسيقا ، وتناول البسكويت أو الشكولولا، وشرب المياه المعدنية . كما أن تناول اقراص من الفاليوم في الوقت المناسب قد يكون فعالا ، ولكن في أحيان اخرى قد يكون مدمراً ومسبباً لمزيد من النكد والقلـق .

وكانت الشيخوخة سبباً آخر لان أتخذ ذلك القرار . الشيخوخة مرحلة لا أندم عليها ولا أفرح بها . لقد أصبح حل المشاكل بطيئاً واتخاذ القرارات تطلب وقتاً أطول ، وبات الاخراج عملية مثقلة بهموم هائلة ، وفجأة وجدت نفسي عاجزاً بسبب عدم قدرتي ، على التنبؤ بالصعوبات العملية المقبلة .

ومع الارهاق اصبحت اكثر تحذلقاً وتذمراً ومللا ، واحتدت مشاعري فصرت أرى الاخطاء في كل مكان .

وعندما ادقق النظر في أفلامي السابقة اجد كيف كان الحصر والتقييد يحيطان بي من كل جانب ويسلبانني حياتي وروحي . لم يكن الحظـر كبيراً في المسرح حيث كان بامكاني ملاحظة نقاط الضعف بالاضافة الى مساعدة الممثلين في ذلك . أما في الفيلم فانه يتعذر اصلاح أي شيء ، وكان يجب انجاز ثلاث دقائق كاملة من مدة الفيلم الاصلية يومياً ، وبحيث يكون هذا الانجاز حياً ومليئاً بالإبداع .

في بعض الاحيان ، الاحظه بوضوح ، وأره متجسداً ، هذا المخلوق الذي نصفه وحش ونصفه الآخر انسان ، والذي يتحـرك في أعماقي وأوشك انا على ولادته . لقد قررت أن اتقاعد قبل أن يرى الممثلون ومن يعملون معي هذا المخلوق المرعب ، فينظرون الي بنفور أو بشفقة . لقـد رايت عدداً كبيراً من زملائي يسقطون في الحلبة مثل مهرجين مرهقين ، باتوا يشعرون بالسأم من بلادتهم ، وقد قتلهم صمت الآخرين اللبق أو استهجانهم ، فدفع بهم بعيداً عن الاضواء بأيدٍ لطيفـة أو قاسية .

سوف اتناول قبعتي ما دام بوسعي أن أصل بيــدي الى مشجب القبعــات ، وامضي خارجــاً بنفسي رغم آلام جسدي . ان الابداع في الشيخوخة أمر غير مضمون ، ولكنه مشروط ومرحلي ، ويكاد يشبه الى حد كبير عملية جنسية منحطة .

* * *

اخترت أحد أيام التصوير القديمة من عام ١٩٨٢ . ووفقا لمذكراتي فقد كان يوما باردا بلغت فيه درجة الحرارة عشرين تحت الصفر . استيقظت كالعادة في الخامسة صباحا ، وحتى اقاوم هيستريا أمعائي وعملياتها التخريبية قفزت من السرير بســرعة ووقفت على الأرض واغمضت عيني لبضع دقائق اختبرت خلالها حالتي الفعلية ، كيف حال جسدي ؟ وكيف حال روحي ؟ والأهم من هذا كله ما الذي يجب انجازه اليوم ؟ لاحظت أن انفي كان مسدودا (بسبب الهواء الجاف) وان خصيتي اليسرى تؤلمني (ربما كان سرطانا) ، وأن وركي يحرقني (الألم القديم ذاته) وأن هناك طنينا في أذني (وهو أمر مزعج ولكن لا داعي للقلق بشانه) . ولاحظت أيضا أن هيستريا أمعــائي تحت السيطرة وأن خوفي من تشنجات المعدة لا ضرر منه . وكان يوم العمل يتضمن بشكل رئيسي المشهد بين اسماعيل والكسندر في فيلم (فاني والكسندر) ، وكنت قلقا من عدم قدرة الممثل الشاب الجريء ، برتيل غوف ، والذي يلعب دور الكسندر ، على تأدية الدور جيــدا في هذا المشهد الصعب . لكن التعاون المقبل مع ستينا ايكبلاد التي تؤدي دور اسماعيل ، منحني جرعة من التوقعات المفرحة . وهكذا اكتمل الالهام الاول في هذا اليوم وتوصلت الى استنتاج صغير ولكن ايجابي : فاذا كانت ستينا جيدة كما أتوقع فان بوسعي تدبر أمر الكسندر . لقد كنت قد توصلت الى خطتين اثنتين ، الأولى أتبعها مع الممثلين الجيدين ذوي السوية المتكافئة ، والأخرى مع ممثل رئيسي وممثل ثانوي .

الأمر المهم الآن هو التعامل بهدوء ... وأن اكون هادئا .

وفي السابعة صباحا تناولت الافطار مع زوجتي انفريد في جو من الصمت الودود . كـانت معدتي لا تزال مطيعـة وبقي لها أن تشعل الجحيم أولا خلال الخمس والأربعين دقيقة القادمة . وبانتظار قرارها طالعت صحف الصباح ، وفي الثامنة إلا ربعا وصلت السيارة وحملتني الى الاستوديو في ساندبايبرغ والذي كانت تملكه آنذاك شركة أوروبا فيلـم .

هذه الاستوديوهات التي كانت تحظى في الماضي بسمعة حسنة بدات تنهار الآن ، وتعمل حصرا في انتاج الفيديو ، وقد تفرق واكتأب كل من كان يعمل فيها سابقا . كان استوديو التصوير قذرا لا يعزل الصوت وغير مجهز بشكل جيد . غرفة المونتاج غير صالحة واجهزة الاضاءة سيئة والصوت سيء . واجهزة التكييف لا تعمل كما يجب ، والأرض مليئة بالأوساخ .

وفي تمام التاسعة صباحا بدأ يوم التصوير . كان مهما أن تبدأ المجموعة عملها في الوقت المحدد تماما . كل النقاشات والخلافات كان يجب أن تدور خارج دائرة التركيز . اعتبارا من لحظة البدء كنانتحول الى جهاز معقد ولكن متناسق ، هدفه انتاج صور حية .

وسرعان ما كان العمل يستقر في ايقاع هادىء وجو من الألفة والمودة. وكان الشيء الوحيد المزعج في هذا اليوم عدم وجود عازل للصوتوافتقاد الاحترام للضوء الأحمـر المضاء في الممر خارج الاستوديو ، مشيرا الى بدء عملية التصوير التي تتطلب الهدوء والصمت . وما عدا ذلك فقد كان يوما من المزاج الرائق ، ومنذ اللحظات الأولى شعرنا بتفهم ستينا لشخصية اسماعيل وقد استوعب الكسندر الوضع تماما ، فاستطاع بواسطة امكانيات الأطفال الغريبة أن يعطي تعبيرا لخليط معقد مـن الفضول والخوف مع لمسة من العبقرية .

ومضت البروفات بسلاسة ومرح ، عملية ابداعية راقصة . لقد وفرت المنتجة آنا آسب جـوا مناسبا وجهز سفن نيكفست الاضاءة بحدسه الذي يصعب وصفه والذي جعلـه واحدا من افضل مديري التصوير في العالم كله ، إذا لم أقل أفضلهم على الاطلاق . عندما كنت أسأله كيف كان يجد حـلا لبعض المشاهد ، كان يجيبني مفسرا الأمر بقواعد فنية بسيطة (والتي كانت ذات فائدة عظيمة بالنسبة لي في المسرح) . لم يكن يريد ــ او ربما لم يـرغب ــ أن يطلعني على سره الحقيقي . وعندما كان يشعر بالقلق أو بالضعف والتعب أحيانا ، كانت الأمور تسير بشكل سيء فيعيد كل شيء من جديد . لقد كانت الثقة والاحساس بالأمان يسودان عملنا المشترك . في أوقات كثيرة اشـعر بالحزن لاننا لن نعمل سوية بعد ذلك ، وأشعر بالحزن عندما أتصور هذا اليوم الذي سنفترق فيه . ثمة قناعة حسية تنشأ أثناء العمل مع مجموعة واحدة ومتماسكة مؤلفة مـن اشخاص أقوياء ومبدعين ومستقلين ، الممثلين والمساعدين وعمال الكهرباء والاضاءة ، وفريق الانتاج ومسؤولي الاكسسوار والمكياج والملابس...كل هذه الشخصيات تساهم في خلق يوم التصوير ، وتجعل اجتيازه أمرا ممكنا بالفعل .

أحيانا اشعر بالخسارة الحقيقة لفقدان هؤلاء الناس وكل الأشياء المرتبطة بهم . وأستطيع الآن أن أفهم ماذا كان يقصد فيلليني عندما قال : إن تصوير الفيلم بالنسبة له هو طريقة في الحياة ، وأستطيع أن أفهم أيضا قصته الصغيرة حول آنيتا إيكبرغ ، فبعد أن صورت المشهد الأخير في فيلم (الحياة حلوة) داخل سـيارة موجودة بالاستوديو ، انفجرت بالبكاء وتشبثت بالمقود ورفضت ان تغادر السيارة ، فاضطروا الى حملها بلطف وحزم الى خارج الاستوديو .

توجد سعادة أحيانا في ان يكون المرء مخرجا سينمائيا . فعندما يولد تعبير لدى الممثل لم يتمرن عليه من قبل ، وتقوم الكاميرا بتصوير هذا التعبير ... وهذا تماما ما حدث في ذلك اليوم ، عندما شحب وجه

الكسندر فجأة ، وارتسم عليه تعبير حزن عظيم . لقد التقطت الكاميرا هذه اللحظة ، إن ذلك الحزن ، غير الملموس ، والمعبر عنه في تلك اللحظة قد ظهر لثوانٍ قليلة واختفى ولم يعد أبدا ، كما أنه لم يكن قد ظهر في اي وقت سابق ، وقد سجل شريط الفيلم هذه اللحظة ، وهنا باعتقادي تكمن قيمة كل أيام وأشهر الروتين الماضي . إنني قد أعيش فقط من اجل لحظات مماثلة . . .

مثل صياد اللآلىء .



في عام ١٩٤٤ ، كنت في السادسة والعشرين من عمري ، وكنت مخرجا في مسرح هيلسنغبورغ . قبلها عملت لوقت طويل ككاتب سيناريو في شركة سفنسك فيلم ، وكنت قد كتبت سيناريو فيلم (النوبة) الذي أخرجه آلف سيوبرغ . كانوا يعتبرونني موهوبا ولكن صعب المراس . وكان يربطني بالشركة عقد يمنحني حقوقا معينة ويمنعني من العمل مع شركات سينمائية أخرى ، ولم يكن على درجة من الخطورة . فعلى الرغم من النجاح الذي حققه فيلم (النوبة) لم يتصل أحد بي باستثناء لورنس مارمستدت ، الذي ظل يسألني بلهجة ساخرة ولطيفة الى متى سوف ابقى مرتبطا بشركة سفنسك التي قد أشهد نهايتي فيها عما قريب ، وقال إن بوسعه أن يجعل مني مخرجا سينمائيا جيدا ، لكنني قررت أن أبقى لدى كارل اندرس دايملنغ في سفنسك فيلم والذي كان يعاملني بأبوية وبشيء من العطف .

ذات يوم وجدت نص مسرحية على مكتبي ، وكانت بعنوان (الأم) ومن تأليف كاتب دانمركي مغمور . اقترح دايملنغ أن أكتب سيناريو عن المسرحية واذا كان السيناريو جيدا فسوف يكون فرصتي الأولى للاخراج . قرأت المسرحية فوجدتها مرعبة لكنني كنت متشوقا للاخراج، فكتبت السيناريو خلال اسبوعين وتمت الموافقة عليه وكان مخططا أن

يبدأ التصوير في صيف ١٩٤٥ . كانت الأمور جيدة للغاية ، وكنت مجنونا بفرحي ، وبالطبع لم أكن لأرى الحقائق جيدا ، وبالنتيجة كنت اسقط متهورا في كل حفرة ساعدت الآخرين على حفرها .

كانت مدينة السينما في راسوندا عبارة عن مصنع ينتج ما بين العشرين والثلاثين فيلما خلال فترة الأربعينيات ، وكانت تحتوي على ثروة من التقاليد الحرفية . واثناء السنوات التي امضيتها عبدا لكتابة السيناريوهات كنت اتردد كثيرا على الاستوديوهات وارشيف الأفلام ومعامل التحميض وغرف المونتاج واقسام الصوت والمخازن ، لذلك كنت أعرف جيدا مباني المدينة السينمائية وكل العاملين فيها ، وكنت مقتنعا بانني يجب أن أقدم نفسي على انني واحد من أهم المخرجين السينمائيين في العالم .

الأمر الذي كنت اجهله آنذاك ، هو أن الادارة كانت تخطط لانتاج فيلم زهيد التكلفة يستفيدون بواسطته من العقود التي وقعتها الشركة مع الممثلين . وبعد نقاشات عديدة سمح لي ان أجري اختبارا للفيلم مع انغا لاندغر وستيغ أولين ، وكان معنا المصور غونر فيشر . كنا من جيل واحد ، مليئين بالحماسة وأمورنا المشتركة جيدة . وأصبح فيلم الاختبار طويلا ، وبعد أن رأيته لم تكن هناك حدود لحماستي واندفاعي ، فاتصلت بزوجتي التي كانت تقيم في هيلسنغبورغ وأخبرتها بصوت عال بأنه يجب على المخرجين أمثال سيوبرغ ومولاندر ودرير أن يتقاعدوا فورا ، فانغمار برغمان قادم في طريقه .

وبينما كنت أتباهى بثقتي بنفسي انتهزت الادارة الفرصة لتستبدل بالمصور غونر فيشر غوستارو سلينغ ، وهو مصور مقاتل وشجاع نال جائزة عن مجموعة أفلامه القصيرة عرض خلالها السماء الرحبة والغيوم المضيئة الجميلة . كان وثائقي النزعة ولم يكن قد عمل كثيراً داخل الاستوديو ، لذلك كان عديم الخبرة عند التعامل مع الاضاءة بالاضافة

اى أنه كان يكره الأفلام الروائية وكل أنواع التصوير الداخلي . ومنذ اللحظة الأولى بدأ كل منا يختبر الآخر دون أن نكون واثقين من أنفسنا، واخفى كل منا يقينه وراء ستار من السخرية والفظاظة .

كانت الأيام الأولى من تصوير فيلم (ازمة) عبارة عن كوابيس حقيقية ، وادركت على الفور أنني وضعت نفسي داخل جهاز لا أستطيع السيطرة عليه أبدا ، وأن الممثلة داغني لاند التي اختلفت بشأن حصولها على الدور الرئيسي ، لم تكن ممثلة سينمائية وكانت تفتقد الخبرة . لقد رأيت بوضوح تام أنهم كانوا يدركون عدم كفاءتي ، فواجهت عدم ثقتهم بانفجارات غاضبة ومهينة .

وجاءت النتائج مزرية ، كانت هناك أعطال في الكاميرا وبعض المشاهد مغطاة بغشاوة والصوت سيء بحيث كان يصعب فهم حوار الممثلين .

كانت تجري نشاطات مكثفة وراء ظهري ... فقد اعتبرت ادارة الاستوديو انه من الضروري الغاء الفيلم أو استبدال المخرج والممثلين الأساسيين . وبعد عمل مضن استمر ثلاثة أسابيع تلقيت رسالة من كارل أندرس ديملنغ ، والذي كان في إجازة ، كتب يقول : إنه شاهد المادة المصورة ولا يعتقد أنها جيدة لكنها واعدة ، واقترح أن نبدأ من جديد ، فوافقت بامتنان دون أن أرى هذا الباب المسحور أمام جسدي النحيل .

وكان الأمر محض صدفة عندما التقيت بفيكتور سيوستروم ، مخرج الأفلام الصامتة العظيم . امسكني بثبات من مؤخرة عنقي واخذ يسير بي ذهابا وايابا على الطريق الاسفلتي خارج الاستوديو ، وفجأة بدأ يقول اشياء بسيطة ومفهومة : « إنك تصور مشاهدك بطريقة معقدة ولن تكونا أنت وروسلينغ بمستوى هذا التعقيد . اعمل ببساطة أكثر . صور الممثلين من الأمام بحيث تبدو وجوههم . إنهم يحبون ذلك وهذه هي الطريقة المثلى . لا تستمر في الشجار مع الجميع ، فانهم سيغضبون

ولن يعملوا جيدا . لا تعالج الأمور بشكل بدائي وإلا فسوف يتأفف الجمهور . يجب ان تتعامل مع التفاصيل الصغيرة على انها صغيرة .. »
وبقينا نسير على الطريق الاسفلتي وهو يمسك بي من مؤخرة عنقي ، لم يكن غاضبا مني ولم أكن بدوري مسرورا .

كان صيفا حارا ، وكانت الأيام في الاستوديو تحت السقف الزجاجي غير محتملة . كنت اسكن في غرفة مستأجرة بالمدينة القديمة ، أعود إليها بعد الظهيرة وارتمي على السرير كالمشلول وانا اشعر بالقلق والخجل . وفي المساء اتوجه الى مطعم صغير واتناول وجبة ثم اذهب الى السينما .. السينما دائما . كنت أشاهد أفلاما اميركية وأفكر بانني يجب أن اتعلم منها ، إن حركة الكاميرا هذه سهلة للغاية وبامكان روسيلنغ ان يقوم بها . وهذه قطعة مونتاجية جميلة ، سوف أتذكرها .

في أيام السبت كنت أثمل وارافق مجموعة سيئة وأتورط في شجارات . وكانت زوجتي الحامل تأتي لزيارتي بين الحين والآخر ، فنتشاجر وتتركني . وكنت أقرأ نصوصا مسرحية وأستعد للموسم المقبل في مسرح هيلسينغبورغ .

اخترت مدينة هيدمورا بدلا من اي مكان آخر لأصور فيه . لا ادري سبب اختياري هذا ، ربما كنت أريد أن استعرض نفسي أمام والدي اللذين كانا على مسافة بضعة أميال يقضيان الصيف في ڤارموس . وهكذا تحركت قافلة سيارات فريق التصوير والمعدات ونزلنا في فندق هيدمورا البلدي .

وهناك حدث امران ...

أولا : انقلب الطقس وأمرت السماء بلا توقف . وكان روسلينغ الذي استطاع أخيرا الخروج من الاستوديو ، يتطلع فلا يرى أية غيوم جميلة في هذه السماء الرمادية فيعود الى غرفته في الفندق ويثمل ويرفض أن يصور .

ثانيا : أدركت سريعا بأنني كنت مديراً بائساً لفريق التصوير داخل الاستوديو ، وانني الآن في هيدمورا الممطرة أصبحت أكثر بؤساً .

وهكذا لازم معظم اعضاء الفريق الفندق يلعبون الورق ويثملون . أما البقية فكانوا يشعرون بالإحباط ، لكن الجميع اتفقوا على أن المخرج هو السبب في رداءة الطقس . بعض المخرجين محظوظون بالطقس والبعض الآخر غير محظوظ ، وأنا كنت منهم .

كنا نندفع الى الخارج مرات عديدة ، ننصب الكاميرا الثقيلة من نوع دبري ونركب أجهزة الإضاءة الخرقاء ومولدات الكهرباء ومعدات الصوت ، ونجري بروفة مع الممثلين ونضرب الكلاكيت ، وفجأة ينهمر المطر من جديد ، فنهرع ونختبىء في مداخل الأبنية أو في السيارات أو في مقهى قريب ، في حين يستمر سقوط المطر وتتلاشى الإضاءة المطلوبة. بعدها نعود الى الفندق لتناول العشاء . وعندما كنا ننجح أحياناً في تصوير لقطة خلال توقف المطر وظهور الشمس ، كنت اشعر باضطراب وإثارة ، وأتصرف – كما شهد بذلك شخص وقور ومحترم – مثل المجنون .. فأصرخ وأتوعد وأهين الناس الفضوليين الذين وقفوا للتفرج ، وألعن مدينة هيدمورا .

وفي الأمسيات كانت تحدث تجمعات فوضوية حول الفندق ، فتتدخل الشرطة لحسم الموقف ، وكان مدير الفندق قد هدد بطردنا بعد أن وقفت مريان لوفغرن على إحدى طاولات المطعم ورقصت الكانكان بمهارة مدهشة ، ثم سقطت على الارض وحطمت الخشبية المزخرفة . وبعد ثلاثة أسابيع كان وجهاء المدينة قد ضاقوا ذرعاً بنا فاتصلوا بشركة سفنسك فيلم وتوسلوا الى الإدارة أن تبعد هؤلاء المجانين عن المدينة ، بحق الله .

في اليوم التالي تلقينا الأوامر بالعودة فوراً بعد عشرين يوماً من التصوير ، صورنا خلالها اربعة مشاهد من أصل عشرين .

استدعاني ديملنغ وقام بتوبيخي وهددني علناً بانه سوف يسحب الفيلم مني . لكن ڤيكتور سيوستروم تدخل لصالحي فيما يبدو .

كان الوضع شاقاً للغاية ولكن الأسوأ لا يزال امامي . في الفيلم ، وطبقاً للسيناريو هناك مشهد يوجد فيه صالون تجميل قرب صالة موسيقية حيث يُسمع في المساء أصوات موسيقا وضحك . وقد أصررت على بناء الديكور في شارع جديد ، إذ انني لم اجد مكاناً مناسباً في استوكهولم ، واستطعت أن أدرك رغم حالتي العقلية المرهقة أن الأمر سيكون مكلفاً للغاية . لكنني كنت ارى المشهد واضحاً في ذهني : راس جاك الغارق في الدماء والمغطى بالجريدة ، اضواء المسرح البراقة ، واجهة صالون التجميل الزجاجية والمضاءة حيث تقف خلفها العارضات ذوات الوجوه الشمعية الصارمة وباروكات الشعر المستعار والاسفلت المبلل بالمطر والحائط الآجري في الخلفية .. كنت على وشك أن امتلك حيزاً خاصاً بي من شارع عام .

كانت دهشتي كبيرة ، إذ تمت الموافقة على فكرة المشروع دون أية نقاشات . وتم إنشاء ديكور البناء دون تأخير على أرض قريبة من الاستوديو الضخم مساحتها مائة متر مربع ، وكنت أتردد باستمرار على الموقع واشعر بالفخر لنجاحي في تحقيق هذا المشروع ، متوهماً أن الادارة لا تزال تؤيد فيلمي رغم كل الخلافات والصعوبات . لكنني لم ادرك أن شارعي كان سيتحول الى سلاح ممتاز في يد إدارة الاستوديو القوية ، فقد كان يسود توتر دائم بين مديري المكاتب من جهة ، والاستوديو الذي ينفذ الأفلام من جهة أخرى ، وهكذا فإن كلفة الشارع الباهض الثمن والسخيف ، كانت ستُسجل على حساب فيلمي وستجعل استعادة ميزانية الفيلم شبه مستحيلة ، وبهذا توجه الادارة ضربة لي ولديملنغ الذي كان لا يزال يساندني .

أما التصوير نفسه فقد اتخذ منحنىً بشعاً : بدأنا تصوير المشهد الأول في إحدى امسيات الخريف بعد حلول الظلام ، وكان المشهد مؤلفاً

من لقطة واحدة وسوف يتم تصويره بواسطة الكاميرا المثبتة على حامل ارتفاعه تسعة أقدام . كانت أضواء المسرح متوهجة ، وجاك قد أطلق الرصاص على رأسه ، ومريان منكبة على جسده تصرخ . تصل سيارة الاسعاف ، اسفلت الشارع يتلألأ ودمى صالون التجميل تحدق عبر الواجهة الزجاجية . كنت مستنداً الى حامل الكاميرا ، مريضاً ودائخاً ، ولكن ثملاً باحساس القوة : كل هذا كان ابداعي ، حقيقتي التي اوجدتها وخططت لها ونفذتها .

الحقيقة تأتي وتضرب بسرعة وقسوة .. كان هناك أحد المساعدين يقف مع زميل آخر ، مستنداً الى حامل الكاميرا نفسه ، عندما سقطت الكاميرا على رأسه فهوى على الأرض والكاميرا فوقه . لا أستطيع أن أذكر ماذا حدث عندئذ ، لكن سيارة الاسعاف الموجودة قامت على الفور بنقل الرجل المصاب الى مستشفى كاروواينسكا ، وأصر أعضاء الفريق على وقف التصوير لأن زميلهم لا بد قد توفي ... أو ربما يحتضر .

أصابتني نوبة ذعر ورفضت اقتراحهم وصرخت في وجوههم بأن الرجل كان ثملاً ، وأننا جميعاً ثملون أثناء التصوير هذه الليلة (وكان الأمر كذلك بالفعل) ، وأنني محاط بمجموعة من الغوغاء وأن التصوير سوف يستمر الى أن يأتينا خبر من المستشفى بأن الرجل قد توفي ، واتهمتهم جميعاً بالكسل والقذارة واللامبالاة . لم يجاوبني أحد من الواقفين ، وساد المكان صمت سويدي نكد . تابعنا التصوير وانجزنا البرنامج كاملاً ، ولكن شيئاً مما تصورته ، مثل لقطات الإقتراب من الوجوه والأشياء ، لم يتحقق . لم استطع أن أحققه ، فمضيت بعيداً واختفيت في الظلام وشرعت أبكي من الغضب وخيبة الأمل .

انقضى الأمر فيما بعد ، فإصابة الرجل لم تكن خطيرة ، بالإضافة الى أنه لم يكن ثملاً .

ومضت الأيام ، وكان روسلينغ كريماً معي إذ يسخر من اقتراحاتي بوضع الكاميرا عالياً . اما معمل التحميض فكان يعطينا صوراً إضاءتها غير صحيحة ، وكنت اتشاجر باستمرار مع عمال الكهرباء ، وهكذا ، شيئاً فشيئاً تلاشى كل ما تبقى من النظام ، وبدأ العاملون في الفيلم يأتون ويذهبون ساعة يشاؤون ... لقد قاموا بتجميدي تماماً .

صديق وحيد رفض أن يمضي معهم فيما هم عليه ، إنه أوسكار روزاندر ، مونتير الفيلم ، والذي كان يبدو مثل المقص ، حاداً وواضحاً تماماً . كان يتحدث بلهجة جنوبية مبجلة ويبدو متكبراً على الطريقة الانكليزية: يكيل الإهانات بلطف لكل المخرجين وإدارة الاستوديو والرؤوس الكبيرة في الشركة . وكان يعتبر اللحظة العظيمة في حياته ، هي لحظة العمل مع الأمير ويلهلم الذي يصور أفلاماً قصيرة لشركة سفنسك فيلم. كان الجميع يخافون أوسكار ولم يكن احد يعرف متى يصبح ودوداً أو قاتلاً . كان يعامل النساء بفروسية لطيفة انقضى زمنها ، ويحتفظ بمسافة تفصله عنهن ، وكان يقرأ بنهم ويمتلك مجموعة جديرة بالاحترام من الكتب الإباحية ، ويقال إنه بقي يتردد على العاهرة نفسها ، لمدة ثلاثة وعشرين عاماً ، مرتين في الاسبوع ، وفي كل الفصول .

وعندما ذهبت للقائه بعد انتهاء التصوير وانا اشعر بالقلق وخيبة الأمل استقبلني بمودة وموضوعية واشار الى كل ما كان يعتبره سيئاً وغير مقبول في فيلمي . لقد اطلعني على أسرار المونتاج وكان من بينها حقيقة اساسية مفادها ان المونتاج يحدث أثناء التصوير نفسه ، وأن الإيقاع يولد اساساً في السيناريو . اعرف أن عدداً كبيراً من المخرجين يتمسكون بوجهة نظر معاكسة ، لكن تعاليم أوسكار روزاندر فيما يتعلق بالمونتاج كانت اساسية بالنسبة لي .

يتم تحديد الإيقاع في افلامي من خلال النص الموجود على الطاولة ، والذي يولد فيما بعد امام الكاميرا . كل انواع الإرتجال تبقى غريبة بالنسبة لي ، وإذا ما اجبرت على اتخاذ قرارات سريعة فإنني اتعرق

من الخوف وأصبح قاسياً . إن التصوير بالنسبة لي هو وهم مكون من تفاصيل ، وانعكاس للواقع الذي كلما عشته لمدة اطول ، بدا لي وهمياً اكثر فأكثر .

عندما لا يكون الفيلم وثائقيا فإنه حلم ... ولهذا فإن تاركوفسكي هو اعظمهم على الإطلاق . إنه يتحرك بحرية مطلقة في عوالم الأحلام دون أن يقدم شروحات . ولماذا يجب عليه أن يشرح اساساً ؟ إنه قادر على اخراج رؤياه بطريقة غير شائعة ، لكنها في متناول الجميع . كل حياتي امضيتها وأنا أدق أبواب الغرف التي كان تاركوفسكي يتحرك داخلها بحرية وطبيعية ، وقد استطعت أن أدخل اليهـا أحياناً ، لكن معظم جهودي الواعية انتهت الى فشل محرج ، كما حدث في أفلام (بيضة الثعبان) و (اللمسة) و (وجهاً لوجه) وغيرها .

كذلك يتحرك فيلليني وكوروساوا وبونويل في العوالم نفسها مثل تاركوفسكي . أما انطونيوني فكان في طريقه الى ذلك لكنه انتهى وتعقّد نتيجة ملله الذاتي . اما ميليس فكان حاضراً هناك على الدوام ، فهو ساحر بمهنته .

الفيلم كالحلم ، الفيلم كالموسيقا ... لا يوجد اي نوع من الفنون له قدرة الفيلم على النفاذ الى ما وراء الادراك العادي وملامسة العواطف في أعماق الروح . ارتعاش في عصب العين ، اثر صدمة : اربعة وعشرين لقطة مضاءة في الثانية يفصل بين كل واحدة منها خط اسود لا تستطيع العين التقاطه .

عندما أمرر شريط الفيلم لقطة لقطة على طاولة المونتاج ينتابني إحساس السحر الذي كان يراودني في طفولتي ، في عتمة خزانة الثياب وانا أدير ببطء لقطة وراء لقطة ، فأرصد كل التغيرات التي تحدث ، وما أن أدير الآلة بسرعة حتى ارى الحركة .

ظلال الأشخاص الصامتين أو المتكلمين تتحرك دون مراوغة تجـاه اكثر غرفي سرية ، رائحة المعدن الساخن ، الصور المرتعشة ، خشخشة الصليب المالطي ، ويدي التي تمسك بمقبض الباب .

* * *

- ٧ -

قبل أن تكفهر سماء حياتي بظلمة سنوات سن البلوغ ، كنت قـد عشت قصة حب سعيدة خلال ذلك الصيف الذي أمضيته مع جدتي في فارموس .

لا اذكر سبب بقائي هنـاك ، لكنني أذكـر احساسي بالسعادة والطمانينة والأمان . كان الضيوف يترددون علينا أحيانا فيقيمون لأيام قليلة ثم يغادرون بعد أن يعززوا بهجتي . ورغم أنني كنت لا أزال طفلا الا أن جدتي ولالا كانتا تعاملانني كشاب ، فالى جانب المشاركة الاجبارية في الواجبات المنزلية مثل قطع الأخشاب وجمـع الصنوبـر وتجفيف الصحون وحمل الماء ، كان يسمح لي بأن اتجول بحرية ، فكنت أفعل هذا وأستمتع بوحدتي . لقد تركتني جدتي بسلام مع أحلامي . كانت احاديثنا الصريحة وقراءاتنا بالصوت العالي لاتزال مستمرةفي الأمسيات . لقد مارست حريتي في اتخاذ القرارات بطريقة لم اعرفها من قبل ، كذلك لم يكن التقيد الصارم بالمواعيد امرا هامـا ، فعندما كنت اتأخر عـلى الوجبات ، كنت أجد دائماً شطيرة وكأس حليب في مكان حفظ الطعام .

القاعدة الوحيدة التي لم تكن تقبل التردد كانت الاستيقاظ المبكر ، حيث يصدح البوق في السابعة صباحاً ، دون تمييز بين الآحاد وأيـام الأسبوع الأخرى ، وكانت جدتي شخصياً تشرف على العملية . أما انتهاك حريتي الذي كنت أتحمله برباطة جاش ودون فهم ، فهو الأظافر والآذان النظيفة ، فقد كانت جدتي تعتقد بأن النظافة الخارجية تحافظ عـلى الأمور الروحية وتقويها .

لم اكن أعاني من أية مشاكل بعد ، وكانت تخيلاتي الجنسية مسهبة وربما تتلاشى تحت غطاء من الاحساس بالذنب ، ولم أكن قد اقترفت خطيئة الشباب الرهيبة ، بل كنت بريئاً بكل المعاني ، وكان ستار الاكاذيب الذي أرهقني في بيت والدي الكاهن قد سقط ، ووجدت نفسي اعيش بحرية يوماً بعد يوم دون الاحساس بالخوف والذنب . كان العالم مفهوماً واستطعت أن أسيطر على أحلامي وواقعي . لم يغضب الرب مني ، ولم يعذبني المسيح بدمه ودعواته الضبابية المظلمة .

لا أعرف متى بالضبط دخلت ماريا الى كل هذا . كان ثمة عائلة من فالون ، تستأجر كل صيف ، وعلى مدى سنوات طويلة ، الطابق العلوي ، فوق قاعة تستخدم في الشتاء لدروس تثقيفية وعرض سينمائية. كانت السكة الحديدية تشق طريقها على بعد أمتار قليلة من البناء ، وقريبا منها كان يوجد حوض سباحة ، وفي أسفل المنحدر منشرة عائمة جرفها النهر . وكان المكان مليئاً بالطفيليات التي كانت تلتقط وتباع لعالم كيميائي محلي ، وكانت رائحة الأخشاب المقطوعة حديثاً والتي جففتها أشعة الشمس الدافئة تطفو فوق كل شيء .

كان شقيقي قد وجد أصدقاء له من عمره وسط أشقاء ماريا . كانوا فظين وعدوانيين ومحبين للمشاكل ، ترافقوا مع أطفال آخرين يسكنون في الجانب الجنوبي للقرية ، وقاموا بتحدي أشقياء القرية وتعاركوا معهم بالعصي والحجارة . أما أنا فقد بقيت بعيداً عن طقوس معاركهم لأنه كان يكفيني الدفاع عن نفسي ضد شقيقي الذي كان يضربني متى يشاء .

ذات يوم صيفي حار أرسلتني لالا الى مخزن حبوب بعيد يقع وراء المرج على الضفة الأخرى للنهر ، حيث كانت تعيش عجوز تدعى ليز ـ كولا ، المعروفة بالعمة . كانت شخصية غامضة يحترمها الناس لخبرتها الطبية وجبنتها الممتازة . وكانت تعاني من أمراض عقلية لعدد من السنوات وبدلا من ارسالها الى مأوى خاص في ساتر ، وخوفاً من

العلو الذي قد يلحق بالعائلة ، ثم حبسها في علية بالمزرعة وبقي عويلها يتردد في القرية كلها . وذات يوم ، وجدوها تقف قريباً من فارموس ، تحمل منديلا بين يديها ، كأنه صينية ، ثم طلبت من جدتي أن تضع لها في المنديل أربعة كرونر ، واذا لم تعطها فانها سوف تضع ركاماً من الأغصان المقطوعة والمليء بالأفاعي التي سوف تهاجم أقدام الأطفال العارية . فقامت جدتي بدعوتها للدخول ، وأعطتها بعض الطعام والمال ، فدعت أن يباركنا الله .ومدت لسانها لشقيقي ثم اختفت .

وفي يوم شتوي بارد حاولت ان تغرق نفسها في منطقة غرادا لكن رجال المدّية قاموا بانقاذها ، ومنذ ذلك اليوم أصبحت هادئة وواعية لا تتحدث إلا قليلا ، واعتزلت في مخزن الحبوب ، تحيك الثياب وتحضر أدوية من الاعشاب تعتبر أكثر فعالية مما يعدّه الطبيب المحلي .

وكما ذكرت ، كان يوماً حاراً عندما ذهبت إليها . . سبحت في المياة السوداء والباردة دائماً في بحيرة تعتبر بلا قاع ولها قنال تحت الأرض غير مكتشف بعد ، يقود الى النهر ، وقد حاول أحد الصبية عبور هذا القنال ، ثم وجدت جثته بعد أشهر مع مجموعة أخشاب في أستوكهولم ، وكانت معدته مليئة بأسماك الانقليس التي كانت تخرج من فمه ومؤخرته.

سِرتُ في الطريق المحظور عبر المستنقع . كانت الرائحة نتنه والمياه البنية تبقبق بين قدمي وقد تبعتني سحابة صغيرة من الذباب .

كان مخزن الحبوب يقع عند طرف الغابة ، أسفل التل حيث تنحدر الأرض العشبية الى الجنوب . وكانت الحظيرة وبيت السكن والمخزن بحالة جيدة وقد طليت جميعها بالأحمر وسقفت حديثاً بالآجر القرميدي . وكانت عائلة ليز ـ كولا من المزارعين الجيدين ، وبعد أن عادت إلى رشدها لم يعد شيء يرضيها .

كانت ليز ـ كولا إمرأة طويلة شعرها رمادي وعيناها زرقاوان غامقتان وكان وجهها يوحي بالقوة من خلال فمها العريض وانفها الكبير وجبهتها

الواسعة وأذنيها الناتئتين . وجدتها تقف خارج المخزن تقطع الأخشاب ، ومارتا تقف الى جانبها ممسكة بالطرف الاخر من المنشار .

كانت مارتا تتردد على مخزن الحبوب فتساعد ليز ـ كولا في رعاية الحيوانات وشؤون أخرى ، لقاء أجر بسيط .

قدمتا لي شطيرة وعصير عنب أسود ، فجلست على طاولة قرب النافذة ، في حين انهمكتا في تنقية القهوة عند موقد النار . كانت تفوح في الغرفة الضيقة والحارة رائحة حليب فاسد وكان الذباب يملأ المكان . سألتني ليز ـ كولا عن صحة السيدة نيلسون والسيدة اكربلوم ، فأجبتها بانها جيدة ، ثم قامت بوضع قالب الجبن في حقيبة أحملها على ظهري فصافحتها ، وانحنيت احتراماً وشكرتهما على الضيافة وقلت لهما الى اللقاء . ولسبب ما رافقتني مارتا بعض الطريق .

ورغم أننا كنا في سن واحد لكنها كانت أطول مني . عريضة بارزة العظام وشعرها القصير قد ابيض من الشمس والسباحة . كانت شفتاها رقيقتان وفمها عريض ، وعندما تضحك يخيل إلي أن طرفي فمها يصلان الى اذنيها كاشفين عن اسنان بيضاء قوية . وكانت عيناها زرقاوان شاحبتان وتبدو الدهشة دائماً في نظراتها ، وانفها طويل ومستقيم مع انتفاخة صغيرة في نهايته . وكانت تتمتع بكتفين هائلين ، وتفتقر الى الورك ، وقد أحرقت الشمس ذراعيها وساقيها الطويلين . أما رائحتها فكانت تشبه رائحة حظيرة الابقار ، وقد بهت لون ثوبها الاصلي وتلطخ ببقع العرق الداكنة تحت ابطيها وعند كتفيها .

كان الحب فورياً وصاعقاً ـ تماماً مثل روميو وجوليت ـ مع فارق وحيد بأننا لم نفكر في أن يلمس احدنا الآخر ، أو حتى يقبله .

وبحجة القيام بالواجبات المطلوبة صرت أختفي في فارموس منذ الصباح الباكر ولا أعود الا بعد الغروب . واستمر هذا الحال لايام عديدة

الى ان سألتني جدتي ذات يوم فاعترفت لها . كانت حكيمة في ردة فعلها اذ سمحت لي أن أتغيب في التاسعة صباحاً حتى التاسعة مساءً . واخبرتني ايضاً أنها ترحب بمارتا في أي وقت ، لكننا لم نتردد سوية على فارموس اذا أن شقيق مارتا الاصفر قد انتبه الى مابيننا . وذات يوم تجرأنا على النزول الى جيما لاصطياد السمك وجلسنا قريبا من بعضنا البعض دون أن نتلامس عندما ظهرت مجموعة من الأولاد الصغار وهم ينشدون اغنية مسيئة لنا . فهجمت عليهم وضربت احدهم ، لكنهم تكاثروا علي وأشبعوني ضرباً . ولم تأت مارتا لنجدتي . ربما أرادت أن ترى هل بامكاني أن أخلص نفسي أم لا .

لم تكن تتكلم ، ولم يلمس احدنا الآخر أبداً ، وكنا نجلس أو نرقد او نقف بشكل قريب ، نلعق جراح الامنا ونحك لسعات البعوض . نسبح بخجل في كل الأحوال الجوية دون أن يلاحظ أحدنا عري الآخر . وصرت أساعدها قدر الامكان في أعمالها بمخزن الحبوب دون أن اجرؤ على الاقتراب من الابقار . أما كلب الصيد فكان يراقبني بغيرة ويعض قدمي باستمرار . أحياناً كانت العجوز توبخ مارتا إذ لم تكن تقبل أي تقصير في الواجبات ، وقد ضربتها على أذنيها ذات مرة فبكت مارتا وهي تستشيط غضباً ، أما أنا فكنت عاجزاً عن مواساتها .

كانت هادئة ، وكنت أنا المتحدث دائماً . كذبت عليها واخبرتها بأن والدي هذا ليس والدي الحقيقي ، وانني ابن ممثل مسرحي مشهور يدعى اندرس دي ڤال ولهذا فان الكاهن برغمان يكرهني ويضطهدني دائما وهذا أمر مفهوم . وأخبرتها ايضا أن أمي لا تزال تحب اندرس دي ڤال وتذهب الى كل عروضه الأولى ، وقد سمح لي أن التقي به مرة خارج المسرح ، فنظر الى بعينين دامعتين وقبلني في جبيني وهمس لي بنبرة شجية : « ليباركك الله يا طفلي العزيز » . وأخيراً قلت لها إن بوسعها أن تسمع صوته في الراديو عندما يقرأ (أجراس العام الجديد) . وإن اندرس دي ڤال هو والدي فعلاً وعندما سأترك المدرسة سوف أعمل ممثلاً في المسرح الدرامي الملكي .

سحبت دراجة جدتي القديمة ومضينا بها عبر جسر السكةالحديدية نتمايل ونتفرج على طرقات الغابة في الاسفل . كانت مارتا تقود الدراجة وانا اجلس على الحامل الخلفي متشبثاً به بأصابعي ، وكنا ذاهبين لحضور موعظة فيلانهدن، فقد كانتمارتا مؤمنة حقيقية وتنشد باستمرار اغاني الأمل الدائم بصوت خافت ، في حين كنت انا غير قادر على اخفاء كرهي لهذا . كنت أكره الله والمسيح ، وخصوصاً المسيح بنبرة صوته الثائرة وعشائه الرباني المؤجل ، ودمه . هل الله موجود ؟ لا أحد يستطيع إثبات ذلك . يكفي أن يقرأ المرء العهد القديم حتى يكتشف أن الله اذا كان موجودا فهو بشع ، غير مسامح ، ومنحرف ، وهو المفترض أن يكون رب الحب الذي يحب الجميع . إن بوسعهم الاحتفاظ به . أما العالم فليس سوى حفرة خراء ، كما يقول سترندبرغ .

كان القمر بدراً أبيض فوق التلال ، وثمة غشاوة ساكنة تغطي الاشياء كلها ، وكان الصمت سيكون مطبقاً لو انني لم أكن أتحدث كثيراً . وفجأة وجدت نفسي أعترف لمارتا بأنني اخشى الموت . كان قد توفي كاهن عجوز في الأبرشية ، وفي يوم دفنه ، كان يرقد في التابوت المفتوح والضيوف يشربون النبيذ ويأكلون الكعك في الغرفة المجاورة . كان الطقس حاراً والذباب يحوم حول الجثمان ، وقد غطي الوجه بقطعة قماش بيضاء ، إذ أن مرض العجوز كان قد أتى على فكه السفلي وشفته العليا ، وكانت هناك رائحة نتنة اختلطت بشذى الازهار . وفجأة تحرك الكاهن الملعون في نعشه واتخذ وضعية الجلوس وخرق قطعة القماش كاشفاً عن وجهه المتعفن ، ثم هوى جانباً فمال النعش وسقط على الأرض . وقلت لمارتا :

« إنها حقيقة يامارتا ، كنت هناك بنفسي ، واذا لم تصدقيني فاسألي شقيقي لقد كان هناك أيضا ، لكنه فقد وعيه . ان الموت مخيف . لاتعرفين ماذا سيأتي بعده . أما تلك القصور الفخمة التي تحدث المسيح عنها فانا لا أؤمن بها . شكراً ، انها ليست لي . إن الموت رعب لامفر منه ، ليس لأنه يؤلم ، بل لأنه مليء بأحلام موحشة لا يستطيع احد أن يستيقظ منها » .

كان يوماً ماطراً ، ذهبت ليز ـ كولا لمعالجة امرأة تعاني من آلام في المعدة وبقيت أنا ومارتا في الغرفة الضيقة الحارة . كان المطر ينقر على زجاج النافذة ويخشخش على السطح ، عندما قالت مارتا : « سوف ترى ، إن الخريف قادم بعد هذا المطر . . » . وفجأة أدركت أن ماتبقى لنا أيام معدودة ، وأن هذه الأبدية التي عشناها قد اقتربت نهايتها وبات الفراق وشيكاً . انحنت مارتا على الطاولة ، وكان لتنفسها رائحةالحليب، وقالت : « إن قطار البضائع يغادر بورلانغ في السابعة الا الربع . أستطيع سماع صوته عندما يغادر ، وعندئذ سوف أفكر بك ، وعندما تراه يعبر ڤارموس يجب أن تفكر بي » .

مدت يدها العريضة ذات الأظافر المتسخة ، فوضعت يدي عليها . أخيرا توقفت أنا عن الكلام إذ دفعني الى الصمت إحساس بالحزن . . . قاهـــر .

جاء الخريف واضطررنا لارتداء الجوارب والأحذية ، وساعدنا بجمع نبات اللفت ، ثم جاء الصقيع وتجمد كل شيء في الهواء والأرض ، وغطت طبقة جليد سميكة البركة خارج البناء حيث بدأت والدة مارتا تحزم الأمتعة . احتدت الشمس في منتصف النهار، ثم بردت عند المساء . كانت الآلات بدأت بحراثة الحقول ، كنا نحب تقديم المساعدة لكننا كنا نتصرف غالبا وحدنا . وذات يوم استعرنا قارب بيرغلوند وذهبنا لصيد سمك الكراكي . اصطدنا واحدة كبيرة عضت أصبعي ، ولكن عندما فتحتها لالا لتنظفها ، وجدت بداخلها خاتم زفاف رائعا ، قرأت جدتي اسم كارين محفورا عليه ، وكان والدي قد أضاع قبل سنوات خاتمه في منطقة جيما ، لكنه لم يكن بالضرورة الخاتم نفسه .

وذات صباح بارد وجاف ، أرسلتنا جدتي الى مخزن القريـــة الواقع بين دوفناس ودجورمو ، فأوصلنا في طريقه ابن بيرغلوند الذي كان متجها الى القرية لبيع حصان عجوز . كانت الرحلة بطيئة وصعبة بسبب الطريق الموحل المليء ببرك الماء ، فانشغلنا بعدّ السيارات التي

كانت تمر على الطريق نفسه ، ووصل عددها بعد ساعتين الى ثلاث سيارات . وفي المخزن حزمنا حمولتنا وقفلنا عائدين سيرا على الأقدام ، وعندما وصلنا الى مكان المعدية جلسنا على جذع شجرة سوداء وشربنا عصير تفاح والتهمنا الشطائر التي معنا . حدثت مارتا عن طبيعة الحب وقلت لها انني لا أؤمن بالحب الابدي ، وان الحب البشري ذو نزعة انانية وقد ذكر سترندبرغ ذلك في مسرحية (البجع) . وقلت أن الحب بين الرجل والمرأة هو في اغلب الأحيان فسق ودمارة ، واخبرتها عن سيدة جميلة كانت تمارس الحب مع والدي في غرفة مقدسات الكنيسة بعد طقوس التبادل كل مساء خميس .

انتهى عصير التفاح والقت مارتا الزجاجة بالنهر ، في حين بدأت انا اروي لها قصة حب مأساوية من الأدب ، وأستعرض امامها معرفتي . وفجاة احسست بالاحباط والدوار . وسألت مارتا بشيء من الحرج فيما اذا كانت تعتقد انني أتكلم أكثر من اللازم ، فأجابت بالنفي وهزت راسها بحزن . التزمت الصمت بعد ذلك، وتساءلت هل ألفق قصة حول تجاربي الجنسية ، لكنني سرعان ما بدأت أشعر بالمرض وخطر ببالي أن يكون عصير التفاح مسموما . استلقيت على المنحدر العشبي ، وبدات قطرات مطر بارد تتساقط ، واختفت ضفة النهر المقابلة وراء ستار من الضباب .

وذات ليلة هطل الثلج واسود لون ماء النهر أكثر من أي وقت مضى واختفت كل الألوان الخضراء والصفراء وساد الصمت في كل مكان . كان البياض يتألق عندما مشينا عائدين الى حيث كانت مارتا تقيم مع أهلها . لم نستطع أن نتفوه بكلمة ، ولم نجرؤ على تبادل النظرات فقد كان الألم لا يطاق . تصافحنا وقلنا الى اللقاء ، إذ ربما نلتقي في الصيف المقبل .

استدارت وركضت مبتعدة تجاه المنزل ، أما انا فمضيت عائدا الى فارموس عبر جسر السكة الحديدية ، وكنت أفكر لو أن قطارا سوف يمر الآن من هنا فانه سوف يمر من فوقي تماما .

٨

استؤنفت البروفات على مسرحية ستريندبرغ (رقصة الموت) يوم الجمعة ٣٠ كانون الثاني عام ١٩٧٦ ، بعد أن توقفت لفترة بسبب مرض اندرس إيك الذي استرد عافيته بعد أسابيع وأعلن أنه مستعد للعمل من جـديد .

خلال هذا التوقف غير المتوقع ، عملت على سيناريو (مكان الجنة) بالاشتراك مع الكاتبة أولا ايزاكسون والمخرج غوتيل ليندبلوم . وكانت شركتي سينما توغراف هي التي ستنتج الفيلم حيث سيبدأ التصوير في شهر أيار . انشغلنـا بالتحضيرات وتوقيـع العقود واختيـار أماكن التصوير . وكنت قد انتهيت من مسلسلي التلفزيوني (وجها لوجه) وسيعرض قريبا على مجموعـة من المنتجين الأميركيين ، وقبل أشهر معدودة انجزت سيناريو (بيضة الثعبان) الذي سينتجه دينو دي لاورنتيس .

ببطء وتردد بدأت التفت صوب أمريكا ، لما فيها من مصادر غنية لي ولشركتي . وكانت فرص العمل على أفلام ذات نوعية تتزايد بشكل حاد ، يمولها الأميركيون ويخرجها مخرجون أجانب . بدوري لم أنجح تملما في أن أكون منتجا جيدا ، وكانت شركتي سينماتوغراف تقوم على عمودين توءمين ، كانا صديقين حميمين لي لمدة سنوات طويلة ، وهمـا لارس ـ أوكارلبرغ [الذي بدأ تعاوني معه في عام ١٩٥٣ بفيلم (الليلة العارية)] ، وكان يتولى أمور الادارة ، بالاضافة الى كاتينكا فاراغو ، التي عملت معها عام ١٩٥٤ بفيلم (رحلة الى الخريف) والتي كانت تشرف على فعاليات التصوير . استأجرنا الطابق العلوي في بناء جميل يعود الى

القرن الثامن عشر ، وكان يضم مكتبا فسيحا وغرفة عرض وغرف مونتاج ومطبخاً ، ويسوده جو منزلي .

منذ شهر أو أكثر قام بزيارتنا رجلان دمثان من مصلحة الضرائب واخذا يراجعان كشوف حساباتنا ، ثم عبرا عن رغبتهما في الاطلاع على دفاتر شركتي السويسرية برسونا فيلم ، وعلى الفور كانت الدفاتر المطلوبة تحت تصرفهما .

تابع الرجلان عملهما دون أن يزعجهما احد . ووفقا ليومياتي فان مذكرة مصلحة الضرائب وصلت الينا يوم الخميس ٢٢ كانون الأول ، فلم أقرأها وأرسلتها الى محامي .

قبل بضع سنوات ، ربما عام ١٩٦٧ ، وعندما بدأت أموري المادية تسير على نحو مفرح طلبت من صديقي هاري شين أن يجد لي محاميا شريفا يستطيع رعاية مصالحي المادية ، فوقع اختياره على محام شاب ذي سمعة طيبة هو سفن هارلد باور الذي كان بالاضافة الى عمله ، يتمتع بمنصب عالي في حركة الكشافة العالمية .

سارت الأحوال معه جيدة ، كذلك كانت مع المحامي السويسري الذي يشرف على برسونا فيلم ، وازداد نشاطنا ، فانتجنا (صرخات وهمسات) (مشاهد من حياة زوجية) (دفاع رجل مجنون) و (الناي السحري) .

في يوميات ٢٢ كانون الثاني لا أبدو قلقا على مذكرة مصلحة الضرائب بقدر قلقي من الأكزيما المؤلمة التي تفشت فجأة في أحد أصابع يدي اليسرى .

كان قد مضى على زواجي من انغريد خمس سنوات ، وكنا نعيش في بناء حديث بشارع كارلا بلان ، في الموقع نفسه حيث كان يقوم بيت سترندبرغ في الماضي .

عشنا حياتنا على النمط البورجوازي ، فكنا نلتقي الأصدقاء باستمرار ونتردد على المسارح والحفلات الموسيقية ونشاهد الأفلام ونعمل حسب ذوقنا .

وفيما يلي خلفية صغيرة لما حدث بتاريخ ٣٠ كانون الثاني وما بعده، مع العلم أنني لم أكتب في يومياتي ما حدث في الأشهر التالية ، إلا بشكل متقطع وبعد مرور سنة كاملة . لذلك فان ما سأكتبه الآن هو خلاصة احداث وصور أذكرها من خلال تركيز شديد تغطيه غشاوة الشيخوخة .

بدأنا بروفات (رقصة الموت) كالمعتاد في التاسعة والنصف صباحا وكان يعمل معي أندرس إيك ومارغريتا كروك وجان أولف ستراندبرغ ، بالاضافة الى الملقن ومساعد الانتاج ومدير المنصة . كنا سعداء واضواء الدراماتن فوقنا .

كان العمل يتقدم بطريقة سهلة ومريحة ، مثلما يحدث عادة في بداية البروفات ، عندما فتح الباب ودخلت مارغوت ويرستروم ، سكرتيرة مدير المسرح ، وطلبت إلي أن اتوجه فورا الى غرفتها حيث يوجد رجلان من الشرطة بانتظاري . قلت لها ربما يحتسيان بعض القهوة ويعودان للقائي في الساعة الواحدة أثناء فترة الاستراحة ، لكنها اجابتني بأنهما يريدان التحدث الي فورا ، وعندما سألتها عن سبب هذا كله أجابت بأنها لا تعرف . ضحكنا مندهشين من الموقف وطلبت من الممثلين أن يتابعوا البروفات على أن نلتقي في الواحدة والنصف ، بعد الغذاء .

توجهت مع مارغوت الى غرفتها ، خارج مكتب المدير ، حيث كان يجلس رجل في معطف قاتم اللون ، وعندما رآني نهض وصافحني وعرفني بنفسه . سألته عما يحدث ، ولم هذه العجلة للقائي ، فأجابني أن الأمر متعلق بشؤون الضرائب وانه يجب علي الذهاب معه لاجراء التحقيق اللازم . حدقت به كالأبله وقلت له : إنني لم أفهم شيئا ، وهذه هي الحقيقة ، ثم تذكرت فجأة أن الناس الذين يتعرضون لمواقف

مشابهة (في الأفلام الأميركية) يطلبون استدعاء محاميهم فورا . فاخبرته بضرورة وجود محامي معي اثناء التحقيق وانني سأتصل به ، فاعترض الشرطي قائلا بأن محامي متورط هو الآخر في القضية نفسها وقد استدعي وتم التحقيق معه . عندئذ طلبت منه يائسا أن أذهب الى غرفتي لاحضر معطفي فوافق قائلا « حسنا سوف آتي معك » . وفي الطريق الى الغرفة التقيت عدداً من الأشخاص الذين كانوا ينظرون بدهشة الى الرجل الغريب الذي يسير خلفي تماما ، ثم قابلت احد زملائي في ممر المنتجين ، فسألني مستغربا : « ألست في البروفات » ؟ فقلت له : « لقد اعتقلني رجال الشرطة » . وعندئذ انفجر زميلي ضاحكا .

عندما ارتديت معطفي هاجمتني فجأة تشنجات حادة في المعدة ، فقلت للشرطي : انني يجب أن أذهب للحمام . فقام الشرطي بتفتيش الحمام ومنعني من اغلاق الباب . وفي الحمام عانيت من دفعات اسهال ذات صوت مرتفع ، في حين كان الشرطي يقف وراء الباب النصف مفتوح .

واخيرا ، كنت على استعداد لمغادرة المسرح، لكنني بدأت أشعر بالمرض وارثي بصمت افتقادي موهبة الغياب عن الوعي . واثناء مغادرة المسرح قابلت عددا من الممثلين في طريقهم الى الغداء ، فبادلتهم التحية بكآبة ، ولاحظت التساؤل المرسوم على وجه الفتاة المشرفة على لوحة المفاتيح الكهربائية .

وعندما خرجنا الى شارع نيبروغاتن أقبل شرطي آخر وحياني ، بعد ان كان يرصد المخرج المؤدي الى شارع الملو فاسغاتن ، خشية من هربي .

كان المحقق كنت كارلسون من مصلحة الضرائب قد أوقف سيارته خارج المسرح (أو ربما كان ذاك زميله ، لم استطع أن أميزها ، فكلاهما كان مترهلاً ، يرتدي قميصاً عليه رسوم أزهار ، بشرته قذرة وأظافر يديه متسخة) . ركبنا السيارة وانطلقنا . كنت أجلس في المقعد الخلفي

بين شرطيين ، في حين تولى المحقق كارلسون (أو زميله) القيادة . وكان احد الشرطيين ذا روح طيبة فأخذ يروي القصص ويضحك . طلبت منه ان يصمت فأجاب بقليل من الحرج انه كان يود تلطيف الجو فقط .

كان مكتب مدير الشرطة في شارع قريب مـن كونغشولمستروغ ، ولست واثقاً من هـذا تماماً اذ أن الصور في حالتي تلك ، قد بدأت تضمحل وغابت الأصوات شيئاً فشيئاً .

اقبل رجل مسن وهو يبتسم وقدم لي نفسه ووضع أمامي مجموعة من الاوراق حتى أراجعها . أحسست بجفاف في فمي وحنجرتي ، فطلبت كأساً من الماء وشربته بيد مرتعشة وقد ضاق تنفسي . في الطرف الآخر من الحجرة (التي بدت بلا نهاية) تجمع عدد من الاشخاص الجالسين ، كانوا خمسة او ستة ، ثم اخبرني المفوض بأنني كنت قد قدمت تصريحات كاذبة حول شؤوني المالية وأن شركة برسونا فيلم ، مشروع باطل قانونياً ، فأجبته بأنني لم أكن اقرأ تصريحاتي ، وليست لدي أية نية لاخفاء النقود عن الدولة . تابع المفوض اسئلته ، وأخبرته بأنني طلبت من اشخاص آخرين متابعة أموري المالية والاشراف عليها لأنني لست كفئاً ولن أتورط بالمجازفة في مثل هذه الامور وهذا ليس من طبعي أبداً ، واعترفت بكامل ارادتي أنني وقعت على أوراق لم أقرأها ، ولو أنني قرأت شيئاً منها فلم أكن لأفهمه على أية حال .

في كل هذه القصةالبائسة ـ التي استمرت عدة سنوات وكلفتني نفقات باهظة ، بالاضافة الى بقائي خارج البلاد لمدة تسع سنوات ، ووجوب دفع ضريبة بلغت ١٨٠،٠٠٠ كرونر ـ كنت مذنباً في أمر واحد فقط ، وهو انني وقعت على أوراق لم أكن اقرؤها او افهمها . وبهذه الطريقة فقد ساهمت بعمليات مالية لم تكن لدي أية فكرة عنها ، ولا القدرة للاشراف عليها . كان يؤكد لي باستمرار أن كل شيء يسير بشكل قانوني فاذا لم أكن افهم ما يحدث ، ولم يكن محامي اللطيف ، قائد الكشافة العالمي ، على اطلاع بعمله ، فان عدداً من الصفقات قد تمت بطريقة غير

صحيحة ، وهذا ما أثار شكوك مصلحة الضرائب وزودها بأسباب جيدة ، حتى اعتقد المحقق كارلسون وزميله انهما وقعا على فريسة كبيرة هذه المرة ، فقام المدعي العام الجاهل والمحتار باطلاق أيديهما في القضية بحرية مطلقة ، خوفاً من ان أهرب من البلاد وأحرج السلطات .

انقضت الساعات ، وبدأ الرجال الجالسون في الطرف الآخر من الغرفة الواسعة يختفون واحداً بعد واحد . التزمت الصمت ، سوى انني كنت اهمس بين الحين والآخر بأن هذه كارثة كبيرة ، ولفت انتباه المفوض انها قد تكون قصة للصحافة والاعلام . فهدأني قائلاً : إن حديثنا سري للغاية ، وإن التحقيق يجري في هذا المركز بالذات بعيداً على ادارة الشرطة العامة لتحاشي اثارة أي اهتمام غير ضروري . سألته اذا كان بامكاني أن اتصل بزوجتي ، لكنه رفض ، فقد كانوا يفتشون شقتي في هذه اللحظة بالذات تماماً . رن جرس الهاتف ، وكان المتحدث صحفياً من جريدة سفنسكا داغبلات ، فارتبك المحقق وطلب اليه الا يكتب شيئاً عن الموضوع . بعد ذلك اخبرني أنني ممنوع من السفر وانهم سوف يصادرون جواز سفري ، ثم قدم لي ورقة فوقعتها دون أن أعرف محتوياتها لانني لم أعد افهم أي شيء يقال لي .

نهضنا ، وربت المحقق على كتفي وحثني على متابعة العيش والعمل كالمعتاد ، لكنني قلت له ان هذه كارثة كبيرة . ألم يكن بوسعه أن يفهم انها كانت كارثة كبيرة فعلا ؟

وأخيراً وجدت نفسي في الشارع من جديد . كان الثلج يتساقط بهدوء والظلام يخيم تدريجياً ، وكان كل شيء واضحاً ، بالابيض والاسود ، دون ألوان ، قاسياً مثل نسخة مصورة . كانت أسناني تصطك وكل مشاعري وافكاري مخدرة ، استقليت تاكسي الى المسرح حيث تركت سيارتي .

وعندما عدت الى البيت وجدت انغريد بانتظاري . لقد فاجؤوها بتفتيش الشقة ، وكان رجال الشرطة مهذبين معها ، لكنهم صادروا بعض الملفات . وبعد خروجهم جلست وانتظرت ، وعندما طال الانتظار أعدت كعكاً .

اتصلت بهاري شين وسفي هارلد باور ، فوجدتهما في حالة من الصدمة والحيرة . اما ما حدث لاحقاً في تلك الامسية فلا أذكرها تماماً . هل تناولنا العشاء ؟ ربما . هل شاهدنا التلفزيون ؟ ربما .

في وقت متأخر من هذه الامسية وبعدما ذهبنا الى الفراش ، خطر ببالي أن وسائل الاعلام سوف تحاصر البيت في الصباح التالي ، فحزمت بعض الامتعة الضرورية واتجهت الى الشقة الصغيرة في غريفتور غاتن التي كنت قد انتقلت اليها انا وغان بعد عودتنا من باريس في خريف عام ١٩٤٩ ومنذ ذلك التاريخ كنت الجأ الى هذه الشقة كلما اعترضتني الكوارث أو انهيار زواج ما وصعوبات اخرى .

وصلت اليها في منتصف الليل تقريباً ، ومنحني احساس العزلة فيها احساساً آخر بالامان ، فتناولت قرصاً منوماً وغفوت .

لم أعد أذكر ما حدث يومي السبت والاحد ، سوى أنني كنت اغلق الباب على نفسي في شقة غريفتورغاتن ، واتسلل الى البيت في المساء عن طريق الكراج دون أن يراني أحد ، فامضي بعض الوقت واعود للشقة .

انتشر الخبر في التلفزيون وعلى صفحات الجرائد الاولى . ورفض ابني ذو الاثني عشر عاماً أن يذهب للمدرسة بعد أن تملكه الغضب ، فاعتزل في غرفة آلات العرض بسينما رواد كفارون مع صديقه الذي يعمل هناك والذي كان مؤيداً مستمراً له في كل ما واجهه من صعوبات لاحقاً . لا ادري كيف واجه ابنائي الآخرون القضية نفسها لانني لم أكن أراهم ، لكن معظمهم كان ينتمي الى مجموعات يسارية ، واكتشفت في وقت لاحق أنهم كانوا مقتنعين بأنني مذنب .

حدث الانهيار صباح الاثنين... كنت جالساً في الفرفة الكبيرة بالطابق الاول للمنزل ، اقرأ كتاباً واسمع موسيقا ، في حين كانت انغريد قد ذهبت للقاء بعض المحامين . لم اكن اشعر سوى بآثار التخدير التي خلفتها الاقراص المنومة والتي لم اكن معتاداً على تعاطيها .

توقف شريط الموسيقا مصدراً تكة صغيرة ، وساد الصمت ، ونظرت فشاهدت الثلج يتساقط ويتراكم على أسطحة الابنية المقابلة . توقفت عن القراءة . وكنت اجد صعوبة في استيعاب ما اقرؤه . كان الضوء في الغرفة حاداً دون ظلال . دقت الساعة عدة مرات . ربما كنت نائماً ، وربما اجتزت الخطوة من واقع الاحاسيس المتلقاة ، الى واقع آخر . لم اكن اعرف شيئاً ، ووجدت نفسي في فراغ عميق وساكن خالٍ من الآلام والمشاعر . اغلقت عيني ، او ربما خيل الي ذلك ، وشعرت عندئذ بوجود أحد ما في الغرفة ، ففتحت عيني ورأيت نفسي أقف على بعد امتار قليلة من الضوء الحاد ، انظر الى نفسي. كانت تجربة مركزة لا تقبل الجدل... لقد كنت واقفاً على البساط الاصفر انظر الى نفسي جالساً على الكرسي وكنت جالساً على الكرسي انظر الى نفسي واقفاً على البساط الاصفر . وكنت انا الجالس على الكرسي مسؤولا عن ردود الافعال . لقد كانت النهاية ، وليس هناك طريق للعودة ، لقد سمعت نفسي تنتحب .

مرة او مرتين في حياتي كلها ، راودتني فكرة الانتحار ، وفي شبابي أقدمت على محاولة فاشلة ، لكنني لم أنظر اليها بجدية . لقد كان فضولي عظيماً وحبي للحياة قوياً وخوفي من الموت لا يتزعزع .

ومع ذلك فان موقفي من الحياة كان يفترض وجود سيطرة مستمرة ولائقة على العلاقة بالواقع والتخيلات والاحلام . وعندما كانت تتعطل هذه السيطرة ـ وهو أمر لم يحدث لي من قبل حتى في طفولتي المبكرة ـ كانت أنظمتي تصاب بالخلل وتتعرض هويتي للخطر ، فأسمع صوت انيني ، يشبه انين كلب جريح ، نهضت من الكرسي وكنت على وشك أن القي بنفسي من النافذة .

لم أكن أعلم أن انغريد قد عادت الى المنزل بصحبة الدكتور شتور هيلاندر .. افضل أصدقائي . بعد ساعة وجدت نفسي في العيادة العصبية بمستشفى كارولنيسكا مستلقياً على سرير في غرفة واسعة تضم عدداً من الاسرة الآخرى . وكان البروفسور المسؤول يطوف حولي ويحدثني بلطف ، فقلت له شيئاً حول الخجل والخوف . فحقنوني بابرة وغفوت في الحال .

أمضيت ثلاثة اسابيع في هذا الجناح وانا اشعر بالارتياح . كنا مجموعة خانعة من المخدرين الذين يتبعون نظاماً يومياً صارماً دون اي احتجاج . كانوا يعطونني خمس حبات فاليوم زرقاء في النهار وحبتي موغادون في الليل ، وعندما أشعر بأنني لست على ما يرام أطلب من الممرضة جرعة اضافية ، فأنام بعمق ودون احلام في الليل وفي ساعات من النهار .

وبين وقت وآخر ، كنت اكتشف بما تبقى لدي من فضولي المهني ، العالم المحيط بي . كنت أعيش وراء ستار في غرفة كبيرة خالية ، أقرأ في معظم الاوقات دون ان احتفظ بما أقرؤه ، وكنت اتناول الوجبات في غرفة الطعام ، وأشارك دون اجبار في محادثات لطيفة . لم تصادفني انفجارات انفعالية باستثناء مرة واحدة عندما ثار نحات مشهور في إحدى الأمسيات وحطم اسنانه . وأذكر من الناس الموجودين معي في الجناح نفسه ، فتاة حزينة كانت تشعر بضرورة غسل يديها باستمرار ، شاب رقيق طوله ستة أقدام مصاب باليرقان ، يأخذونه مرة كل اسبوع الى مستشفى اولراكر للأمراض العقلية ليجروا عليه فحوصات مختلفة. بالإضافة الى وجود رجل عجوز حاول الانتحار بواسطة قطع شرايينه بالمنشار اليدوي ، وإمرأة في منتصف العمر ذات وجه جميل وعابس ، تعاني من قلق داخلي مستمر ، فتمشي في الممرات قاطعة اميال عديدة بصمت .

في المساء كنا نتجمع ونتابع بطولة العالم في التزلج على الجليد ، على جهاز تلفزيون ابيض واسود ، صورته مشوشة وصوته سيء . لكن احداً منا لم يكن يعلق على الأمر .

وكانت انغريد تزورني مرتين يوميـاً ، فنتحدث بهدوء ومودة ، وأحياناً نذهب الى عروض مبكرة في السينما .

لم أكن أقرأ الصحف أو حتى أسمع أية برامج اخبارية . وشيئاً فشيئاً ، وعلى نحو غير مدرك اختفى قلقي وتلاشى إحساسي بالإهانة ، غير القابل للإصلاح ، لكن زخم ابداعي الجارف بدأ ينحسر ويغيب .

خيل إلي انني قد أصبح قضية للعلاج حتى آخر عمري ، فوجودي كان مثيراً للشفقة ، غير متطلب . لم يعد يوجد شيء حقيقي أو عاجل ، مؤلم أو مقلق . كنت اتحرك بحذر وكل ردود فعلي تأتي متأخرة . أما رغباتي الجنسية فقد انقطعت تماماً وأصبحت حياتي مرثية .

ذات يوم سألت البروفسور الصديق فيمـا إذا كان قـد شفي أحداً ما ، ففكر بجدية ثم اجابني قائلاً : « الشفاء كلمة كبيرة » . ثم أومأ برأسه وابتسم مشجعاً . ومضت الدقائق والأيام والأسابيع .

لا أدري ماذا جعلني أخترق جدار الحيطة المحكم حولي . سألت البروفسور فيما إذا كان بوسعي أن أذهب برحلة الى صوفياهمت ، فوافق محذراً إياي الا أتوقف عن علاج الفاليوم بشكل حاد . شكرت له لطفه ، وودعت زملائي المرضى وتبرعت لهم بجهاز تلفزيون ملون .

في نهاية شباط وجدت نفسي في غرفة هادئة ومريحة بصوفياهمت ، تطل نافذتها على الحديقة ، ومن خلالها كنت أستطيع رؤية بيت الكاهن الأصفر ، حيث أمضيت طفولتي . وفي كل صباح كنت أتنزه لمدة ساعة في الحديقة .

لقد كان زمن عذابات قاسية . توقفت عن تناول الفاليوم والموغادون بسرعة احتجاجـاً على تعليمات البروفسور ، وكان التأثير فوريـاً ، فاشتعل القلق المقموع في داخلي ، وعاد شيطاني بغضب وساد الأرق

ليالي ثانية حتى ظننت أن أشلائي لن تلبث أن تتطاير إثر انفجار داخلي عنيف . بدأت أقرأ الصحف وأحشر نفسي في كل ما حدث أثناء غيابي ، وعاودت اتصالاتي مع المحامين والأصدقاء .

لم يكن الأمر شجاعة أو إحساساً باليأس ، ولكن غريزة الحفاظ على الذات ، والتي على الرغم من ، أو ربما بفضل وجودي في العيادة النفسية ، استجمعت بعضاً من مقاومتها .

شننت هجوماً على الشيطان بداخلي بواسطة نهج أثبت فعاليته خلال أزمات سابقة . وكان هذا النهج يقوم على تقسيم أيامي ولياليي الى وحدات زمنية تتضمن كل واحدة منها نشاطات معدة سلفاً تتخللها فترات من الراحة . وقد استطعت من خلال اتباع هذا البرنامج بصرامة أن أحافظ على سلامة عقلي من العذابات المؤلمة . وباختصار ، فقد عدت الى تخطيط حياتي وممارستها بعناية فائقة .

وبواسطة هذا النهج تمكنت بسرعة من إعادة ذاتي المهنية الى وضعها الطبيعي ، وأصبحت قادراً على تقصي أسباب عذاباتي باهتمام شديد . بدأت أدون ملاحظاتي ووجدت نفسي أقترب من بيت الكاهن . وجاءني صوت هادىء من مكان ما ، مشيراً الى أن ردة فعلي تجاه ما حدث كان مبالغاً فيها ، وكانت أقرب الى الإذعان منها الى الغضب ، وأنني رغم كل شيء ، اعترفت بكوني مذنباً رغم انني لست كذلك ، وسعيت للعقاب حتى أنال الغفران والراحة بأسرع وقت ممكن . وتابع الصوت بازدراء ولطف : من سيغفر لك ؟ مصلحة الضرائب ؟ المحقق كارلسون بقميصه المورد وأظافره المتسخة ؟ من ؟ اعداؤك ؟ نقادك ؟ هل سيغفر الله لك ويمنحك الخلاص ؟ ماذا تعتقد ؟ هل سيصدر أولف بالمه والملك مرسوماً يعلنان فيه أنك قد عوقبت وطلبت الغفران ، فغفر لك ؟ (في وقت لاحق ، وأثناء زيارتي لباريس ، فتحت التلفزيون صدفة فوجدت أولف بالمه يؤكد للجميع ، وبلغة فرنسية ممتازة ، أن قصة الضرائب مبالغ فيها وانه صديق لي . في تلك اللحظة كرهته) .

وفجاة بدا الغضب المكتوم والمضغوط في داخلي ، يتحرك في ممرات اعماقي المظلمة . يجب الا" ابالغ ! بالنسبة للعالم الخارجي كنت شخصاً نزقاً باكياً ومثيراً للشفقة . حصلت على كل الرعاية والحنان المفترضين وصرت اشبه بطفل مدلل . ورغم نظامي الذاتي فقد كنت مشوشاً ومرتبكاً ، لا اعرف اليوم ما الذي سيأتي به الغد ، ولا أستطيع أن اخطط لاسبوع مقبل . كيف ستصبح حياتي ، وعملي في المسرح والسينما ؟ ماذا سيحدث لشركة سينما توغراف ، بؤبؤة عيني ؟ وماذا سيحل بالموظفين العاملين عندي ؟ في الليل ، عندما أعجز عن تركيز طاقتي للقراءة ، تهاجمني كتيبة كاملة من الشياطين ، وفي النهار أحس رغم النظام الظاهري بأن الفوضى تسودني مثل مدينة تتعرض للقصف .

في منتصف شهر آذار انتقلنا الى فارو ، حيث بدأ الصراع الطويل بين الشتاء والربيع .. إذ يأتي يوم مشمس ذو نسمات لطيفة ويليه يوم آخر عاصف تكاد فيه الريح تقتلع النوافذ واعمدة الكهرباء .

ومع ذلك فقد كان الجو هناك مهدئاً بالنسبة لي ، فعملت باجتهاد ، وكتبت الخطوط العريضة لفيلم (الغرفة المغلقة) . وشيئاً فشيئاً بدأت أشق طريقي في دروب غير مألوفة ، تجعلني أحس دائماً بالصمت وبأنني فقدت طريقي فعلاً . لقد كانت الكتابة جزءاً من نظامي اليومي .

وفي الليل كنت أتناول الفاليوم والموغادون عندما يتفاقم إحساسي بخطر الإبادة الداخلي . كان بوسعي التحكم بهذه الجرعات على الاقل لان توازني لا يزال غير مستقر .

كان انغريد على وشك السفر الى استوكهولم لقضاء أعمال مستعجلة ، وعرضت علي الذهاب معها ، لكنني لم ارغب بذلك ، فاقترحت أن يأتي أحد ليشاركني إقامتي اثناء غيابها ، لكنني رفضت هذا أيضاً .

أوصلتها الى المطار ، وفي الطريق بين فارو وبانغ ، شاهدنا سيارة شرطة ، وهو أمر غير مألوف أبداً في شمال غوتلاند . تملكني الرعب وظننت أنهم قادمون لإلقــاء القبض علي ، لكن انغريد أخبرتني بأني مخطىء . هدأت ، ثم ودعتها في مطار فيزبي . وعندما عدت الى المنزل ، كان الثلج يتساقط قليلاً . ولمحت آثار الأقدام ولعجلات سيارة أمام المنزل ، فاقتنعت تماماً بأن الشرطة كانت هنا تبحث عني . أوصدت الأبواب كلها ، وحشوت بندقيتي وتمركزت في المطبخ حيث يمكن مراقبة الشارع ومرآب السيارات . انتظـرت لساعات طويلــة . جف فمي وحنجرتي ، فشربت بعض المياه المعدنية وفكرت بهدوء ، ودون أمل ، أن هذه هي النهاية . أقبل غــروب آذار بصمت وحدة . لم تظهــر الشرطة . وبالتدرج أدركت انني كنت أتصرف مثل مجنون خطــير . فأفرغت البندقية وأعدتها الى مكانها وحضرت العشاء .

أصبحت الكتابة أكثر صعوبــة ، وزاد قلقي إذ انتشرت اشاعات بتهمة التهرب من الضرائب ، وهكــذا فالقضية برمتهــا ، مجرد شأن سخيف يتعلق بالضرائب .

انتظرنا ولم يحدث شيء . أقرأ كتاب (القدس) لسلما لاغرلوف ، أحاول بصعوبة الحفاظ على نظامي الخاص . يوم الأربعاء ٢٤ شباط كان غائماً وهادئاً . تفتت الثلج وتساقط عن السطوح . ومن غرفتي سمعت جرس الهاتف يرن وانغريد تجيب ، ثم ألقت بالسماعة وهرعت إلي ترتدي ثوبها اليومي الأزرق ، ثم وقفت وضربت بيدها اليمنى على فخذها وصاحت : « أسقطوا القضية » ! .

في البداية لم أشعر بشيء ، بعدها تملكني إحساس بإرهاق فظيع ، فحطمت نظامي الخاص وذهبت الى السرير واستغرقت في النوم لساعات عديدة ولم أشعر بمثل ذلك الدفء إلا مرة وحيدة ، عندما كنت مسافراً بطائرة ذات جناح واحد واشتعلت النيران فيها ، فاضطروا الى التحليق حول أوريسوند لمدة طويلة حتى نفد الوقود وهبطت الطائرة .

وعند المساء سمعنا طرقاً على الباب ، وكانت القادمة صديقة طيبة ما إن فتحنا لها حتى القت إلي بباقة أزهار وقالت إنها جاءت لتهنئني وتعبر لي عن مدى فرحتها .

كانت ليلة بلا نوم ، أيقظني فيها انفجار المشاريع والأعمال . وعندما لم تساعدني الاقراص المنومة والموسيقا وكتاب سلما والشوكولا والبسكويت ، غادرت الفراش وجلست الى مكتبي ، وكتبت الخطوط العريضة لفيلم (الأم والإبنة والأم) مع ملاحظة بأن انفريد برغمان وليف أولمان يجب أن تلعبا الدورين الأساسيين .

في ٣٠ آذار عدنا الى استوكهولم حيث كان بانتظاري كم لا بأس به من العمل . وبشيء من القلق الذي كان يصعب تحمله ، بدأت أعالج أموراً مستعجلة كان أولها متعلقاً بسيناريو (مكان الجنة) مع أولا إيزاكسون وغونيل ليندبلوم .

في ٢ نيسان ، قامت مصلحة الضرائب بشن هجوم مباغت علينا ، فاجتمعنا في الواحدة ظهراً مع المحامي رالف ماغريل ، وبصعوبة وبطء بدأت أفهم محتوى الرسالة التي بعثتها مصلحة الضرائب . فيما بعد كتبت مقالة في إحدى الصحف ، حول الموضوع نفسه ، جاء فيها :

في يوم الجمعة ، الموافق ٢ نيسان ، دُعي ممثلي القانوني رالف ماغريل للقاء موظفين من مصلحة الضرائب ، هما بنغت كولن وهانز سفنسن .

كانت الرسالة التي اراد هذان الموظفان نقلها إليّ باللغة التعقيد . ورغم محاولاته الصبورة فإنني لم أستوعب الأمر بكل تفاصيله من قبل ماغريل لكنني التقطت الفكرة الأساسية .

ومن أجل الوصول الى الإعلام ، قبل أن تفعل مصلحة الضرائب فعلها من خلال اتصالاتها الحميمة بوسائل الإعلام ، فإنني أرغب بإعلان ما يجول

ببال هذين الموظفين ، بعد أن توصلت الى خلاصات معينة فيما أصبح يسمى « مثلث برغمان » . وسأحاول الآن أن أصف باختصار مضمون رسالة سفنسن وكولن ، وأرجو أن يتحلى القارىء بالصبر ، فالقضية مثيرة للإهتمام .

لقد ادعيا بأن مصلحة الضرائب الحكومية غير راضية عن اخفاق مصلحة الضرائب المحلية في اعلانها السابق والذي تورط فيـه مدير المصلحة دالستراند ، من خلال دعوته الجديدة التي يقترح فيها ضرورة قيامي بدفع ضريبة تبلغ مليونين ونصف المليون كرونر عن عام ١٩٧٥ (من حصتي في شركتي السويسرية السابقة برسونا فيلم) . أما مصلحة الضرائب الحكوميـة فإنها ترغب بتغريمي المبلـغ نفسه عـن شركتي السويدية سينما توغراف لأنها تعتبر شركتي السويسرية «غير قانونية». ولم يكن يعنيها ابداً أن تدفع الضريبة مرتين على الدخل نفسه ، فقـد اخطأ دالستراند (أرجو انك لا تزال معي أيها القارىء) .

ومن ناحية اخرى لو انني ودالستراند وافقنا على دفع الضريبة كما ترغب مصلحة الضرائب الحكومية ، فإنها قد تكف عن مطالبتي بدفع ضريبة شركتي السويدية .

وببساطة اكثر ، فقد ارادوا من خـلال التهديدات والإبتزاز ان يدفعوني انا ودالستراند للإعتراف بأن مصلحة الضرائب الحكومية كانت محقة منذ البداية .

يسعدني ان ابلـغ بنغت كولن ، وهانز سفنسن من خلال هـذه الصحيفة ، انني ارفض أساليبهما والتورط في مثل هذه المتاجرة .

ومن الطبيعي الآن ان اتأمل جيداً بالأسباب الكامنة وراء التصرف المدهش الذي قامت به مصلحة الضرائب الحكومية .

فيما يلي بعض الشروحات. . فعندما أعلن المدعي العام نوردنادلر بأن القضية ضدي قد أسقطت ، احس بعضهم في مصلحة الضرائب الحكومية بأنه فقد ماء وجهه . فالمحقق كارلسون كان قد عمل مع معاونيه لمدة اشهر طويلة في هذه القضية ، ووصل به الأمر الى اقتيادي محجوزاً من المسرح الدرامي الملكي . وعندما توضح لاحقاً أن كل ما قام به كان مجرد عبث بشكل أو بآخر ، شعر بحاجة ملحة لأن يجد شيئاً ، يستطيع من خلاله ولو مؤقتاً أن يبطل السمعة السيئة التي لحقت بمصلحة الضرائب الحكومية سواء داخل البلاد أو خارجها . ربما كانوا يعتقدون ان خوفي من الدخول في تحد معهم ، سوف يجعلني أخضع لابتزازهم وبالتالي فإن مصلحة الضرائب الحكومية ستكون هي الرابحة في النهاية .

لكنني ارفض مثل هذه الألاعيب .

وفي الوقت نفسه فإنني أعترف برغبتي في ضم هذين الموظفين الى قلبي ، لأنهما بالحقيقة قد نجحا في أمر لم يتمكن منه الطبيب النفساني ، ولم اتمكن منه أنا أيضاً ، خلال فترة مرضي ..

ببساطة فقد تملكني غضب عنيف لأنني شفيت على الفور . إن الرعب والإحساس بالذل الذي يصعب استئصاله ، والذي عانيت منه أياما وليالي ، تبخر خلال ساعات قليلة ولم يترك أثرا . لقد أدركت أن خصومي يفتقدون النزاهة والموضوعية ، وليسوا سوى مجموعة من لاعبي البوكر الذي يبحثون عن النفوذ والسلطة .

لقد انتبهت الى هذا الأمر ، خصوصاً بعد ما القيت نظرة قريبة على المحقق كارلسون في مصلحة الضرائب ، والذي كان حاضراً أثناء الاستجواب الأول في قسم الشرطة ، ينصت باهتمام الى كل كلمة ، ويبدو عليه الارتعاش بسبب الإحساس بالنصر الوشيك . يجب علي أن اعترف بأنني ترددت قليلاً عندما قرر المدعي العام نوردنادلر إن يواجه

بشجاعة اخلاقية كل القوى المتسلطة التي ادانتني . (ولكنني قررت ان انسى الأمر برمته ، وان اعود الى نشاطاتي ، واسلم قضية الضرائب الى شخص خبير يتابعها . لقد كنت دائماً ــ وسأبقى ــ لا مبالياً تجاه المال والأشياء المادية . إنني لا اخشى فقدان ما أمتلك . لكنني كنت افكر بأنهم أساؤوا معاملتي ، ويجب علي أن اتجاوز الأمر واعود الى الواقع ، لأنه لا بد ان يسود العدل والأخلاق في النهاية) .

لكن كولن وسفنسن ، من خلال التهديد والابتزاز ، قاما بترسيخ افكاري حول جنون الاضطهاد . وفي الوقت نفسه فإن الأزمة الإبداعية الخانقة التي عانيت منها لأول مرة في حياتي ، انتهت تماماً .

وهكذا ، بالتعاون مع نفسي وأحد مساعدي المقربين ، توصلت الى مجموعة من القرارات ، وإلا فسوف تنشأ غابة كاملة من الاستغلال والإشاعات والتلميحات وستكبر ويصبح من الصعب السيطرة عليها .

كان قراري الأول هو : « بما أنني أطالب بنوع من الأمان حتى أستطيع تحقيق شيء على الصعيد المهني ، وبما ان هذا الأمان قد أحرم منه في يوم من الأيام ، فإنني مضطر للبحث عنه في مكان ما خارج هذه البلاد » . وكان واضحاً تماماً بالنسبة لي أن الأمر ينطوي على مجازفة كبيرة إذ أن ممارسة مهنتي ترتبط الى حد كبير ببيئتي ولغتي ، وقد لا أستطيع النجاح في هذه المجازفة وانا في الثامنة والخمسين . بالإضافة الى ذلك فإنني مضطر لأن اجازف بالمحاولة نفسها لأنه يجب وضع نهاية لإحساس انعدام الأمان الذي يصيبني بالشلل ، فلا أستطيع ان اعمل ، ومن دون عمل فإن حياتي تصبح بلا قيمة .

أما قراري الثاني فيتلخص في إبقاء كمية من دخلي في حساب مغلق بالبنك وتحت تصرف مصلحة الضرائب الحكومية في حال انني خسرت القضية . حتى لا يظن البعض بأنني هربت من البلاد كي لا ادفع

الضرائب . وسوف اقوم بتحويل اي مبلغ إذا لم يكن حساب البنك كافياً . لقد قررت الا اكون مديناً لوطني بسنت واحد .

قراري الثالث هو : « بما انني دفعت ما يزيد عن المليوني كرونر كضرائب خلال السنوات الماضية التي وظفت فيها عدداً كبيراً من الناس في أعمالي . واشعر بالقلق فيما يتعلق باتمام كافة الإجراءات بطريقة شريفة ، وافتقر في الوقت نفسه الى فهم الأرقام ، واخاف من المال ، فقد قررت ان أعهد بهذه المسائل إلى أشخاص خبراء ونزيهين » . لقد كانت فارو ملاذي الآمن الوحيد الذي اشعر فيه أنني متمدد في رحم لا تراودني فكرة مغادرته أبداً . لقد كنت اشتراكياً ديمقراطياً ، وقد اعتنقت بحماس مخلص ايدلوجية التسويات هذه . ولا ازال أعتقد بأن بلدي هو الأفضل في العالم ، ربما لأنني لم أر إلا القليل جداً من البلاد الأخرى .

وجاءت يقظتي كالصدمة بسبب الإذلال غير المحتمل ، ولأنني ادركت أن اي إنسان في هذه البلاد قد يتعرض للهجوم والإهانة بسبب هذه البيروقراطية التي تتفشى مثل سرطان سريع ، والتي قدم المجتمع لمن يمارسونها سلطات قوية ، ليست باي حال من الأحوال بين أيدي مؤهلة لها .

عندما جاء ممثلو مصلحة الضرائب الحكومية وعلى راسهم المحقق كنت كارلسون ، بشكل غير متوقع الى مكتب شركة سينما توغراف وطلبوا أن يدققوا حساباتنا ، وجدت طريقتهم في معالجة الأمور تافهة وكريهة ، وعرفت فيما بعد أن هذه هي الطريقة المتبعة ، وأن حساباتنا على ما يرام . عندئذ طلبوا الإطلاع على الإجراءات المتعلقة بشركة برسونا ، فقمنا دون أن نسألهم بوضع دفاتر الشركة تحت تصرفهم .

وبقلق شديد انتظرت أنا ومحامي اللقاء مع مدققي الحسابات من طرفهم .

لكن هذا اللقـــاء لم يتم .

لقد كان لدى المحقق كنت كارلسون ورجاله خطط أخرى ، يريدون من خلالها استعراض عضلاتهم أمام العالم بأسره ويفوزون لأنفسهم بمزيد من النقاط على طاولة البيروقراطية .

لكنهم لم ينجحوا معي . انقضت أشهر عديدة بين البدء بتدقيق الحسابات ، واليوم الذي جاؤوا فيه ليحذروني أنا ومحامي « من إتلاف اية وثيقة اثبات » . لو كان لدينا ما نخفيه فعلاً ، لقمنا باتلافه خلال الأشهر الماضية ، وهذه حقيقة يعرفها شرطي ريفي ساذج . ولو كان ضميري مثقلاً بالذنوب لكنت حولت نفسي الى سويدي مُبعد خلال هذه الفترة . وأخيراً لو أنني لم أكن مغرماً لحد الجنون بحب هذه البلاد ، وشريفاً لدرجة لا توصف ، لكانت ثروات طائلة تحت تصرفي خارج البلاد .

لكن شيئاً من هذه الأفكار لم يخطر ببال المحقق كارلسون أو المدعي العام دريفالدت . ضربة كارلسون غير المتوقعة كانت حقيقة ، وبعد أربع عشرة دقيقة من دفعي خارج المسرح اتصلوا من إحدى الصحف بالرجل الذي يقود العملية واستفسروا عن هذا الفصل المثير .

وما لبث أن اخفق استعراض العضلات المنظم وتحول الى حرب خنادق عادية ، استخدمت فيها أسلحة التهديد والإبتزاز ، وقد خشيت أن تستمر هذه الاستراتيجية لزمن طويل .

فانا لا أملك الأفكار والأعصاب لمواجهة هذه الحروب ، ولا وقت عندي لهـــا .

لذلك قررت الرحيل . كنت سأغادر البلاد لأحضر لفيلمي الأول خارجها ، وسيكون ناطقاً بلغة اجنبية دون أن اجد سبباً يجعلني اندم على قراري .

لقد اخبرني البعض بضرورة مهاجمة صحيفة آفتون بلادت لطريقتها في نشر القضية ، لكنني قلت إن الأمر غير مجد ، وإن الصحيفة المتفوقة بالتملق والدس ، بالإهانات المعلنة والحقائق المشبوهة ، مثل صحيفة آفتون بلادت ، ليست سوى بالوعة مفيدة للمجتمع . وكنت أستغرب دائماً أن هذه البالوعة هي منبر الاشتراكيين الديمقراطيين ، ورغم انهياراتها المتلاحقة لا يزال يعمل فيها عدد من الناس المحترمين واللطيفين .

كذلك أخبرني البعض الآخر بضرورة المطالبة بتعويض من قبل المدعي العام درايفالدت للأضرار التي لحقت بي (أجري عن مسرحيتين : تسعين الف كرونر ــ إلغاء مشروع الفيلم : ثلاثة ملايين كرونر ، الضرر النفسي : قطعة كرونا واحدة ، الشرف المهان : قطعة كرونا واحدة ، وهكذا يصبح المجموعة ثلاثة ملايين وتسعين الف وكرونتين) .

لكنني وجدت هذا غير مجد وقريباً من عمل الهواة . يجب أن يفهم المرء ، فالقضية برمتها تحمل طابعاً سويدياً بحتاً ، وربما أكتب مسرحية هزلية عنها يوماً ما . وأقول هنا ، كما كان ستريندبرغ يقول كلما غضب : « احذروا أيها الأوغاد ، فسوف نلتقي ثانية في المسرحية القادمة » .

قرأ بورن نلسون من صحيفة اكسبريس المقالة التي كتبتها . وذهبت أنا برفقة انغريد الى ليسوفورس لزيارة شقيقتها ، وفي طريق عودتنا الى استوكهولم ، مررنا بفارموس الصامتة والكامنة تحت ضياء شتوي باهت ، نهرها أسود وتلالها مغطاة بالضباب ، ثم اجتزنا شتوراتونا حيث دفنت والدة انغريد ، وتوقفنا لساعة أو أكثر في أوبسالا حيث شاهدت انغريد بيت جدتي في ترادغاردستجاتن . وهناك وقفنا على ضفة نهر فايريس الغزير .. كان في الأمر حزن ووداع .

بعد ذلك ذهبنا الى فارو حيث امضينا بضعة أيام فيها كانت مؤلمة ولكن ضرورية . كان لارس ــ أو كارلبرغ وكاتنكا فارباغو قــد وعداني بأنهما سيحافظان على شركة سينماتوغراف بأفضل حالة ممكنة . وفي يوم جمعة رائق كتبت المقالة ثم أعدت كتابتها مرتين ، وانا اتساءل عن سبب خوضي في كل هذه المتاعب ، لكن الغضب الذي جعلني استمر خلال هذه الأسابيع قد انتج الأدرنالين المطلوب .

في ٢٠ نيسان سافرت انغريــد وشقيقتها الى باريس ، أمــا انا فأمضيت الامسية مع صديقي وطبيبي شتور هلاندر . لقد تعرف واحدنا الى الآخر في عام ١٩٥٥ حيث أحضروني وانا اتشنج واتقيأ الى عيادته في مستشفى كارولينسكا ، وكان وزني آنذاك لا يزيد عن الستة والخمسين كيلو ، حتى انهم شكوا بوجود سرطان في معدتي . ومع اننا كنا مختلفين الا اننا اصبحنا صديقين حميمين ، ولا تزال صداقتنــا تعني الكثير بالنسبة لكلينا .

يوم الأربعاء ٢١ نيسان ، وفي الساعة الرابعة والخمسين دقيقة أقلعت بي الطائرة الى باريس ، وبدأت احكي قصصا لفتاة صغيرة كانت تجلس بجانبي .

والذي حدث لاحقا كان مثيرا للاهتمام بمضونه . فقد نشرت الاكسبريس مقالتي في اليوم الذي تلا سفري مباشرة ، واثارت المقالة ضجة كبيرة حتى ان وسائل الاعلام احاطت بفندقي في باريس ، وكاد احد المصورين أن يقتل نفسه وهو يلاحق بدراجته النارية سيارتنا المتجهة الى السفارة السويدية . لكني كنت قد وعدت دينو دي لاورينتس بالتزام الصمت تماما قبل أن نعقد مؤتمرنا الصحفي في هوليوود خلال الأيام القادمة .

أدركت أننا ربحنا الجولة الثانية ، لكنني تساءلت فيما اذا كان الثمن غاليــا لذلك .

فكرت انا وأنفريد بالاستقرار في باريس بعد أن عدنا اليها من هوليوود ، وكنا سنقضي الصيف في لوس انجلوس بعد أن تأجلت التحضيرات لفيلم (بيضة الثعبان) . كان الطقس حارا في باريس وكانت مكيفات فندقنا الأنيق تهدر وتيار الهواء البارد يندفع منها . كنا غير قادرين على الحركة ، فجلسنا عاريين أمام التيار البارد وأخذنا نشرب الشمبانيا ، في حين انفجرت قنبلتان في الشارع المجاور ودمرت بعض المكاتب التابعة لألمانيا الغربية .

ازدادت حرارة الطقس ، فطرنا الى كوبنهاغن حيث استأجرنا سيارة وقمنا بجولة في الريف الدانماركي . وذات مساء استأجرنا طائرة خاصة وطرنا الى فيسبي ، ووصلنا الى فارو في وقت متأخر . كانت أزهار الليلك متفتحة عند البيت القديم في دامبا ، فجلسنا على عتبة البيت حتى الفجر وقد غلفنا شذى الليلك ، ثم طرنا عائدين الى كوبنهاغن .

كنت قد اتفقت مع دينو دي لاورنيتس على تصوير الفيلم في المانيا حيث تدور الأحداث في برلين العشرينيات . سافرت الى برلين لاستطلاع مواقع التصوير ولم أجد شيئا سوى مكان قريب من الجدار يدعى كروز بورغ ، وهو أشبه بمدينة مهجورة لم يصلح فيها شيء منذ الحرب ، وكانت واجهات المباني مثقبة من القنابل والرصاص ، وقد أزيلت خرائب الأبنية المدمرة وبقيت مكانها مساحات خالية . وكانت الكتابات فوق المحلات التجارية مكتوبة بلغة غريبة ، ولم يكن الماني واحد يعيش في هذا الجزء من المدينة الذي كان فيما مضى عاصمة أبية . كان يقطن المكان عائلات مهاجرين أجانب . الأبنية التي يمكن السكن فيها تكتظ بالناس ، والأطفال يلعبون في الساحات ، ورائحة القمامة تملأ المكان ، والشوارع مرقعة وغير صالحة .

انني واثق من أن هناك سلطات معنية تشرف على هذا التورم السرطاني في هذا المكان من برلين الغربية . أما الالمان أنفسهم ، بوعيهم

الذي يخفي بصعوبة كراهيتهم العرقية، فانهم يقولون عن هؤلاء المهاجرين: « على كل حال هذا المكان بالنسبة لهؤلاء الأوغاد أفضل بكثير من كل الأمكنة التي جاؤوا منها » . لم أشاهد في حياتي قط مثل هذا البؤس المادي والروحي . الألمان لا يرونه ، أو ربما يرونه ويقولون يجب أن ينتقل هؤلاء الى المخيمات . لكن هنالك فكرة بسيطة وساخرة وراء كروزبورغ ، مفادها انه لو هاجم العدو من الطرف الآخر للسور فسوف نسد عليه الطريق بواسطة حواجز من الأجساد غير الالمانية .

كانت استوديوهات بافاريا في ميونخ عبارة عن مؤسسة راقية يعمل فيها أربعة آلاف شخص وتضم اثني عشر استوديو للتصوير . وكانت مدينة ميونخ تضم دارين للأوبرا ، واثنين وثلاثين مسرحا ، وثلاث فرق سيمفونية وعددا لا يحصى من المتاحف والحدائق الضخمة والشوارع النظيفة المكتظة بالمحلات التي تعرض واجهاتها الزجاجية رفاهيات معقدة يصعب وجودها في المدن الأوروبية الكبيرة الأخرى . وكان الناس ودودين ومضيافين ، فقررنا ان نبقى في ميونخ خصوصا بعد أن دعيت لاخراج (لعبة حلم) على مسرح الرزدنس ، وهو المسرح البافاري الموازي لمسرح الدراما الملكي في استوكهولم .

تلقيت جائزة فخرية ، وهي جائزة غوته ، التي ستمنح إلي في فرانكفورت ، الخريف المقبل . وبعد أن بحثنا عن شقة مناسبة وجدنا واحدة مضاءة وفسيحة في بناء عالي وبشع ، نستطيع ان نشاهد من خلال شرفتها جبال الالب وميونيخ القديمة وابراج الكنائس .

وبما ان الشقة ستكون جاهزة في ايلول فقد عدنا لقضاء الصيف في لوس انجلوس ، التي ضربتها في ذلك الصيف تحديدا موجة حر القرن . وصلنا اليها بعد يومين من منتصف الصيف ، وجلسنا نشاهد التلفزيون في الغرفة المكيفة الشبيهة بالقبر . حاولنا الخروج مساءً الى سينما قريبة ، لكن الحرارة سقطت علينا مثل جدار اسمنتي .

في الصباح التالي اتصلت بي بربارا سترابنزند واقترحت علينا أن نحضر ملابس السباحة ونذهب اليها للمشاركة بحفلة تقيمها حول حوض السباحة في بيتها . شكرتها ، ثم وضعت السماعة والتفت الى انغريد وقلت لها : « هيا نعود الى بيتنا في فارو ونمضي الصيف هناك » .

بعد بضع ساعات كنا في طريقنا الى السويد .

وصلنا استوكهولم عند المساء ، فاتصلت انغريد بوالدها الذي كان يحتفي بأقربائه وأصدقائه في مزرعته قرب نورتالي ، وعندما علم بحضورنا اصر على انضمامنا اليهم فوراً .

كانت الساعة العاشرة والنصف ، وكان المساء لطيفاً وعطراً ،وأقبلت الليالي السويدية البيضاء .

وفي الصباح كنت مستلقياً على سرير ابيض في غرفة تفوح منها رائحة الأرضية الخشبية المنظفة حديثاً ، وكانت توجد شجرة بتولا عالية في الخارج ، تتراقص ظلال اغصانها وترسم اشكالاً على ستائر النافذة ذات الالوان المشرقة .

انتهت الرحلة الطويلة ، وكانت كارثة حياتي مجرد حلم تراءى لشخص آخر غيري .

وبهدوء ، تحدثت مع انغريد حول حياتنا الجديدة المقبلة . كنا ندرك تماماً أنها سوف تكون صعبة .

قلت لها : « اما أن أموت ، أو أن الحياة سوف تحثني على المواجهة بشكل جهنمي .. » .

- ٩ -

كان يوم أحد ذلك الذي بقيت خلاله وحيداً في بيت الكاهن ، أعالج بعض مسائل الرياضيات المستعصية ، وكنت قد بلغت الثالثة عشرة . دقت اجراس كنيسة انغلبركت تدعو الى جناز ، وكان شقيقـي في السينما ، وشقيقتي في المستشفى تعاني من التهاب الزائدة الدودية ، اما والدي والمشرفات على البيت ، فقد ذهبوا جميعاً الى كنيسة صغيرة للاحتفال بذكرى الملكة صوفيا ، مؤسسة المستشفى . تأملت اشـعة الشمس الربيعية وهي تتوهج على سطح طاولتي ، ثم شاهدت الممرضات المسنات يمضين على الجانب المظلل بالاشجار .كان ممنوعاً علي الذهاب للسينما لأنني كنت في غوتر دامرنج الليـلة الفائتة . شعرت بالملـل والتشويش ، فرسمت امرأة عارية على دفتر الوظائف . لقد كنت دائماً رساماً ميئوساً منه . كان صدر المرأة العارية ضخماً للغاية ، واعضاؤها التناسلية مبالغاً منها .

كنت أعرف القليل جداً عن النساء ، ولا شيء ابداً عن الجنس . وكان شقيقي يشير بتلميحات فاضحة بين الحين والآخر ، اما والدتي والمدرسون فلم يشيروا الى الموضوع بشيء . وكان يمكن مشاهد امرأة عارية في المتحف الوطني أو في كتب تاريخ الفن . وفي الصيف كانـت تسنح فرصة للمح صدر عار أو مؤخرة ، ولم يكن افتقاد المعلومات حول هذه الامور يمثل مشكلة بالنسبة لي . كنت أتجنب الاغراءات ولم يكن الفضول يعذبني .

ثمة حادثة تافهة لكنها تركت انطباعاً محدداً .. كانت لدى العائلة صديقة ارملة في منتصف العمر ، ذات أصل فنلندي سويدي ، ترعـى

بعض شؤون الكنيسة ، وتدعى آلا بتروس . اضطرت ذات مرة لقضاء بضعة أسابيع في منزلها ، بسبب مرض معدٍ انتشر لفترة في بيت الكاهن. كانت تسكن في شقة ضخمة بستراند فاغن ، تطل على النهر حيث تطفو اعداد هائلة من الاشجار المقطوعة . وكان ضجيج الشارع لايصل أبداً إلى غرفة الشقة الهادئة والمشمسة ، والمكتظة بقطع تزيينية حديثة مثيرة للاهتمام .

وبالطبع لم تكن آلا بتروس جميلة . كانت تضع نظارة سميكة وتمشي مثل الرجال ، وعندما تضحك — وهي تضحك كثيراً — يظهر لعاب ابيض في زاويتي فمها . كانت ترتدي ثياباً أنيقة وقبعات كبيرة يجب نزعها في السينما ، وكانت لها عينان بنيتان دافئتان ، ويدان ناعمتان ، وقد انتشرت في مناطق مختلفة من جسمها وصمات ذات أشكال متنوعة ، وكانت تفوح منها رائحة عطر غرائبي . وكان صوتها عميقاً ، يكاد يكون رجولياً . كنت سعيداً للغاية باقامتي معها ، خصوصاً وأن المسافة إلى المدرسة باتت قصيرة . وكان يسكن معنا أيضا الخادمة والطباخة ، وكلاهما تتحدثان الفنلندية ، وتداعباني وتقرصاني من وجنتي ومؤخرتي.

ذات مساء دخلت الحمام لاستحم ، ووجدت الخادمة قد أعدت لي مغطساً من الماء الساخن المعطر ، فاستلقيت فيه بمتعة كبيرة . دقت آلا بتروس الباب وسألتني اذا كنت نائماً أم لا ، لكنني لم أجب ، ففتحت الباب ودخلت مرتدية روب الحمام الاخضر الذي مالبثت أن نزعته عنها .

اخبرتني بانها سوف تفرك لي ظهري ، فاستدرت واستلقيت على بطني ، في حين ولجت هي الى مغطس الماء بجانبي ، وبدأت تفرك ظهري بفرشاة قاسية ثم دلكته بيديها الناعمتين . وبعد ذلك امسكتني من يدي ودفعت بها بين فخذيها . أحسست بنبض عنقي يتسارع وهي تدفع بأصابعي في عمق عورتها وتضغط بيدها الاخرى على قضيبي الذي كانت له ردة فعل قوية ومدهشة فافرز سائلاً أبيض . كل هذا كان ممتعاً ومخيفاً الى اقصى الحدود .

كنت عندئذ في الثامنة ، أو ربما في التاسعة من عمري . وعندما كنا نلتقي انا والعمة آلا في بيت الكاهن كنا نتبادل النظرات خفية وأراها تبتسم باستخفاف . لقد كان بيننا سر مشترك .

بعد خمس سنوات تلاشت هذه الذكرى وتحولت لاحقاً الى طقس مؤلم وممتع ، فيه احساس مخفي بالذنب ، طقس يتكرر باستمرار ويدور بقسوة مثل انشوطة آلة العرض السينمائي ، طقس يدفعني اليه شيطان يكرهني ويتمنى لي العذاب والألم .

وهكذا رسمت امرأة عارية على دفتر وظائفي الأزرق . وشعرت بالدفء وأنا أتابع ممرضات مستشفى ضولهمت يتمشين في الخارج . بدأت افرك بين فخذي بقوة ، ثم أرخيت سروالي وجعلت مثقبي الأزرق المائل للحمرة ينتصب حراً وكبيراً ، وتابعت فركه بحذر ، وكانت عملية ممتعة على نحو مثير للخوف . وفي الوقت نفسه تابعت الرسم ، فرسمت امرأة عارية أخرى ، أكثر جرأة من الاولى ، ورسمت مثقباً خاصاً بها ، ثم ختمت ثغرة بين فخذي المرأة ، وقطعت المثقب ، ودفعته الى داخلها .

وفجأة شعرت بأن جسدي على وشك الانفجار ، وان شيئاً ما لايمكن السيطرة عليه في طريقه خارج جسدي ، فاندفعت الى الحمام في الطرف الاخر في القاعة وأقفلت بابه خلفي . لقد انقلبت المتعة الى ألم جسدي ، أما عضوي اللطيف والصغير والذي كنت انظر إليه باهتمام عادي فيما مضى ، فقد تحول الآن الى شيطان خافق يقذف احاسيس ألم عنيف تجاه معدتي وفخذي . لم أدر كيف أواجه هذا العدو المخيف ، فأحكمت عليه يدي ، لكن انفجاراته توالت ، وأصابني الرعب عندما وجدت سائلاً أبيض مجهولاً يتدفق على يدي وسروالي وعلى مقعد الحمام وستائر النافذة والجدران والحصيرة . لقد تلوثت وكل شيء حولي بهذا الخارج من جسدي . لم أعرف شيئاً ، ولم أفهم شيئاً ولم تصادفني من قبل أحلام مبللة . حدث كل شيء وانتهى بالسرعة نفسها .

لقد هاجمتني احوالي الجنسية مثل قصف الرعد ، وجاءت غامضة وعدوانية ومعذبة . ما زلت لا أعرف كيف حدث هذا التغير العويص في جسدي ؟ ولماذا حدث دون انذار مسبق ؟ ولماذا كان مؤلماً ، ومنذ اللحظات الاولى يرافقه احساس بالذنب . واذا كان الخوف من الجنس يتسلل إلينا نحن الأطفال عبر جلدنا ، فقد كان في غرف نومنا أشبه بغاز سام غير مرئي . لم يخبرنا أحد بالامر ، ولم يحذرنا أحد منه .

لقد ابتلاني هذا الهاجس دون شفقة ، وأخذ الفعل يتكرر معي باستمرار وبشكل اجباري .

كان يجب أن أعرف ، فسألت شقيقي فيما اذا كان قد مر بتجربة مشابهة ، فابتسم بمودة وأخبرني أنه سبق وعاش حياة جنسية صاخبة مع معلمة اللغة الالمانية عندما كان في السابعة عشرة . لم يرغب بسماع بذاءاتي ونصحني لمزيد من المعلومات أن اقرأ حول العادة السرية في قاموس الأسرة الطبي . وهكذا فعلت .

في القاموس كان الأمر مشروحا بلغة واضحة . فالعادة السرية هي ايذاء للنفس ورذيلة يقترفها الشباب يجب مقاومتها بشتى الوسائل الممكنة . وهذه العادة تصيب بالشحوب والتعرق والارتعاش ، وتشكل هالات سوداء حول العينين وتحدث اختلالا بالتوازن وتفقد القدرة على التركيز ، وفي حالات أخرى ، فانها قد تضرب الدماغ والحبل الشوكي وتؤدي الى الاصابة بداء الصرع والموت المبكر . أمام أبعاد المستقبل هذه، تابعت ممارسة العادة السرية برعب ومتعة . لم أجد شخصا واحدا أستطيع التحدث اليه ، فبقيت أنا الحارس على نفسي ، وكتمت هذا السر الرهيب .

استنجدت بالمسيح في لحظات اليأس وحاولت التخلص من لعنتي بممارسة التمارين الروحية وتأدية الصلوات . وفي الليلة التي سبقت طقس المشاركة الاولى، حاولت مقاومة شيطاني بكل ما أوتي لي من قوة ،

فصارعته طويلا لكنني خسرت المعركة ، وعاقبني المسيح على ذلك بظهور بثرة كبيرة الحجم في منتصف جبهتي الشاحبة . وعندما جلست لأستمع الى مواعظ الصلاة ، تقلصت معدتي وكدت اتقيأ .

واليوم يبدو كل هذا مضحكا ، لكنه في ذلك الوقت كان واقعا مؤلما . لقد كبر ذلك الجدار الفاصل بين حياتي الحقيقية وحياتي السرية وأصبح لا يمكن ارتقاؤه ، وتحول الكذب الى حاجة ملحة ، وأصيب عالم تخيلاتي بأضرار تطلب اصلاحها سنوات عديدة ومساعدة بعض الأشخاص الطيبين . لقد اشتد عليّ احساسي بالعزلة حتى شعرت بأنني سوف أجن ، ثم وجدت عزاء في نبرة سترندبرغ المازحة والفوضوية عندما قرأت مجموعته القصصية (الزواج) . ولكن يا للجحيم ؟ كيف بامكاني أن أحصل على امرأة ؟ اية امرأة ؟! كان الجميع يتدبرون أمورهم ما عداي . أنا الذي كنت أمارس العادة السرية ، أنا الشاحب ، المتعرق، صاحب الهالات الزرقاء حول العينين ، الضعيف القدرة على التركيز .

الى جانب هذا كله ، كنت نحيلا ، منكس الرأس ، سريع الغضب ، البادىء بالشجار والصراخ ، سيء العلامات بالمدرسة ومتورم الاذنين من العقاب .

لقد كانت السينما والمسرح هما ملاذيّ الوحيدين .

ذلك الصيف ، لم نذهب الى فاروموس كالمعتاد وبقينا في البناء الاصفر بجزيرة سمادالارو ، وقد جاء هذا القرار نتيجة صراع عنيف ومرير ساد في بيت الكاهن لفترة طويلة . فوالدي كان يكره فاروموس ولا يطيق جدتي ولا حرارة ذلك الجزء الداخلي من البلاد . اما والدتي فكانت تشمئز من البحر والأرخبيل والهواء البحري الذي يسبب لها آلاما في الكتفين . لكنها فيما بعد ، ولسبب ما مجهول ، تخلت عن موقفها من الذهاب الى فاروموس وأصبحت سمادالارو منتجعنا الصيفي الريفي لسنوات عديدة مقبلة .

كان الأرخبيل بالنسبة لي مصدر وحي مذهل ، يزوره كل صيف عدد من الزوار مع أولاد من جيلي نفسه ، وكان هؤلاء الأولاد مغامرين وجميلين ووقحين، أما انا فكنت منقط الوجه، غير لائق الثياب ، متلعثماً، اضحك بصوت مرتفع دون سبب ، وكنت شخصا ميئوسا منه في كل انواع الرياضة ، لا أجرؤ على الغطس واحب التحدث عن نيتشه ، وهي موهبة اجتماعية عديمة القيمة على ذلك الشاطىء الحجري حيث كنا نسبح .

كنت اجلس في غرفتي العلوية الخانقة ، اراقب اثداء الفتيات واوراكهن ومؤخراتهن، اسمع ضحكاتهن الفرحة تتردد عالياً، فاكرههن.

كانت حفلات الرقص تقام مساء كل سبت في مخزن حبوب بالقرية، وكان كل شيء فيها تماما كما وصفه سترندبرغ في مسرحية (الآنسة جولي) : اضواء الليل ، الجو المثير ، العطور الثقيلة ، الليلك ، صوت الكمان المحتج ، الرفض والقبول ، الألعاب والقسوة . وبسبب التقص في عدد الراقصين الشباب كانت الفتيات يضطررن للرقص معي ولم أكن اجرؤ على لمسهن ، بالاضافة الى أنني كنت أرقص بشكل سيء للغاية ، فسرعان ما تم استبعادي فشعرت بالغيظ والغضب والحزن والسخافة والخوف والتراجع . انه سن البلوغ ، بأسلوب بورجوازي ، في صيف عام ١٩٣٢ .

كنت اقرأ باستمرار ، دون فهم في أغلب الاحيان ، الا أنني كنت ألتقط بحساسية نبرة الخطاب : دوستويفسكي ، تولستوي ، بلزاك ، ديفو ، سويفت ، فلوبير ، نيتشه ، وبالطبع سترندبرغ .

لم اعد أملك اية كلمات . بدأت اتلعثم واقضم أظافري . كان كرهي لنفسي وحياتي يعقداني . كنت أسير وجسدي مدفوع للإمام ورأسي يسبقني ، وكل هذا بسبب التأنيب المستمر . الأمر الغريب أنني لم اتساءل قط عن سبب حياتي البائسة هذه . كنت اعتقد انها هكذا يجب أن تكون .

كنت أنا وآنا ليندبرغ في سن واحدة ، ندرس في الصف التاسع ، الذي يمثل المرحلة الاخيرة قبل الثانوية ، بمدرسة خاصة تدعى بالمغرينسكا سامسكولا ، وتقع على الناصية بين شارعي سكيبرغاتن وكوموندور غاتن . وكان طلابها البالغ عددهم ثلاثمائة وخمسين طالبا يتمتعون بشروط لطيفة وصارمة في آن واحد ، أما المعلمون فكان يفترض انهم يقدمون مستوى تعليمياً وثقافيا أرفع بكثير مما يمارس في المدارس العامة . لكن الحقيقة ليست كذلك ، فمعظمهم كان يعمل في الوقت نفسه في مدرسة أوسترمالم التي تبعد عن مدرستنا خمس دقائق سيرا على الأقدام .

وفي كلا المدرستين كان يدرّس المنهاج السخيف نفسه ، والفرق الرئيسي بينهما هو الاختلاف في رسوم الفصول الدراسية ، التي كانت عالية بشكل ملحوظ في بالمغرينسكا ، بالاضافة الى كون مدرستنا مختلطة ، وكان صفنا يضم واحداً وعشرين طالباً وثماني فتيات ، بمن فيهن آنا .

وكان الطلاب يجلسون على مقاعد مزدوجة من الطراز القديم ، في حين يشغل الأستاذ مع طاولته احدى الزوايا مقابلنا . كانت السماء تمطر باستمرار خارج نوافذ الصف الثلاث ، ويسود الصف في الداخل ضياء شفق مبكر ممزوج بضوء ستة مصابيح كهربائية . وكانت تتخلل جدران الصف وموجوداته روائح الأحذية المبتلة والملابس الداخلية غير النظيفة والعرق والبول . وكان الصف عبارة عن منمنمة تعكس مجتمع ما قبل الحرب بما فيه من الكسل واللامبالاة والانتهازية والتنمرد مع ومضات مشوشة من الثورة والمثالية والفضول . وكان العقاب مثلا يحتذى به ، يؤثر مدى الحياة بمن يوقع به . مناهج التعليم كانت تقوم على مفاهيم العقاب والمكافأة والاحساس بالضمير المذنب ، وكان معظم الأساتذة اشتراكيين وطنيين ، نصيرين للنازية ، بعضهم بسبب حماقته، أو رغبته بالحصول على مرتبة اكاديمية متقدمة ، والبعض الآخر بسبب مثاليتهم وتوقيرهم لألمانيا القديمة « أمة الشعراء والمفكرين » .

وبالطبع كانت توجد استثناءات : فقد كان قسم من الطلاب والمدرسين يتعذر كبحه ، وهؤلاء كانوا يشرعون الأبواب ويدعون الهواء والنور يدخلان . لكنهم كانوا قلة . اما مدير المدرسة فكان رجلا متملقا ، مجنون سلطة ، وعضوا بارزا في مجتمع الارسالية ، يحب اقامة صلوات الصباح التي تتالف دائما من مناحات عاطفية حول اسف المسيح لو أنه جاء لزيارة مدرسة بالمفرينسكا في هذا الصباح بالذات ، بالاضافة الى مواعظه حول السياسة والمرور والداء المنتشر لثقافة الجاز .

الواجباب المنزلية المهملة ، الخداع ، الغش ، العقوق ، الغضب المكبوت ، الأجساد النتنة .. كل هذا كان يشكل النظام اليومي الموحش للمدرسة . الفتيات يتجمعن ويحكن المؤامرات بهمس وقهقهة ، والفتيان يصيحون بأصوات كسيرة ، يتشاجرون ، يركلون الكرة ، يعدون لسرقة ما ، ويهملون وجباتهم .

كنت اجلس في وسط الصف تماما ، وعلى الخط الافقي نفسه ، الى جانب النافذة ، كانت تجلس آنا . أعتقد انها بشعة ، الجميع يعتقد كذلك . كانت طويلة وسمينة ذات كتفين مستديرين ووقفة سيئة وصدر ضخم ووركين كبيرين ومؤخرة بارزة ، وكان شعرها قصيرا ، أما عيناها فمنحرفتان ، احداهما زرقاء والأخرى بنية . عظام خديها ناتئة ، وشفتاها منتفختان . وكان ثمة ندب يمتد من حاجبها الأيمن حتى قمة جبينها ، يحمر لونه كلما بكت أو غضبت . كانت تفوح منها رائحة صابون الأطفال ، وترتدي تنورة بنية غير مناسبة وقميصا حريريا أزرق، وكانت فتاة ذكية ولطيفة ، تدور اشاعات حول والدها بأنه قد هرب مع شخص مخنث ، وحول والدتها بانها تعاشر بائعا متجولا أحمر الشعر يسيء معاملة كل من الأم وابنتها ، كما قيل انها لم تدفع حتى الآن كامل رسوم المدرسة .

كنا دخيلين : أنا غريب الطباع ، وآنا بشعة . لكن أحداً من طلاب الصف لم يزعجنا أو يضطهدنا .

في أحد الأيام التقينا صدفة في سينما كارلا ، واتضح أن كلانا يحب السينما ويتردد عليها باستمرار . وكانت آنا ــ عكسي تماما ــ تملك مبلغا كبيرا من المال تنفق منه ، لذلك تركتها تدفع عني . وشيئا فشيئا بدأت ارافقها ، وأعود بها الى منزلها ، وكان شقة واسعة رثة في بناء يطل على شارع نيبرو غاتن .

كانت غرفتها معتمة مستطيلة الشكل ، تحوي أثاثا متناسقا وفيها سجادة ممزقة وموقد آجري ، بالاضافة الى طاولة مكتب بيضاء ورثتها عن جدتها لأمها ، وكان سريرها عبارة عن نوع من الكنبات التي تتحول الى سرير . أما أمها فكانت ودودة معي ولكن دون حرارة زائدة ، وكانت تشابه ابنتها من حيث شكلهما الخارجي بخلاف فمها القاسي وجلدها المصفر وشعرها الرمادي . ولم يكن في البيت أي أثر للبائع ذي الشعر الأحمر .

بدأنا انا وآنا ننجز واجباتنا المدرسية سويا ، وكنت قد قدمتها الى عائلتي في بيت الكاهن فقبلوا بها ، ربما لأنهم كانوا يرونها قبيحة ولن تشكل خطرا على شرفي ، فكانت تتردد على البيت تتناول العشاء معنا في امسيات الآحاد ، يتفحصها شقيقي بنظرات مهينة وساخرة ، وتجيب هي على كل التساؤلات بسرعة وصراحة ، وتساعدنا أثناء عرض مسرح العرائس ، وقد أدت طيبة آنا الصريحة الى تخفيف حدة التوتر بيني وبين أفراد عائلتي .

لكنهم لم يكونوا يعرفون بأن والدة آنا كانت نادرا ما توجد في البيت مساء ، وأن نشاطاتنا الدراسية مالبثت ان تحولت الى تمارين عنيدة ومشوشة على السرير الذي يصرصر بعنف .

كنا وحيدين ، متعطشين ، فضوليين وجاهلين تماماً . أبدت عذرية آنا مقاومة ، وزاد الأمر صعوبة السرير ذي الأرجوحة الشبكية . لم نجرؤ على نزع ثيابنا ، وكنا نمارس نشاطنا بكامل ثيابنا ماعدا جوارب

آنا القطنية الطويلة ، وكنت أقذف في مكان ما عند معدتها . كانت آنا جريئة وذكية واقترحت ذات مرة أن نستلقي على الارض قرب الموقد ، كما شاهدت في أحد الافلام . أضرمنا النار في الموقد ومزقنا بعض الثياب التي تقيدنا فصرخت آنا وضحكت ، أما أنا فغطست الى الامام بطريقة غريبة ، فتقلصت آنا وتألمت لكنها بقيت متشبثة بي ، فحاولت أن اخلص نفسي . طوقت ظهري بساقيها ووجدت نفسي اغوص اكثر فأكثر . بكت فجأة وابتل وجهها بالدموع ، ثم قبلتني وهمست : « أنا حامل الآن ، استطيع أن أشعر بذلك » ، ثم اخذت تبكي وتضحك في آن واحد ، أما انا فتجمدت من الرعب ، وحاولت أن اهدئها لتذهب وتنظف نفسها والحصيرة على الفور ، بعد أن لوثتنا بقع الدم .

في هذه اللحظة ُفتح باب الصالة ودخلت والدة آنا . كانت آنا جالسة على الارض تدفع بثدييها الضخمين داخل الصدرية ، أما انا فحاولت اخفاء البقع بقميصي .

صفعتني السيدة ليندبرغ على وجهي ، وامسكتني من اذني وجرتني مرتين حول الغرفة ثم توقفت وهوت بقبضتها على اذني ، ثم قالت لي بابتسامة مهددة بأن بوسعنا أن نفعل مانشاء دون أن تحمل آنا ، وتتورط هي في هذه القصة . بعد ذلك استدارت وخرجت من الغرفة واغلقت الباب وراءها بعنف .

لم اكن احب آنا ، فالحب لم يكن موجوداً في المكان الذي اعيش واتنفس فيه . لقد نسيت طعم الحب الذي عرفته وفيراً في طفولتي ، فلم أعد أشعر بالحب تجاه اي انسان أو اي شيء ، الا تجاه نفسي فقط . اما مشاعر آنا فكانت مختلفة ، اذا أصبح لديها انسان تتعلق به ، تقبله وتلهو معه ، انسان مشاكس ، حيوي ، سخيف ، يتحدث باستمرار ، احيانا بشكل مثير للدهشة ، واحيانا اخرى ببلادة وطفولية حتى ليصعب تصديق انه في الرابعة عشرة . انسان يرفض السير معها في

الشارع أحيانا لانها سمينة جدا وهو هزيل جدا ، وسيبدو منظرهما معا مثيراً للسخرية .

وعندما كان الضغط عليّ يغدو غير محتمل في بيت الكاهن ، كنت أقوم بضرب آنا ، فترد لي الضربة بمثلها . كنا متساويين بالقوة ، لكنني كنت أكثر غضبا منها ، وكانت شجاراتنا تنتهي ببكائها وخروجي ولا نلبث أن نتصالح فيما بعد . ذات مرة ، وبعد أن ضربتها ، تورمت عينها وشقت شفتها ، فكانت تتباهى بعرض جراحها في المدرسة ، وإذا ما سألها أحد من فعل بها هذا ، تجيبه بأنه حبيبها ، فكان الجميع يضحكون ولم يصدقوا بأن ابن الكاهن الهزيل والمتلعثم ، قادر على مثل هذا العنف .

في صباح يوم أحد اتصلت آنا بي قبل الصلاة ، وصرخت مستنجدة لان بول على وشك ان يقتل امها . هرعت اليها ، وعندما فتحت لي آنا الباب واندفعت داخلا تلقيت ضربة على فمي ، وارتددت الى الخلف واصطدمت بخزانة الاحذية . وعندما استعدت توازني وجدت البائع المتجول ذا الشعر الاحمر في سرواله الداخلي وجواربه القصيرة يتصارع مع الأم وابنتها مهددا بقتلهما ، قائلا انه يجب وضع حد لهذه الخيانات كلها ، فقد تعب من الاحتفاظ بعاهرة وابنتها . قبض بيديه على حنجرة الام التي امتقع لون وجهها وانقلب احمر داكنا . حاولت انا وآنا ان نخلصها ، ولما لم ننجح فقد اندفعت آنا الى المطبخ وعادت تحمل سكينا قاطعة، وهددته بالطعن حتى الموت ان لم يترك أمها حالا، فتركها وضربني من جديد ، فحاولت ان أرد له الضربة لكنني اخفقت . ارتدى ثيابه بصمت وحمل معطفه وقبعته ، ثم القى بمفتاح البيت على الارض ، ومضى .

أعدت والدة آنا بعض القهوة والسندويشات ، وجاءت احدى الجارات لتسأل عما حدث . فأخذتني آنا الى غرفتها وتفحصت جراحي . كان

احد اسناني قد فقد شظية من طرفه (وخلال كتابتي هذه الاسطر ، اشعر بفقدانها ، بواسطة لساني) .

كل هذا كان مثيرا ولكنه غير حقيقي بالنسبة لي . كان ما يـدور حولي أشبه بأجزاء من فيلم ، مركبة بطريقة غير ثابتة ، توحي بالغموض وأحيانا بالحزن . وجدت بدهشة شديدة أن أحاسيسي قد سجلت الواقع الخارجي دون أن تلامس نبضاتي الداخلية .

استطيع ان اذكر كل اللحظات التي أمضيتها في تلك الشقة البائسة، كل الاصوات والعلامات والاضواء المنعكسة على النوافذ مـن الشارع المقابل . أذكر روائح الشواء والقذارة ، والشعر الأحمر الزيتي لذلك الرجل . اذكر كل شيء بالتفصيل والكن دون وجود لأية عواطف مرتبطة بتلك الانطباعات . هل كنت خائفا ، غاضبا ، محرجا ، فضوليا ، أم مهسترا فحسب ؟ لست أدري .



والان . بما أنني أملك المفتاح في يدي ، اعرف تماما بأنه كان يجب انقضاء اربعين عاما قبل ان تتحرر مشاعري من سجنها ، لقد عشت على ذاكرة الأحاسيس ، وعرفت كيف اعيد خلق هذه الأحاسيس دون أن يكون التعبير العفوي عنها ، عفويا وتلقائيا بمعنى الكلمة . ثمة جزء من الثانية يفصل دائما بين تجربة حدسي وتجليها الحسي .

دعوت آنا للمشاركة في عيد ميلادي الخامس عشر والذي سنحتفل به في البناء الاصفر بجزيرة سمادا لارو ، فأمضت الليل مع شقيقتي في غرفتها . ايقظتها عند الفجر ، ثم تسللنا سوية عبر مخزن الحبـوب وركبنا القارب وجدفنا بعيدا عبر السكون والامواج المتراخية وخيوط الضياء الاولى .

عدنا في موعد الافطار تماما وقبل أن اتلقى التهاني كانت اكتافنا محروقة من الشمس ، وشفاهنا متشققة طعمها مالح ، واعيننا نصف عمياء من كل هذا الضياء .

كنا قد شاهدنا عرينا للمرة الاولى .



- ١٠ -

في الصيف ، عندما بلغت السادسة عشرة ، ارسلني اهلي الى المانيا في نطاق تبادل الطلاب ، وهذا يعني قضاء ستة أسابيع مع عائلة المانية لها ابن في مثل سني ، يعود معي بعدئذ الى السويد ليقضي مع عائلتي المدة نفسها .

نزلت عند أسرة كاهن الماني تقطن في هانية ، وهي مدينة صغيرة تقع بين ڤايمر وإيسناش ، في وادٍ تحيط به قرى مزدهرة ، ويتخلله نهر بطيء . وكانت للمدينة كنيسة حجمها أكبر من المألوف ، وساحة سوق مزينة بنصب تذكاري عن الحرب ، ومحطة باصات .

كانت العائلة كبيرة فيها ستة أبناء وثلاث بنات مع والدهم ووالدتهم، بالإضافة الى إحدى قريباتهم ، وكانت عجوزاً تعمل في الكنيسة ، لها شاربان ، تتعرق كثيراً وتحكم الأسرة بقبضة حديدية . وكان صاحب البيت رجلاً هزيلاً له لحية ماعز ، وعينان زرقاوان ودودتان ، يرتدي ياقة قطنية تغطي اذنيه وبيريه سوداء تحجب جبهته . كان رجلاً واسع الإطلاع ، موسيقياً يعزف على آلات مختلفة ويغني بطبقة ناعمة . وكانت زوجته سمينة مطيعة ، تمضي معظم وقتها في المطبخ ، وطالما داعبت وجنتي بخجل ، كأنها تريد أن تعتذر لتواضع بيتهم .

أما صديقي هانز فكان أشبه بنشرة دعائية للاشتراكيين الوطنيين . كان أشقر ، طويلاً ، له عينان زرقاوان وأذنان صغيرتان وابتسامة منتعشة وبداية لحية . بذلنا جهوداً مشتركة كي يفهم احدنا الآخر ، ولم يكن الأمر سهلاً ، فلغتي الألمانية كانت نتاج دراسة سريعة للقواعد ، بحيث لم يتضمن منهاج المدرسة احتمال التحدث بهذه اللغة .

كانت الايام مملة . يغادر الأطفال البيت في السابعة صباحاً ويتوجهون الى المدرسة ، وأبقى وحدي مع الكبار ، فأقرأ ثم أتجول قليلاً وانا اشعر بالحنين الى الوطن . كنت أفضل البقاء أحياناً في غرفة مكتب الكاهن أو أمضي برفقته لزيارة الأبرشية ، بواسطة سيارته المهترئة الآيلة للسقوط ، عبر الطرقات الترابية المحرقة .

سألت الكاهن إذا كان يجب علي ان ارفع يدي واقول « هايل هتلر » مثل الآخرين ، فأجابني : « عزيزي انغمار ، إن هذا سوف يعتبر أكثر بكثير من مجرد لطف » . فرفعت يدي وقلت : « هايل هتلر » ، وشعرت بالغرابة .

اقترح هانز ان اذهب معه الى المدرسة واحضر الدروس ، فوافقت وذهبت معه الى المدرسة التي تقع في مدينة أكبر من هانيه وتبعد عنها بضعة كيلو مترات بواسطة الدراجة ، وهناك استقبلوني بحماس ومودة ودعوني للجلوس بجانب هانز . كان الصف واسعاً وبارداً رغم حرارة الصيف خارج النوافذ الطويلة ، وكانت المادة الأولى هي المعرفة الدينية ، لكن كتاب هتلر (كفاحي) كان موجوداً أمام الجميع على مقاعدهم . قرأ الأستاذ شيئاً ما من ورقة يحملها ، وتذكرت عبارة مألوفة بالنسبة لي ، أخذ يكررها بنبرة صوت واضح للغاية : « لقد دس اليهود السم له .. » . وعندما سألت هانز عن معناها ، ضحك وقال : « آه يا انغمار ، هذا ليس للغرباء » .

في ايام الآحاد كانت الأسرة تذهب الى صلاة الصباح ، ومن المدهش أن الكاهن كان يقرأ أثناء الطقوس مقتطفات من كتاب (كفاحي) وليس من الأناجيل . وبعد الكنيسة كانت القهوة تقدم في قلعة مجاورة ، وكنت التقي فيها عددا من الرجال في زيهم العسكري الموحد فتسنح لي الفرصة بأن أرفع يدي وأقول « هايل هتلر » .

كان جميــع الشباب والشابات في البيت منتسبين الى منظمات شبيبية ، ويقومون بتدريبات بواسطة الرفوش ، بدلاً من البنادق ، ويمارسون الرياضة في الملعب الكبير ثم يحضرون محاضرات او عروضاً سينمائية في المساء ، وأحياناً يغنون ويرقصون . وكنا نسبح بصعوبة في النهر الطيني ذي الرائحة الكريهة .

انشغل الجميــع بمهرجان مثير للحماس على وشك أن يعقد في ڤايمر ، يتقدمه موكب هتلر العملاق . ساد البيت هرج ومرج ، فغسلت القمصان وكويت جيداً ولمعت الاحذية والأحزمة ، وانطلق الشباب في وقت مبكر جداً من صباح اليوم الموعود ، اما أنا فكنت سألحق بهم مع الكاهن وزوجته ، وكانوا جميعاً مهتاجين لحصولهم على تذاكر قريبة من منصة الشرف ، حتى أن احدهم أشار مازحاً الى أن السبب في ذلك وجودي بينهم .

في ذلك الصباح ، رن جرس الهاتف وكانت المتحدثة هي العمة آنا بصوتها الرنان ، تهتف الينا من السويد . اما الذي جعل هذه المكالمة المكلفة امراً ممكناً ، فهو ثروة العمة آنا . تحدثت بروية ودون استعجال حتى وصلت الى هدف اتصالها ، فأخبرتني أن صديقة لها ، قد تزوجت من رجل مصرفي ، تعيش في ڤايمر وأنها قد سمعت من أمي بأنني في مكان قريب منها ، فاتصلت بصديقتها على الفور واقترحت أن أقوم بزيارتهم . بعد ذلك تحدثت العمة آنا الى الكاهن بلغة المانية متمكنة ، ثم عادت فتحدثت الي وأعربت عن سرورها في حال زيارتي لصديقتها .

وصلنا الى ڤايمر في منتصف النهار ، وكان العرض سيبدأ وحديث هتلر في الثالثة ظهراً ، والمدينة تعيش في حالة من الإثارة ، وقد ارتدى أهلها أفضل ثيابهم وأخذوا يسيرون في الشوارع حيث كانت تعزف فرق موسيقية تحت شرفات البيوت المزينة بالأكاليل والزهور والأعلام ، وكانت أجراس الكنائس ، البروتستانتية الكئيبة ، والكاثوليكية الجذلى ،

تقرع سوية ، ودار الأوبرا تقدم مؤلفة فاغنر (رينزي) ، بالإضافة الى اعمال أخرى ستعرض بعدها .

جلست مع اسرة الكاهن قريباً من منصة الشرف ، واخذنا ننتظر ، نحتسي البيرة ونأكل الشطائر التي احتفظت زوجة الكاهن بها في أكياس دهنية ، ضمتها طوال الرحلة الى صدرها المتعرق .

ما أن دقت الساعة الثالثة حتى سمعنا صوتاً أشبه بالإعصار ينتشر ويدوي عبر الطرقات ، وظهر في الساحة موكب من السيارات السوداء المكشوفة . وارتفع الهدير اكثر فأكثر حتى طغى على قصف الرعد ، وبدأ المطر يتساقط مثل ستارة شفافة وانفجر الضجيج في المكان .

لم ينتبه احد الى العاصفة والمطر ، فكل الإنتباه ، كل الحماس وكل المجد ، كانت مركزة على شخصية واحدة . كان يقف ثابتاً في السيارة السوداء الضخمة التي تتقدم ببطء عبر الساحة ، يتطلع الى الجماهير الفرحة والباكية ، والمطر ينهمر على وجهه ويبلل زيه العسكري. وعندما توقفت السيارة ، ترجل منها الى السجاد الأحمر وسار باتجاه المنصة الرئيسية وحاشيته ترافقه عن بعد .

وفجأة ساد الصمت وبقي صوت المطر وهو يتكسر على الطرقات الحجرية والشرفات . وتكلم الفوهرر . كان خطابه قصيراً لم أفهم منه الكثير ، لكن نبرة صوته كانت متغطرسة ومازحة وحركات يديه متزامنة مع ما يقوله . وما أن انتهى من حديثه حتى صاح الجميع « هايل » ، وتوقف المطر وشق ضياء دافىء طريقه عبر الغيوم القاتمة ، وبدأت فرقة موسيقية كبيرة تعزف وتدفق العرض من جميع الشوارع الى الساحة وحول المنصة ، ومضى بجانب المسرح والكاتدرائية .

لم أرَ في حياتي مثل هذا الهيجان الهائل . هتفت مثل الجميع ، ورفعت يدي مثل الجميع ، وعويت مثل الجميع ، واحببت مثل الجميع.

خلال أحاديث المساء ، شـرح لي هانز معنى واهداف الحرب في اثيوبيا ، وانه من المهم حقاً ان موسوليني قد قرر في النهاية ان يلتفت الى تلك الأمم الفارقة في الظلام ويمنحها بكرم شيئاً من مزايا الحضارة الإيطالية العريقة ، واضاف هانز الى اننا في اسكندنافيا لم نكن نعرف كيف قام اليهود باستغلال الشعب الألماني الذي اقام المتاريس ليواجه الشيوعية . وشرح لي كيف يجب علينا جميعاً ان نحب هذا الرجل الذي شكّل مصيرنا المشترك ووحدنا باخلاص في بوتقة إرادة واحدة وقوة واحدة وشعب واحد .

قدمت لي الأسرة هدية بمناسبة عيد ميلادي ، وكانت عبارة عن صورة لهتلر ، علقها هانز فوق سريري مباشرة حتى استطيع « رؤية الرجل امامي دائمـاً » ، فأتعلم كيف أحبـه مثل هانز وباقي أفراد اسرة هايد .

ولقد احببته لسنوات طويلة ، كنت مؤيداً له ، افرح لانتصاراته واحزن لهزائمه .

كان شقيقي احـد مؤسسي ومنظمي حزب الإشتراكيين الوطنيين السويدي ، وكان والدي يصوت لصالحهم في الانتخابات ، وكان استاذ التاريخ يعبد « المانيا القديمة » ، واستاذ الرياضة يذهب كل صيف للقاء الضباط في باڤاريا ، وكان بعض كهنـة الأبرشية نازيي النزعـة والانتماء ، كذلك كان أصدقاء العائلة المقربون يعبرون باستمرار عـن تأييدهم القوي « لالمانيا الجديدة » .

* * *

وعندما جاءت كل الأدلة من معسكرات الإعتقال ، لم اصدق عيني ، واعتقدت مثل الكثيرين غيري ان الصور مركبة وتهدف الى دعاية كاذبة. لكن الحقيقة هزمت مقاومتي في النهاية .

كنت مجرد طالب تبادل ، غير محصن ، وغير مهيأ ، وجدت نفسي فجأة في جو متوهج بالمثالية وعبادة الفرد ، ومعرضاً لقــدر كبير من العدوانية التي كانت تتلاءم هارمونياً مع تكويني . لقد أعماني البريق الخارجي ولم أرَ العتمة .

عندما ذهبت الى مسرح غوتبزغ المركزي بعد عام من انتهاء الحرب كان هناك صدع عميق بين جبهتين ، تضم الأولى المعلقين الألمان العاملين في جريدة اوفا السينمائية ، ومنظمي غرفــة الفيلم الوطني السويدي وبعض أصدقائهم ، وتضم الثانية معادي النازية ومحرر جريدة غوتبزغ التابع للتحالف ، وبعض الممثلــين الدانمركيين والنرويجيين . كانوا يجلسون جميعاً في جو من الكراهيــة المتبادلة ، يأكلون طعامهم الذي احضروه معهم ويشربون القهوة الباردة المقرفة .

وما إن يدق جرس المسرح حتى يخرجوا الى خشبة المسرح ويصبحوا افضل فرقة مسرحية في البلاد .

لم اتحدث حول ضلالي ويأسي السابقين امام احد ، ولكن قراراً غريباً تشكل في داخلي : لا سياسة بعد اليوم ! بالطبع كان يجب أن اتخذ قراراً آخر مختلفاً تماماً .

* * *

استمرت الإحتفالات طيلة المساء وجزءاً من الليــل ، ثم أوصلني الكاهن الى منزل المصرفي ، وكان عبارة عن شقة حديثة ولطيفة تحيط بها حديقة عطرة . صعدت الدرجات القليلة وقرعت الجرس ، ففتحت لي خادمة ترتدي فستاناً اسود وغطاء رأس مخرماً . عرفتها بنفسي وأنا اتلعثم ، فضحكت وسحبتني الى داخل غرفة الإستقبال .

كانت صديقة العمة آنا إمرأة شقراء ضخمة ، وطيبة للغاية ، تدعى آني ، وكانت أمها سويدية ووالدها اميركياً ، وتتحدث لغة سويدية

مكسّرة ، وترتدي ثياباً أنيقة للغاية إذ كانت ذاهبة في تلك الأمسية مع زوجها لحضور عرض في الأوبرا . قادوني الى غرفة الطعام حيث كانوا يتناولون وجبة باردة ويشربون الشاي ، وشاهدت أمامي أجمل مخلوقات إنسانية يمكن أن أراها ، وقد تحلقت حول الطاولة المرتبة بعناية . كان الزوج رجلاً طويلاً اسمر له لحية مشذبة ونظرات ذات تعابير ساخرة ، والى جانبه كانت تجلس الإبنة الصغرى كلارا ، أو كما يدعونها كلارشن ، وكانت تشبه والدها ، طويلة ، سمراء ، ذات عينين سوداوين وفم شاحب ممتلىء ، وكان بها حَوَلٌ طفيف يزيد من جمالها بطريقة غير مفهومة .

كان شقيقاها الكبيران أسمرين ذوي عيون زرقاء ، وكانا يرتديان سترتين فضفاضتين من الطراز الإنكليزي ، وقد طُرزت عليهما من ناحية الصدر ، شعارات الجامعة .

جلست الى مقعد بجانب العمة آني التي كانت تصب الشاي وتوزع الشطائر ، نظرت حولي فشاهدت اللوحات معلقة في كل مكان، وشاهدت الفضيات والسجاد الناعم على الأرضية الخشبية اللامعة والأعمدة الرخامية والستائر الثقيلة ، وفي الغرفة المجاورة كانت الشمس الغاربة تلقي بضيائها على النافذة الوردية .

عندما انتهينا من تناول الوجبة ، أخذتني العمة آني الى غرفتي في الطابق الأول ، بجانب جناحي الشقيقين ، وبعد أن أرتني كل هذه الرفاهية ، ودعتني إذ كان زوجها والسائق بانتظارها .

ظهرت كلارشن وهي ترتدي حذاءً عالي الكعب (مما جعلها أطول مني) وفستاناً عادياً أحمر اللون ، ووضعت أصبعها على شفتيها مثل من يدعو الى مؤامرة لطيفة .

أمسكتني من يدي وقادتني عبر ممر طويل ومن ثم الى غرفة علوية غير مستخدمة بسبب أثاثها المغطى وثريتها المغلفة بحرير رقيق ، وكانت

الغرفة مضاءة بشموع ينعكس لهيبها على المرايا الجدارية الضخمة ، وهناك وجـدت شقيقي كلارشن يدخنان السيجار التركي العريض ويشربان البراندي ، وقد وضعا امامهما على طاولة مطلية بالذهب جهاز غرامافون .

كانت الاسطوانة وعليها شعار شركة تليفونكن الأزرق ، جاهزة في مكانها ، وعندما وُضعت الإبرة على طرفها الخارجي بدأت تخرج من الصندوق الأسود الحان مكبوتة وخشنة من (أوبرا القروش الثلاثة) .

طافت في الغرفة رائحة السيجار المعطر اللاذعة واضاء القمر الأشجار في الحديقة ، ورأيت كلارشن وقد التفتت نصف التفاتة ، تحدق نحو انعكاس وجهها على المرآة المعلقة بين نافذتين وتضع يدها على إحـدى عينيها . صب ديفيد المزيد في كأسي فانفجرت امام عيني غشاوة رقيقة .

انتهت (أوبرا القروش الثلاثة) ، ولم أفهم الكلمات ، او علـى الاقل ، قسماً كبيراً منها ، لكنني عوضاً عن ذلك ، ومثل حيوان داهية ، استطعت أن افهم نبرة الصوت ، وكان هذا الفهم يغوص عميقاً في داخلي ليبقى جزءاً مني .

بعد عشرين سنة سنحت لي الفرصة لإخراج (أوبرا القروش الثلاثة) على المسرح في السويد ، ورغم كل الإمكانيات الفنية والمادية التي وُضعت تحت تصرفي فقد فشلت لأنني كنت أحمق وعابثاً ، ولم أستحضر وجه كلارشن نصف المضاء ، وضوء القمر ورائحة السيجار التركي وصورة ديفيد وهو ينصت باهتمام للغرامافون . كانت لدي فرصة السماع لتسجيلات تليفونكن الخشنة تلك ، لكنني أصررت على أداء أوركسترالي حديث . القـد كنت أبله من المقاطعـات ، عبقرياً ريفياً ساذجاً . هكذا كانت الأمور ، وهكذا هي الآن .

في تلك الامسية غفوت نتيجة الإثارة والبراندي ، ثم استيقظت بعد وقت قصير فوجدت نفسي مستلقياً على سريري الكبير ، ورأيت كلارشن

تجلس مقابلي ، عند طرف السرير ، تحدق بي بثبات وفضول . وعندما تأكد لها انني افقت ، أومأت برأسـها مبتسمة وغادرة الغرفـة دون أن تتفوه بحرف .

بعد ستة أشهر تلقيت رسالة من كلارشن بعثت بها من سويسرا ، وذكرتني مازحة بالوعد الذي قطعناه على انفسنا بأن نتراسل . وكيف انني لم اف بالوعد ، وأخبرتني بأنها عادت الى مدرستها المملة وان والديها قد غادرا لزيارة أصدقاء في كندا ، وانها ستلتحق بمعهد الرسم بعد المدرسة ، وان شقيقيها تمكنا من العودة الى جامعتهما في بريطانيا بفضل وساطة السفير البريطاني ، وانها لا تعتقد بان العائلة ستعود الى ڤايمر ثانية .

ذلك ما جاء على الصفحة الأولى من الرسالة ، أما على الصفحة الثانية فقد كتبت :

« اسمي الحقيقي ليس كلارا ، وإنما ثيـا ، وهو غير مكتوب في جواز السفر . أما نشأتي الدينية ، فهي كما ذكرت لك ، أورثوذكسية صارمة ، وأعتقد أنني أمثل ابنة طيبة وفق معايير والدي" .

لقد عانيت من أمراض جسدية كثيرة ، أسوؤها حالة الهيجان التي تلاحقني كالكابوس منذ سنتين ، بالاضافة الى حساسيتي المفرطة . إن ردة فعلي عنيفة تجاه الأصوات المفاجئة والروائح الكريهة والأضواء الباهرة (أنا عمياء في عين واحدة) . إن الضغط الطبيعي لفستان ما قد يدفعني للجنون والألم . عندما كنت في الخامسة عشرة تزوجت من ممثل نمساوي شاب ، فقد اردت أن ابدأ مع المسرح ، لكن زواجنـا لم يكن سعيداً ورزقت بطفل ما لبث أن توفي ، فعدت الى المدرسـة في سويسرا ، وأنا أبكي الآن .

حتى عيني الزجاجية تدمع .

ادعيت انني قديسة او شهيدة ، بوسعي ان أجلس ساعات طويـلة قرب الطاولة في تلك الغرفة المغلقة (حيث كنا نستمع الى التسجيلات الممنوعة) ، وأتأمل راحتي يدي ، وذات مرة احمرت راحتي اليسرى وبدا وكأن الدم سيتفجر منها . ادعيت انني اضحي بنفسي من أجـل شقيقي واحفظهما من خطر مميت . ادعيت النشوة والحديث مع العذراء المقدسة ، ادعيت الإيمان والكفر ، التحدي والشـك . ادعيت انني خاطئة مرتدة يعذبها إحساس بالذنب غير محتمل . وفجأة رفضت الذنب وغفرت لنفسي . الأمر كله مجرد لعبة . إنني ادعي ذلك .

وضمن اللعبة أكون احياناً في غاية المأساوية ، وأخرى مبتهجة الى أقصى الحدود . لقد وثقت بأحد الأطباء (كنت التقيت الكثير منهم) وقال لي إن احلامي وحياتي التافهـة ستفسـد جهـازي العصبي ، ووصف لي اشياء محددة تجبرني على مغادرة سجن انانيتي المركزة ، منها النظام ، والانتظام الذاتي والاختبارات والمشدات النسائية . أما والدي اللطيف والحكيم والذي يجمع حساباته بهدوء فأخبرني بأنني يجب الا اقلق ، وان كل شيء موجود في كل الأشياء ، وأن العيش هو عذاب يمكن التغلب عليه بالاستقالة من الحياة ولكن يفضل من دون سخرية . لست تواقة لمثل هـذه الجهود ، وأفكر بالذهاب بعيداً في العابي ، وعلى نحو اكثر جدية ، إذا كنت تفهم قصدي .

ارجوك اكتب لي بسرعة وأخبرني عن كل شيء باللغة التي تريدها ، ما عدا السويدية ، التي ربما قد اتعلمها في يوم ما . اكتب وحدثني عن نفسك ، انت يا شقيقي الأصفر . اشتاق إليك » .

بعد ذلك أوردت ملاحظات تتعلق بعنوانهـا الجديد ، وانهت رسالتها بشكل تقليدي ولكن مؤثر : « عزيزي انغمار ، اعانقك بقوة . أما زلت نحيلاً على ذلك النحو المخيف ؟ كلارا . » .

لم أجب على رسالتها أبداً . كانت صعوبات اللغة شاقة ، ولم ارغب في أن أبدو أحمق أمامها ، لكنني احتفظت بالرسالة واستخدمتها كلمة كلمة في فيلم (الطقوس) عام ١٩٦٩ .

بعد أيام قليلة في ڤايمر ، واسبوع مرعب في هانية ، تورطت في جدال ديني مع الشماسة العجوز عندما اكتشفت أنني أقرأ سترندبرغ . قالت إنه راديكالي متطرف ، يكره النساء ويهزأ بالرب ، ثم وبختني وابدت اعتراضها على قراءاتي متسائلة حول امكانية زيارة هانز لأسرة مثل اسرتي تسمح بوجود أدب مماثــل في بيتها أجبتها بلغة المانيــة ركيكة أننا في بيتنا بالوطن نتمتع بحرية الدين وحرية التعبير (فجأة وجدت أن الديمقراطية أمر مناسب) . خمدت عاصفة الجدال ، وبدأنا أنا وهانز استعدادتنا للسفر .

توجهنا إلى برلين من حيث سيقلنا قطار خاص الى استوكهولم ، ونزلنا في فندق ضخم مخصص للشباب على مشارف المدينة ، وبفضل تعزيزات مادية سرية من قبل العمة آني فقد استطعت الهروب من جولة سياحة مقررة للاماكن الاثرية وماشابه .

ركبت الباص خارج الفندق وبقيت فيه حتى توقف عند المحطة الأخيرة . كان يوماً حاراً من شهر تموز ، والساعة تقارب السادسة بعد الظهر . اخترت طريقاً بشكل عشوائي ومشيت فيه إلى أن وجدت امامي جسراً هائلاً يسمى كرفور شتينبروك ، وقصراً على الطرف الآخر للنهر . وقفت ساعات عديدة عند سور القصر أراقب الغروب والظلال القائمة فوق النهر النتن ، وانصت إلى الهدير المتزايد .

عبرت جسراً آخر فوق نهر ضيقاً ، وعلى طرفه رصيف خشبي غارق ، حيث يرسو مركب رحلات كبير ، يجلس على متنــه رجــلان يصطادان السمك ويشربان البيرة . وجدت نفسي منقاداً إلى جانــب المدينة حيث تبطأ الحركة . لم يحــدث شيء ، ولم تبدني أية عاهرة

بالكلام رغم انهن بدان يتخذن مواقعهن . شعرت بالجوع والعطش لكنني لم اجرؤ على الدخول إلى أي مكان .

سقط الليل ،ولم يحدث شيء . انهكني التعب وخيبة الامل فركبت سيارة أجرة ابتلعت ماتبقى لدي من نقود وعدت إلى الفندق ، وعندما وصلت وجدتهم على وشك الإتصال بالشرطة ليبلغوهم عن ضياعي .

في الصباح التالي سافرنا الى استوكهولهم بواسطة قطار بضائع خاص لانهاية له ، مقاعده خشبية وسقفه مفتوح . انهمر المطر . فوقفت تحت سيله المتدفق انصت للضجيج والعب دور شخص احمق لعلني أثير اهتمام أحد ، أو فتاة ما . بقيت على هذا النحو ساعات ، وعندما ركبنا المعدية فكرت في القفز الى الماء ، لكنني خشيت أن تفرمني مراوح المعدية. وباقتراب الليل تظاهرت بانني ثمل قد سقط ارضاً ويحاول أن يتقيأ إلى أن تدخلت اخيراً صبية ريانه لها نمش في وجهها ، وسحبتني من شعري وهزتني جيداً وحذرتني بصراحة بأنني لايجب أن أبدو كالحمار . فتوقفت فوراً ، ثم اتجهت إلى إحدى الزوايا ، وجلست والتهمت برتقالة وغفوت. وعندما استيقظت كنا قد وصلنا إلى سيودرتالي .

لقد زرت برلين في احلامي مرات عديدة ، ولم تكن برلين الحقيقة ولكن مدنية مبنية على خشبة المسرح ، مدينة ضخمة ذات ابنية عملاقة، مسودة من الدخان ، وأبراج كنائس وتماثيل . كنت أطوف فيها وسط زحام السير الرهيب وكل شيء يبدو مألوفاً وغريباً في آن واحد . أحيانا أشعر بالرعب والبهجة وأعرف تماماً إلى أين أذهب . ابحث عن مكان ما وراء الجسور ، ذلك الجزء من المدينة حيث أعرف أن شيئاً ماسيحدث أتسلق هضبة شديدة الإنحدار وارى الطائرة تحلق فوق البيوت ، وفي النهاية أصل إلى النهر حيث يرفعون منه حصاناً ميتاً هائل الحجم كالحوت .

يدفعني الفضول والخوف الى الأمام ، يجب أن أكون هناك في الوقت المحدد وأشهد الاعدام العلني . بعد ذلك ألتقي زوجتي

الراحلة ، فنتعانق بحنان ونبحث عن غرفة في فندق حيث يمكننا أن نمارس الحب . انها تمضي بخطوات سريعة ورشيقة أمامي وأنا أمسك بها من وركها . مصابيح الشارع لاتزال مضاءة رغم الشمس الساطعة ، السماء سوداء لها صرير عالٍ . والآن أعرف أنني وصلت الى المنطقة المحرمة . هاهو المسرح هناك ، مع ذلك العمل الفني العميق الذيلايمكن سبر أغواره .

لقد حاولت ثلاث مرات أن أخلق مدينة حلمي . في المرة الأولى كتبت مسرحية اذاعية بعنوان (المدينة) ، وتدور أحداثها حول مدينة ضخمة غارقة في الفساد والتعفن ، أبنيتها منهارة وشوارعها مهدمة . بعدها بسنوات قليلة أخرجت فيلم (الصمت) حيث تضيع شقيقتان وصبي صغير من مدينة هائلة موحشة لايعرفون لغتها . وأخيراً قمت بمحاولة جديدة من خلال فيلم (بيضة الثعبان) ، والذي يعود سبب اخفاقه الفني الى أنني أسميت المدينة برلين وقررت أن تكون الأحداث في زمن العشرينيات . كان هذا قراراً أحمق وبلا معنى . ولو أنني خلقت مدينة حلمي ، هذه المدينة التي لم ولن تعلن عن نفسها من خلال خطورتها وروائحها وصخبها العالي ، لو أنني خلقت هذه المدينة فعلاً ، فعندئذ لا أكون قادراً على التحرك بحرية كبيرة ، والاحساس المطلق بالانتماء فحسب ، بل الأهم من ذلك أنني سآخذ جمهور المشاهدين الى عالم غريب ومألوف بالنسبة لهم . من سوء الحظ أنني سمحت لتلك الرحلة التي قمت بها في برلين ، في منتصف الثلاثينيات ، أن تقودني بشكل خاطىء ، وفي أمسية لم يحدث فيها شيء . في فيلم (بيضة الثعبان) قدمت مدينة برلين بحيث لم يتعرف عليها أحد ، ولا حتى أنا .



عيّن والدي مسؤولا في أبرشية هيدفغ اليانورا في استوكهولم ، وانتقلت العائلة الى شقة تابعة للكنيسة في شارع ستورغاتن ، حيث خصصت لي غرفة كبيرة تطل على ساحة أوسترمالم . أصبح طريقي للمدرسة مختصرا وبدأت استمتع بمزيد من حرية الحركة .

كان والدي واعظا ذا شعبية يكتظ بيته بالزوار دائما . وكان راعيا صالحا ، يقظ الضمير ، يتمتع بموهبة نادرة تتمثل بذاكرته الخارقة في استيعابها الناس . فخلال السنوات الماضية ، كان قد عمّد ومنح التثبيت الديني وزوّج ودفن أكثر من اربعين ألفا من رعايا الأبرشية ، وكان يعرفهم جميعا ، ويعرف أسماءهم وأحوالهم ، لذلك كان السير معه اجراءً معقدا لأنه كان يتوقف باستمرار لتبادل التحية مع الناس والتحدث اليهم والسؤال عن أطفالهم وأحفادهم وأقاربهم . وبقي والدي، رغم تقدمه بالسن ، يحافظ بنجاح على هذه الموهبة .

كان راعيا للأبرشية واداريا حاسما وديبلوماسيا في آن واحد . لم تكن لديه فرصة لاختيار الأشخاص الذين يعملون معه ، فبعضهم كان ينافسه على منصبه والبعض الآخر كانوا كسالى ، منافقين ومتذللين ، وقد تمكن والدي من ابقاء كل نشاطاته وفعالياته خارج اطار المشاجرات والمكائد الكهنوتية .

ووفق العادة كان بيت الكاهن مفتوحا للجميع ، وكانت أمي تمثل قوة أساسية في الأعمال الخيرية التابعة للكنيسة . توجد باستمرار الى جانب والدي في كل المناسبات وتجلس أثناء المواعظ تنصت باهتمام وصدق ، وتشارك في المؤتمرات وتقيم حفلات عشاء . أما شقيقي الذي

بلغ العشرين من عمره فقد التحق بجامعة أوبسالا ، وكنت أنا قد بلغت السادسة عشرة وشقيقتي الثانية عشرة . كانت حريتنا النسبية مرتبطة تماما بعبء العمل المفرط الذي يتحمله والدانا ، كانت حرية مسمومة ، وتوترا هائلا ، ومشاكل يصعب حلها . ما كان يبدو من الخارج صورة متكاملة لمجتمع عائلة صالحة ، كان في حقيقة الأمر بؤساً وصراعات مضنية ، وكان والدي يتمتع بقدرة لا بأس بها على التمثيل ، أما بعيدا عن المنصة فكان عصبيا ونزقا ومتجبرا ، ينتابه خوف دائم من ألا يكون ملائما ، فيكاد ينازع قبل ظهوره أمام الرعية ، ويعيد كتابة مواعظه مرات عديدة ، ولا يتساهل مطلقا تجاه واجباته الادارية ، ويبقى قلقا ، يفقد مزاجه وينفجر بسرعة حتى لأتفه الأسباب . لم يكن مسموحا لنا أن نصفر أو نسير وأيدينا في جيوبنا ، وكان يقرر فجأة مراجعة وظائفنا المدرسية ، ومن يخطىء يعاقب فورا . لقد كان والدي يعاني من حساسية زائدة في السمع تجاه الأصوات المرتفعة التي تثير غضبه ، فقام بعزل جدران غرفتي نومه ومكتبه لكنه بقي يتذمر من ضجيج السيارات ، القليلة في ذلك الوقت .

أما أمي فكانت تتحمل عبئاً مزدوجاً ، فبقيت متوترة باستمرار ، لا تنام جيدا وتتعاطى علاجا قويا سبب لها تأثيرات داخلية ضاعفت من قلقها وتعبها . وكانت تشبه والدي عندما يتملكها احساس بأنها غير ملائمة للطموحات الكبيرة ، وكان عذابها الأكبر يتمثل في هاجسها بأنها قد تفقد التواصل معنا ، نحن أولادها ، فبدأت تعطي اهتماما أكثر لشقيقتي المهذبة والمطيعة ، وأرسلت شقيقي الى جامعة أوبسالا بعد محاولته الفاشلة للانتحار ، أما أنا فكنت اغوص في عالمي الخاص ، اعمق فاعمق .

من المحتم لجدا انني أبالغ في قتامة المشهد . كان والدي يعبر أحيانا كثيرة عن رغبته بالعمل كقس في الريف . اذ أن التحديات التي يتطلبها مثل هذا العمل أكثر ملائمة بالنسبة له ، أما أمي فكتبت في يومياتها السرية انها تريد الانفصال عن والدي والرحيل الى ايطاليا .

ذات أمسية سمحت لي أمي بمرافقتها لزيارة صديق قديم يعمل مديرا لدار النشر التابعة للكنيسة ويدعى العم بير . كان قد تزوج . ثم انفصل عن زوجته وعاش وحيدا في شقة معتمة كبيرة في فاساتادن . وعندما وصلنا الى شقته وجدنا الأسقف ، العم تورستن ، صديق والدي منذ الطفولة .

عهد إليّ بمهمة العمل على غرامافون العم بير الكبير في غرفة الطعام حيث كان الموسيقا تصدح بصوت عال ، وكانت غالبا لموزارت أو فيردي . توارى العم بير في مكتبه لبعض الوقت وجلست امي مع العم تورستن قرب المدفأة في الصالون واستطعت أن أراهما من خلال شق الباب الفاصل بين الغرفتين . كانت نار المدفأة تضيء جانبا من وجهيهما، وكان العم تورستن ممسكا بيد أمي ، وكانا يتحدثان بهدوء فلم أستطع سماع حديثهما بسبب الموسيقا ، ثم رأيت أمي تبكي والعم تورستن ينحني قريبا منها وهو لا يزال ممسكا بيدها .

بعد ساعات قليلة أوصلنا العم بير الى المنزل بسيارته السوداء الكبيرة ذات المقاعد الجلدية .

في الصيف والشتاء كنا نتناول العشاء عند الخامسة مساءً . فعندما تدق ساعة غرفة الطعام كنا نقف هناك ، كل وراء كرسيه ، نظيف اليدين ممشط الشعر . تتلى الصلاة . ثم نجلس ، أبي وأمي عند حافتي المائدة المتقابلتين ، أنا وشقيقتي في جانب وشقيقي والآنسة آغدا في الجانب الآخر . وكانت الآنسة آغدا لطيفة وطويلة ، ومتقلبة بشكل ما ، تعمل معلمة في مدرسة ابتدائية ، وبقيت لمدة طويلة تعطينا دورسا خصوصية وأصبحت صديقة حميمة لأمي .

كانت كريات الثريا الزجاجية تنشر ضوءا ضبابيا أصفر فوق المائدة .. تبدأ الوجبة مع مخلل الرنجة والبطاطا أو مع اللحم والبطاطا ، وكان والدي يشرب الشنابس ممزوجا بالبيرة . تضغط أمي على زر

جرس كهربائي صغير مخفي أسفل حافة المائدة فتظهر الخادمة بزيها الأسود وتأخذ الصحون والسكاكين ، ثم تقدم الطبق الرئيسي الذي يكون في افضل احواله عبارة عن كرات من اللحم وفي أسوئها معكرونة بالسجن . كنا حذرين للغاية في عدم التعبير عن استيائنا . كان يجب أن نأكل كل شيء ، وكنا نأكل كل شيء .

عندما تنتهي الوجبة الرئيسية ويفرغ والدي من مشروبه ، تحمر جبهته لسبب ما . كنا نأكل بصمت فالأطفال لا يتكلمون أثناء الطعام الا اذا وجهت اسئلة اليهم . السؤال الالزامي : « كيف كنت اليوم بالمدرسة ؟ » . يليه الجواب الالزامي : « جيد » . « هل اضطررت لاعادة كتابة الموضوع ؟ » « لا » . « أي سؤال وجه اليك ؟ وهل استطعت الاجابة عليه ؟ » . « نعم بالطبع » « لقد اتصلت بمعلم الصف وعرفت أنك نجحت بالرياضيات .. هذا جيد .. » .

ويبتسم والدي بسخرية وتتناول أمي دواءها . كانت قد أجرت عملية جراحية كبيرة مؤخراً وواظبت على الدواء لفترة طويلة . التفت والدي الى شقيقي قائلا : « قلد لنا ذلك الأبله نلسون » . كان شقيقي موهوبا في تقليد الآخرين وعلى الفور تدلت شفته السفلى وجحظت عيناه وانضغط انفه وبدأ يتمتم بصوت ثخين . ضحك والدي وابتسمت أمي على مضض . قال والدي فجأة : « يجب أن تطلق النار على رئيس الوزراء بير البين وعلى مجموعة الاشتراكيين كلهم » . فردت أمي بنبرة حازمة « يجب الا تقول مثل هذا الكلام . » . « مثل أي كلام ؟ الا استطيع أن أقول إننا محكومون من قبل رعاع وقطاع طرق ؟ » . حاولت أمي أن تغير الموضوع ، فقالت : « يجب أن نرتب المواعيد للقاء مجلس الكنيسة » . فأجاب والدي وقد أصبح لون جبهته قرمزيا : « لقد سبق وقلت هذا مرارا » . خفضت أمي عيناها وحدقت بصحن الطعام ، ثم التفتت الى شقيقتي وسألتها بلطف : « أما زالت ليليان مريضة ؟ » فأجابت مارغريتا بصوت ضعيف : « سوف تعود للمدرسة

عـدا » ، ثم أضافت بتردد : « الا نستطيع دعوتها للعشاء مســاء الاحد القــادم ؟ » .

ساد الصمت في الغرفة المضاءة بالنور الاصفر ، وبقيت الساعة تتكتك . قال والدي : « لقد عينوا بيرونيوس على الرغم من توصــيه الكاتدرائية بالفاود . هكذا هي الامور وهكذا ستبقى .. لا كفاءة .. وحماقة » هزت أمي برأسها وقــد ارتسم على محياهــا تعبير ازدراء خفيف ، وسألت : « أصحيح أن اربورليوس سوف يلقي عظة الجمعة الحزينة ؟ » .

فاجاب والدي : « لا أحد يستطيع أن يسمعه وهو يتكلم ... وربما هذا أفضل ... » وانفجر ضاحكاً .



بعد الامتحانات النهائية في المدرسة سافرت آنا ليندبرغ ، حبي الأول ، الى فرنسا لتحسين لغتها الفرنسية ، وبعد سنوات قليلة تزوجت هناك وانجبت طفلين ثم أصيبت بشلل الأطفال . أما زوجها فقد قتل في ثاني أيام الحرب ، بعد ان فقدت الاتصــال بها وجدت لنفسي صديقــة جديــدة .

كانت سيسيليا فون غوتهارد فتاة ذكية سريعة البديهة حمراء الشعر واكثر نضجاً من كل معجبيها ، وبقي اختيارها لي من بين الجميع سراً غامضاً . كنت عاشقاً ميئوساً منه وراقصاً سيئاً ومتحدثا لا يهدأ عن الكلام حول نفسه . ارتبطنا سوية لفترة ثم انهت سيسيليا علاقتنا قائلة انني لن أحقق شيئاً ولن أصل الى اي مكان في حياتي ، وهو رأي كنت أشاركها به ، ويشاركها به أيضاً والدي وكل من يحيط بي .

كانت سيسيليا تعيش مع امها في شقة غنيبة باوسترمالم . كان والدها شخصاً مهماً في الادارة . عاد ذات يوم مبكراً من عمله وذهب

الى سريره ورفض ان يغادره ، ثم أمضى بعض الوقت في مشفى للامراض العقلية وانجب طفلا من ممرضة شابة وانتقل ليعيش معها في مزرعة صغيرة في جامتلاند .

أما والدة سيسيليا فقد شعرت بالخجل الشديد تجاه هذه الكارثة الاجتماعية ، فانتقلت الى غرفة الخادمة المعتمة خلف المطبخ ولم تظهر الا نادراً مع اول الليل . تشقق وجهها الضعيف تحت شعرها المستعار من الألم والمعاناة وبدأت تبقبق كالدجاج عندما تتحدث فلا يفهم كلامها الا بصعوبة ، وتهز راسها وكتفيها بحركات عنيفة ومفاجئة ، وكان واضحاً أن في لمحات سيسيليا الجميلة وتصرفاتها شيئاً من امها . وقد قادني هذا في وقت لاحق الى اتخاذ القرار بأن دوري الام وابنتها الشابة في مسرحية سترندبرغ (سوناتا الاشباح) يجب أن تؤديهما الممثلة نفسها .



ما أن تحررت من انظمة المدرسة الحديدية حتى اندفعت مثل حصان هائج ولم اتوقف الا بعد ست سنوات عندما أصبحت مخرجاً في مسرح هيلسنبورغ البلدي . تعلمت شيئاً من تاريخ الأدب بواسطة مارتن لام الذي كان يقرأ محاضرات حول سترندبرغ بنبرة مازحة تأسر انتباه القاعة كلها . وقد ادركت فيما بعد روعة تحليلاته . انتسبت الى منظمة شبابية في المدينة القديمة تدعى ماستر ـ اولفسغاردن وحصلت على الامتياز بالاشراف على نشاطات الدراما فيها ، ثم التحقت بدورة للدراما في جامعة استوكهولم وتعرفت الى ماريا . كانت تؤدي دور الام في مسرحية (البجع) ولها صيت ذائع داخل الاوساط الطلابية . كانت مكتنزة الجسم ، كتفاها منحدران ، صدرها مرتفع ووركاها كبيران ، وجهها مسطح وانفها طويل ودقيق ، جبهتها عريضة وعيناها زرقاوان داكنتان معبرتان ، فمها رقيق تميل زاويتاه الى الاسفل قليلا ، شعرها ناعم أحمر . كانت موهوبة فيما يتعلق باللغات الاجنبية وقد نشرت مجموعة شعرية بمباركة من ارثر لوندكفيست . وفي الامسيات كانت تجلس الى

طاولة في احدى زوايا مقهى الطلاب تشرب البراندي وتدخن سجائر أميركية تدعى غولدفلاك .

لقد منحتني ماريا كل التجارب والخبرات الممكنة وأصبحت ترياقاً رائعاً لكسلي العقلي وهمودي الروحي واضطرابي العاطفي ، كذلك أرضت تعطشي الجنسي وحطمت قضبان السجن وحررت ذلك المجنون الهائج .

استأجرنا غرفة ضيقة في الجانب الشمالي لاستوكهولم ، تحتوي على رفوف للكتب وكرسيين وطاولة مع مصباح للقراءة وسريرين وخزانة. كنا نحضر الطعام داخل الخزانة ونستخدم حوض المغسلة للاستحمام وغسل الاطباق . كنا نجلس ونعمل . كل منا ينهمك في أموره الخاصة ، وكانت ماريا تدخن بلا توقف ، فقمت ذات مرة باجراء هجوم مضاد وأشعلت سيجارة دفاعاً عن النفس وسرعان ما تحولت الى مدخن شره .

اكتشف والدي انني أمضي الليالي خارجاً ، فاجريا التحقيقات اللازمة وظهرت الحقيقة ، فطلبا مني أن أوضح موقفي لكنني رفضت ، ونتج عن ذلك مشادة كلامية مع والدي . حذرته من أن يضربني ، لكنه ضربني فوجهت له ضربة مقابلة فترنح الى الخلف وسقط أرضاً في حين كانت أمي تنتحب وتناشدنا العودة الى صوابنا .دفعتها جانباً فصرخت. وفي تلك الامسية كتبت لهما رسالة ، قلت فيها اننا لن نلتقي ثانية أبداً .

تركت المنزل يغمرني احساس بالراحة وبقيت بعيداً عنه لسنوات عديدة .

حاول شقيقي أن ينتحر ، واجبرت شقيقتي على الاجهاض حرصاً على سمعة العائلة ورحلت أنا عن المنزل . وهكذا عاش والداي في حالة ارهاق دائمة مليئة بالازمات التي لا بداية لها ولا نهاية ، لكنهما استمرا في تأدية حياتهما باذلين أثناء ذلك جهوداً جبارة ، وتضرعا الى الله طلباً للرحمة اذ لم يجدا الخلاص في معتقداتهما وأفكارهما وتقاليدهما . كانت

دراما أسرتنا قد اعدت ومثلت سابقاً أمام أعين الجميع على خشبة بيت الكاهن المضاءة بقوة . لقد خلق الخوف ما كان يخشى منه .



تلقيت عروضاً مهنية . فقد عرضت علي مديره الانتاج بالمسرح بريتا فون هورن وكاتب مسرحياتها أن اعمل مع ممثلين محترفين ، كما طلبت مني لجنة الحدائق العامة أن أقدم مسرحيات خاصة بالاطفال ، فبدأت اعمل في مسرح صغير وسط المدينة . وقدمت غالباً مسرحيات للاطفال ، لكنني حاولت في الوقت نفسه أن أجرب العمل على مسرحية سترندبرغ (سوناتا الاشباح) ، وكان جميع الممثلين محترفين ، يتقاضى كل منهم عشرة كرونات كل ليلة . لكن هذه المغامرة انتهت بعد سبعة عروض .

ووجدني بعد ذلك ممثل جوال كان يبحث عني ويريدني أن اخرج له مسرحية اخرى لسترندبرغ وهي (الاب) ، بحيث يؤدي هـو الدور الرئيسي فيها . كان الاغراء قوياً فوافقت ، خصوصاً وانني كنت سأسافر مع الفرقة في جولة وبهذه الطريقة أستطيع تأجيل الامتحان في تاريخ الادب . وهكذا تركت دراستي وودعت ماريا وغادرت مع شركة جوناثان ابسبيورنسون وقدمنا عرض الافتتاح في مدينة صغيرة بشمال السويد وحضره سبعة عشر شخصاً فقط . وجاءت تعليقات الصحف المحلية في الصباح التالي مريرة ولاذعة ، فتشتت الفرقة وبدأ كل واحد مـن اعضائها يبحث عن طريقه للعودة الى منزله . اما انا فكنت أملك بيضة مسلوقة ونصف رغيف خبز وستة كرونات .

كانت عودتي مشينة للغاية ، ولم تستطع ماريا ، التي كانت ضد ذهابي منذ البداية ، أن تخفي احساسها بالنصر ، او أن تخفي سر عشيقها الجديد . فأمضى ثلاثتنا بعض الليالي في الغرفة الضيقة قبل أن يلقي بي خارجاً متورم العين وملوي الابهام . لقد كان منافسي أقوى مني .

في المرحلة ذاتها عملت مساعدا للأنتاج ، من دون مرتب ، في دار الأوبرا ، وساعدتني راقصة باليه لطيفة فأعطتني نقودا ووفرت لي غرفة مناسبة لبضعة أسابيع ، وكانت أمها تحضر لنا الطعام وتغسل الملابس الداخلية . شفيت من قرحتي المعدية وحصلت على عمل جديد كملقن اثناء أوبرا (أورفيوس في العالم السفلي) لقاء ثلاثة عشر كرونا في الليلة مما مكنني من استئجار غرفة جديدة والحصول على وجبة جيدة كل يـوم .

وفجأة كتبت اثنتي عشرة مسرحية وأوبرا واحدة ، وبعد أن قراهم كلايس هوغلاند ، مدير المسرح الطلابي ، قرر أن نعمل على (مـوت المثقب) وهي مسرحية منتحلة عن احدى مسرحيات سترندبرغ ، الامر الذي لم يحرجني البتة .

ونجحت المسرحية واشادت بها صحيفة سفنسكا داغبلادت، وحضر العرض الاخير منها كـارل اندرس ويملنغ ، الذي عـين مؤخرا مديرا لشركة سفنسك فيلم ، وستينا برغمان مديرة قسم النصوص بالشركة. وفي اليوم التالي اجتمعت مع ستينا وحصلت على وظيفة لمدة عام كامل وأصبح لدي مكتب خاص وطاولة وكرسي وهاتف ومشهد يطل عـلى الأسطحة في منطقة كونغسغاتن ، بالاضافة الى مرتب قدره ٥٠٠ كرون شـهريا .

أصبحت شخصا محترما يعمل بوظيفة دائمة ، يجلس الى طاولته كل يوم يحـرر النصوص والسيناريوهات ، يكتب الحوارات ويضـع الخطوط العريضة لمشاريع الافلام . كنـا خمسة أشخاص « عبيدين للسيناريو » نعمل تحت ادارة ستينا برغمان المقتدرة والحنونة ، وكان يظهر في منطقتنا أحيانا بعض المنتجين ، مثل غوستاف مولاندر ، والذي يبقى ودودا كلما بعدت المسافة الفاصلة بيننا . قدمت له سيناريوحول مرحلة دراستي في المدرسة فاعجب به ونصح باخراجه . وهكذا اشترت

الشركة السيناريو ودفعت لي خمسة آلاف كرون ، وهو مبلغ ضخم جدا ، وعهدت باخراج الفيلم الى آلف سيوبرغ الذي كنت معجبا به . وفي وقت لاحق استطعت أن أشق طريقي الى داخل الاستوديو .

كان اقتراحي بأن أعمل أثناء الفيلم كسكريبت ، وكان كرما من آلف سيوبرغ أن يوافق فأنا لم أجرب المشاركة بتصوير الافلام حتى الآن ولم تكن لدي فكرة عن طبيعة عمل السكريبت ، وأثناء التصوير كنت شخصا مزعجا وشكلت عبئاً عليهم ، فكنت انسى وظيفتي الاساسية وأتدخل بعمل المخرج الى أن وجه الي اللوم فحبست نفسي في غرفة ضيقة وبكيت . لكنني لم أستسلم ، ففرص الاستفادة والتعلم من خبرات هذا المخرج الكبير كانت غير محدودة .

تزوجت إلزافيشر ، وكانت زميلتي في أيام الجولة الاخيرة وتعمل راقصة ومصممة للرقصات ، وتعتبر موهوبة جدا . كانت لطيفة وذكية ومرحة وعشنا في شقة بابراهامسبرغ . قبل اسبوع واحد من زواجنا هربت منها ، ثم عدت اليها ورزقنا بطفلة في الامسية التي سبقت ليلة الميلاد عام ١٩٤٣ .



أثناء تصوير فيلم (الأزمة) تلقيت عرضا بادارة المسرح المحلي في هيلسنبورغ ، وكان واحدا من أقدم المسارح المحلية في البلاد وقد أغلق لفترة ما . تحمس الوطنيون من أهل المدينة لاعادة افتتاحه واتصلوا بالعديد من المسرحيين الذين رفضوا العرض بعد اطلاعهم على المعطيات الأولية والأحوال المالية للمسرح ، فاتصلوا أخيرا بالناقد المسرحي هربرت جرفينوس وطلبوا مشورته فاقترح عليهم بأنهم اذا كانوا يبحثون عن شخص مهووس بالمسرح ، وموهوب ويتمتع بالمهارات الادارية الكافية (كنت قد ادرت مسرحاً للاطفال في المركز المدني لمدة

سنة) فان عليهم ان يتحدثوا الى برغمان . وبعد تردد قصير عملوا بنصيحته .

اشتريت أول قبعة في حياتي ووضعتها على راسي لأعطي انطباعا بالثبات الذي كنت أفتقر اليه تماما ، وسافرت الى هيلسنبورغ لالقي نظرة على المسرح . كان في حالة مروعة ، وبناؤه قذر ومتداع . وكانت الشركة تقدم عرضين اسبوعيا وتشير احصائياتها الى ان العرض الواحد يحضره جمهور مؤلف من ثمانية وعشرين شخصا .

احببت هذا المسرح منذ اللحظة الأولى .

قدمت لائحة بالمطاليب : يجب تغيير الشركة وتصليح البناء واعادة تجهيزه وزيادة عدد المسرحيات، والمباشرة بجمع التبرعات. ويالدهشتي إذ وافقت الادارة على مطالبي واصبحت اصغر مدير للمسرح في تاريخ البلاد ، وبوسعي اختيار من أشاء من الممثلين والفنيين ، وكانت مدة عقدي ثمانية أشهر وعلي أن أتدبر اموري بأفضل شكل ممكن .

كان المسرح مليئا بالبراغيث التي اكتسبت الشركة القديمة مناعة ضدها ، أما الاعضاء الجدد ذوو الدماء الشابة فقد تعرضوا للقرص بشدة ، وكانت أنابيب الماء الممتدة من المطبخ تخترق غرفة ثياب الرجال والبول يسيل من المراحيض على المكيفات المثبتة بالحائط ، واجهزة التدفئة تعمل بشكل سيء ، وعندما نزعوا ارضية الصالة وجدوا مئات من الجرذان الميتة والتي تسممت بدخان فحم الكوك ، أما الجرذ الحي الوحيد فكان قويا ولا يخشى الظهور أبدا ويهاجم قط مهندس المسرح، فيفر القط السمين هاربا .

لا أريد أن يثيرني الحنين ، لكن هذا المكان كان بالنسبة لي جنة على الأرض . كانت خشبة المسرح مهترئة وقذرة لكنها كانت تنحدر بانسياب تجاه أضواء المقدمة ، الستارة مرقعة وممزقة ولكن مطلية

بالأحمر والأبيض والذهبي . وكانت غرف الملابس بدائية وضيقةومجهزة بأربع مغاسل ، وكان هناك مرحاضان فقط لثمانية عشرة شخصا .

كنا نجري البروفات ونقدم العروض باستمرار . في السنة الأولى قدمنا تسع مسرحيات خلال ثمانية أشهر وفي السنة الثانية عشر مسرحيات ، وكنا نتدرب على المسرحية الواحدة لمدة ثلاثة أسابيع ثم يكون الافتتاح .

لم نقدم اية مسرحية أكثر من عشرين عرضا ، باستثناء رڤي[1] راس السنة الذي كان نجاحه باهرا فعرضناه خمسا وثلاثين مرة . كانت حياتنا اليومية مرهونة بالمسرح ، منذ التاسعة صباحا وحتى الحادية عشر ليلا ، وكنا نلهو قليلا لكن أحوالنا المادية تحد بقسوة من ابتهاجنا ، فيحظر علينا دخول مطعم الفراند الفاخر ويرحب بنا صاحب مطعم متواضع ويعد لنا طبقا خاصا من اللحم مع البيرة والشنابس ويتسامح معنا بالدفع ، وبعد بروفات أيام السبت كنا نتناول شوكولا ساخنة مع كريم مخفوق رائع المذاق (كانت ايام حرب) بالاضافة الى كعك شهي في مقهى فالمن للحلويات بستورتورغت .

استقبلنا اهل هيلسنبورغ بكرم ومودة ، وكان بعض مواطنيها البارزين يدعوننا الى وجبات طعام متأخرة في بيوتهم ، وكان هناك صاحب متجر ثري يقدم لنا الطبق اليومي مقابل كرون واحدة ويؤجرنا غرفا في بناء قديم يعود زمنه الى القرن الثامن عشر تغطي واجهتهنباتات الڤيرجينيا المتسلقة ، ونتزود بالماء فيه بواسطة مضخة يدوية موجودة في الفناء .

المرتب الأعلى كان ٨٠٠ كرون والأدنى ٧٠٠ كرون . تدبرنا أمورنا بأفضل طريقة ممكنة ، فكنا نستدين ونأخذ سلفا ولم يفكر أحد مــ

---

(١) عمل مسرحي يتألف من مزيج من الحوار والرقص والغناء .

بالاحتجاج ضد هذه الظروف البائسة . كنا نشعر بالامتنان لهذهالثروة المذهلة التي نملكها والتي تتمثل بامكانية تقديم العروض المسرحية واجراء البروفات كل يوم . ونجح عملنا وكوفئنا عليه بعدد الحضور الكبير ، وبدأت صحف استوكهولم تشير الى عروضنا ونهضتنا المعنوية. أقبل ربيع ذلك العام مبكرا فذهبنا برحلة الى ارليد ، واقمنا عند طرف غابة تطل على شاطيء البحر وتناولنا طعامنا المعلب وشربنا نبيذا احمر سيئا ، فثملت بسرعة وألقيت خطابا مشوشا واشرت بمصطلحات وتعابير قاتمة الى أننا نحن العاملين في المسرح نعيش من روح الله وقد اختارتنا العناية الإلهية لنتحمل الألم والفرح . قام أحدهم وأدى دوراً لمارلين ديتريش تقول فيه : « عندما يكون عيد ميلادك سأكون ضيفتك الليلة كلها » . لم يعد أحد يستمع الي ، وسرعان ما بدؤوا يتحدثون بأمور أخرى ونهض بعضهم للرقص ، فشعرت بأنه اسيء فهمي ، فانسحبت بعيدا وتقيأت .

لم اصطحب زوجتي أو ابنتي الي هيلسينبورغ ، فقد حدث أن أصيبتا بالسل في الربيع وذهبت إلزا لتلقي العلاج في مصح خاص قرب الفستا حيث كانت رسوم العلاج تعادل راتبي الشهري ، وبعثنا بلينا الى مستشفى ساشسكا للاطفال ، واستمررت بتحرير النصوص لشركة سفنسك فيلم حتى أتمكن من مساعدتهما .

كنت وحيدا في إدارة المسرح ، يساعدني مدير مالي ، وهو شخص متميز يمتلك عددا من محلات الخردة في استوكهولم ، وكان قد عمل لسنوات عديدة في مسرح البولفار برنيغفاغن ، حيث قدمت عددا من المسرحيات ، وعندما عرضت عليه مرافقتي للعمل في هيلسنبورغ وافق دون تردد . كان ممثلا هاويا ويحب تأدية أدوار ثانوية ، وكان أعزب يعشق امرأة شابة وله شكل منفر ، ويعتبرني شخصا مجنونا ، لكنه يبتسم دائما ويطلب مني ان أقرر شأنا ما ، فكنت أتخذ القرار بقسوة وقلب متحجر ، مما زاد احساسي بالوحدة .

كان من المفترض أن تعمل الزا مصممة للرقصات في المسرح لكنهـا وبسبب مرضها أوصت باحدى صديقاتها وهي هيلين لوندستورم التي كانت قـد تزوجت لتوها من أشـهر المصورين الفوتوغرافيين آنذاك ، كريستر ستورمهولم . وهكذا حضرت الى هيلسنبورغ وسافر زوجها الى افريقيـا . كانت هيلين فتاة رائعـة الجمال ، موهوبة وصادقـة وشهوانية للغاية .

ساد جو من الارتباك اللطيف في الشركة ، وظهرت حالات من الغيرة لفترة ما . كان المسرح بيتنا ولـم يمنع هذا من أن يشـعر كل منـا بالاضطراب وبالحاجة الماسة الى رفيق .

بدأت علاقتي مع هيلين وسرعان ما أثمرت حملا . وفي ليلة الميلاد التقيت إلزا في استوكهولم بعـد أن سمح لها الاطباء بزيارة أمهـا . أخبرتها بما حدث وقلت لها إنني أريد الطلاق . ما زلت أحتفظ في ذاكرتي بتعبير وجه الزا عندئذ إذ امتزج فيه الحزم والألم . كانت تجلس الى الطاولة في المطبخ وقد احمرت وجنتاها من المرض وأغلقت فمهاالطفولي، ثم قالت بهدوء : « عليك أن تدفع الإعالة . هل تستطيع توفيرها ، أنت أيها الشيء الفقير ؟ » . فاجبتها بمرارة : « مادام كان بوسعي أن أدفع ٨٠٠ كرون شهريا لمصحك الخاص اللعين فلا شك أنني أستطيع توفير الإعالة أيضا . لا تقلقي » .

أكاد لا أتعرف على هذا الانسان الذي كنته قبل أربعين عاما . كانت محنتي عميقة وآلية القمع عندي تعمل بشكل فعـال جدا ، وبصعوبة أستطيع الآن استحضار صور تلك المرحلة . عندما كنت أشعربالخطر، كنت أعض مثل كلب خائف . لم أثق بأحد ولم أحب أحدا ولم أشتق الى أحد . استحوذ الجنس علي فكان يدفعني الى خيانات دائمةوكانت تعذبني الرغبة والخوف والألم والاحساس بالذنب .

وهكذا كنت وحيدا ومهملا ، وكان العمل في المسرح يخفف بعضا من التوتر الذي كان يزول في لحظات النشوة والثمالة . كنت أعرف انني أمتلك قوة مقنعة وان بوسعي ارغام الناس على فعل ما أريد ، وان لدي جاذبية خاصة أوظفها حسب رغبتي ، وكنت اعرف أيضا ان لدي موهبة لأن أكون خائفا ينتابني الاحساس بالذنب ، فقد عرفت منذ طفولتي الكثير عن آلية الخوف . وباختصار ، كنت رجلا ذا سلطة لا يعرف كيف يستمتع بها .

كنا نشعر على نحو غامض بالحرب العالمية المستعرة حولنا . وعندما اخترق فضاء المدينة سرب طائرات اميركية ، مخترقا حاجز الصوت ، ضاعت كلمات الممثلين ولم نعد نسمع شيئا .

أتساءل أحيانا كيف تبدو طريقة عملنا ، فعندما أبدأ لا يكون لدي سوى بعض الصور الفوتوغرافية وقصاصات جرائد مصفرة اللون . أوقات البروفات قصيرة ، وكل ما حققناه كان يشبه حيلة مركبة بسرعة، واعتقد ان هذا جيد ومفيد . يجب أن يواجه الشباب باستمرار تجارب واختبارات جديدة ، يجب أن تجرب الأداة وتمارس جيدا ، فالتقنية لا تتطور الا من خلال التواصل الثابت والمستمر مع الجمهور . في العام الاول أخرجت خمس مسرحيات ، ورغم أن النتائج مشكوك فيها الا انني أعتقد أنها كانت تجارب مفيدة . ولم يكن احد منا يتمتع بالادراك الكافي والخبرة الحياتية العميقة من أجل سبر أغوار وخفايا دراما ماكبث .

غادرت المسرح ذات ليلة وتوجهت الى المنزل عندما بدأت أشعر بالقلق فجأة حول الطريقة التي سأعالج بها ظهور الساحرات الثلاث في المسرحية . تصورت ماكبث وزوجته في السرير ، الليدي ماكبث مستغرقة في نومها وماكبث بين الحلم واليقظة ، تمر على الجدار بسرعة أخيلة محمومة ، ثم تظهر الساحرات من الارض ويقفن عند مقدمة السرير ، يتهامسن ويضحكن ضحكات خافتة وأذرعهن تتحرك باتجاه

واحد مثل اعشاب مغمورة بالماء . وفي الكواليس يقوم احدهم بطرق اصابع البيانو بصخب وعنف ، ينهض ماكبث من فراشه نصف عاري ويشيح بوجهه بعيدا متجاهلا وجود الساحرات .

توقفت في الشارع المقفر ، وبقيت واقفا لبضع دقائق وانا احدث نفسي قائلا : « اللمنة ، انني موهوب .. انني مدهش حقا .. » .انفجار داخلي جعلني اشعر بالدفء والدوار ، لقد ظهرت فجاة وسط بؤسي وشقائي ثقة بالنفس لا تتزعزع وانبثق عمود فولاذي من بين انقاض روحي المتداعية للسقوط .

لقد حاولت الى حد بعيد أن اقلد معلميّ ، آلف سيوبرغ وأولوف مولاندر ، فكنت أسرق منهما ما يمكن سرقته وارقعه مع الشيء الخاص بي . لم تكن لدي خبرة نظرية كافية . قرأت بعضا من ستانسلافسكي الذي كان شائعا بين الممثلين الشباب فلم أفهمه ولم أرغب بفهمه . كذلك لم تسنح لي الفرصة لان اشاهد عروضا مسرحية خارج البلاد . كنت عبقريا ريفيا ثقف نفسه بنفسه .

ولو أن أحدا قد سألني وأصدقائي عن سبب نشاطنا المستمر دون توقف لما استطعنا اجابته . بنينا مسرحا لاننا بيننا مسرحا . كان يجب أن يقف شخص ما على الخشبة ويخاطب الناس الجالسين في الظلام ، كانت ضربة حظ أن نكون نحن وليس غيرنا ، واقفين هناك . كان كل شيء رائعا رغم أن النتائج لم تكن مؤكدة دائما . أردت أن أكون بروسبيرو ، لكنني كنت غالبا اتصرف مثل كاليبان .

بعد عامين من الجهد والحرث استدعيت الى غوتنبرغ فرحلت اليها يملؤني حماس وثقة بالنفس لا تتزعزع .

* * *

- ١٢ -

كان تورستن هامرن في الثانية والستين من العمر وقد شغل منصب مدير مسرح مدينة غوتنبرغ منذ تأسيسه عام ١٩٣٤ ، وعمل قبل ذلك مديراً لمسرح لورنسبرغ ، وكان ممثلاً مدهشاً .

كان يتمتع بمكانة مرموقة ، وتعتبر شركته الافضل في البلاد ، وتضم كنوت ستروم ، المنتج الاول في المسرح ، ثوري قديم تمرن على يدي رينهاردت ، وهيلفا ولغرن ، الصموتة والحادة والدقيقة ، وكان المسرح يضم أيضا عددا من الممثلين الذين عملوا سوية لسنوات طويلة ، دون أن يعني هذا بالطبع ان أحدهم كان يحب الآخر .

في مطلع خريف عام ١٩٤٦ انتقلت مع هيلين والطفلين الى غوتنبرغ وكنت قد بلغت الثامنة والعشرين . كان العاملون بالمسرح مشغولين ببروفات الملابس لمسرحية (سوناتا الأشباح) ، وكان أولوف مولاندر المنتج الفني . تسللت الى مؤخرة الخشبة الواسعة الغارقة في العتمة واسترقت السمع الى أصوات الممثلين الموجودين في مقدمة الخشبة ولمحت بعضهم اثناء عبوره دوائر الضوء . وقفت اتأمل المسرح الضخم حيث الامكانيات كلها ، والممثلون الكبار ، والمهمات الكبيرة . لا أود أن أقول إنني شعرت لحظتها بالخوف . لقد كنت أرتعش .

وفجأة لم أعد وحدي إذ وجدت بجانبي مخلوقاً ضئيل الحجم ، وربما كان شبحاً . كانت ماريا شيلدنيشت ، عجوز المسرح ، وقد ارتدت زياً على هيئة ببغاء واخفت وجهها وراء قناع مومياء شنيع . « اعتقد إنك السيد برغمان » سألتني هامسة وابتسمت على نحو لطيف ، ولكن مروع . أكدت لها هويتي وانحنيت محيياً بشكل غير ملائم . وقفنا

صامتين للحظات ، ثم عادت تسألني بصوت قوي ومتحد : « ما رأيك بهذا إذاً ؟ » . فأجبتها بصراحة : « إنني أعتبر هذه المسرحية من أعظم الأعمال في تاريخ المسرح » . نظرت المومياء إلي بازدراء وقالت : « أوه ، إنه مجرد خراء تفوطه سترندبرغ من أجل أن نقوم نحن بتمثيله في مسرحه المفضل » وأومأت إلي بلطف وانصرفت ، ثم ظهرت على خشبة المسرح بعد دقائق تجر ثوبها وتحركه كأنها ببغاء يفرد ريشه .

إنها باقية في هذا الدور الذي تكرهه مع المخرج الذي تكرهه أيضاً .

كانت تجربتي الأولى في هذا المسرح (كاليغولا) لكامو ، وقام بأداء الدور الرئيسي اندرس إيك ، صديقي من أيام استوكهولم المثيرة .

وقف حشد الممثلين البارزين حولنا ، يتأملنا ، نحن المبتدئين ، بارتياب ونوايا سيئة ، بعد أن وُضعت تحت تصرفي كل امكانيات المسرح المادية والتقنية .

ذات يوم ، وأثناء إحدى البروفات ، دخل تورستن هامرن الى القاعة دون أن يعلن عن حضوره وجلس يراقب عملنا في لحظة لم تكن مناسبة أبداً . فاندرس إيك كان يرسم خطوط حركته في حين انشغل باقي الممثلين بقراءة أدوارهم . وبسبب نقص الخبرة فقدت السيطرة على مجرى الأحداث واستطعت أن أسمع أنين هامرن وهو يتململ في مكانه ، الى أن فقد صبره في النهاية ، فنهض وصاح : « الى ماذا تسعون بحق الجحيم ؟ أتعتبرون الأمر صلوات خاصة ؟ لعبة فاخرة ؟ ماذا تفعلون بحق الجحيم اللعين ؟ » .

واندفع الى المنصة وهو يلعن ويتوعد وبدأ يجادل أقرب الممثلين اليه ، فتمتم الممثل المتهم بشيء ما حول الإرتجال والأساليب الجديدة ونظر إليّ شزراً ، فقاطعه هامرن بحدة وأخذ يجري تعديلات على المشهد . انفجرت غاضباً وصرخت معلناً بأنني أرفض التعدي ولغة

القوة . فرد هامرن وهو يدير ظهره إلي : « اجلس واخرس فربما تتعلم شيئاً ما في النهاية » . احسست بشرايين الدم تتفجر في داخلي فصرخت من جديد وقلت إنني لن اتحمل هذا . فضحك هامرن وصاح بعدوانية : « إذاً باستطاعتك ان تذهب الى الجحيم ايها العبقري الريفي التافه » . اندفعت صوب الباب ، وجاهدت حتى فتحته وغادرت المسرح كالزوبعة.

في صباح اليوم التالي اتصلت بي سكرتيرة المدير واخبرتني بأن عقدي سوف يلغى إذا لم أحضر بروڤات اليوم .

هدأ غضبي للحظة ، ثم عاد وتجمع ثانية فهرعت الى المسرح لأقتل هامرن ، وهناك التقينا على نحو غير متوقع عندما اصطدم احدنا بالآخر عند زاوية الممر . وجدنا الأمر طريفاً وبدأنا نضحك . عانقني هامرن وفي تلك اللحظة أحسست بقلبي أنه الأب الحقيقي الذي كنت بحاجة إليه منذ أن حرمني الله منه ، وقد قام بهذا الدور بصدق وضمير طوال السنوات التي عملت فيها بمسرحه .

تبدأ مسرحية كاي مونك (الحب) مع حفلة كاكاو .

يدعو الكاهن زملاءه من الأبرشية لمناقشة موضوع بناء سدود مواجهة للبحر ، ويجلس على خشبة المسرح ثلاثة وعشرون ممثلاً تتفاوت حجوم أدوارهم . لقد وزع هامرن الممثلين بطريقة جيدة ، حتى أولئك الذين لا يتحدثون أبداً اثناء المسرحية وكانت تعليماته مفصلة للغاية بحيث تمثل اختباراً لصبر الآخرين . عندما يقول كولبورن جملته حول الطقس الشتوي يتناول قطعة كعك ويحرك فنجان الكاكاو بالملعقة . يطلب هامرن منه أن يجرب هذا ، يجربه ، فيدخل هامرن تعديلاً . تقوم واندا بصب الكاكاو بيدها اليسرى وتبتسم بلطف لبنكت ــ اكي عندما تقول : « أنتم بحاجة إليها فعلاً » . ويستمر الممثلون بالبروڤات والمخرج يوجههم .

أعتقد أن المخرج هو حفار قبور ، وهنا يكمن فساد المسرح .

ويتابع هامرن عمله بثبات .

يطلب من الممثلين تقديم اقتراحاتهم بشأن ما . يوافق عليها ، ويستمر الممثلون .

كنت اراقب وافكر : لقد استطاع هذا المخرج العجوز المصنوع من الشمع ان ينتزع عفوية المشهد ويقتله . بقيت واقفاً أتابع عمله ، ربما بدافع فضولي وتجسسي . كان يلغي التوقفات أو يضيفها أحياناً ، يزن حركات المثلين بدقة ويربطها مع نبرات أصواتهم وبالعكس ، وأنا أتابع واتثاءب كقط خبيث . وبعد عدة ساعات من الإعادة والتدخل والتصحيح والإقحام ، اعتبر هامرن الوقت مناسباً لأداء المشهد منذ بدايته وحتى نهايته .

وعندئذ حدثت معجزة :

تدفق الحوار سهلاً ومدهشاً ، متناسباً مع كل التلميحات والنظرات والمعاني المستترة . كان الممثلون يشعرون بالأمان أثناء عبورهم مساحات الخشبة ويخلقون شخصياتهم بكل حرية ويرتجلون بدقة وبلا توقع ، وكل منهم يحترم الآخرين والإيقاع الواحد .

كان درسي الأول تدخل هامرن أثناء بزوفات (كاليغولا) ..

يجب ان يكون الإخراج واضحاً وموجهاً ، لا وجود فيه لغموض النوايا والمشاعر ، ويجب أن يتوجه الممثلون للجمهور بإشارات بسيطة ونيرة بحيث يتلقى المشاهد الأحداث الجارية في لحظتها ، ثم يلي ذلك من حيث الأهمية صدق التعبير . إن الممثل الجيد يملك دائماً مصادر كافية ليؤدي دوره كوسيط الحقيقة التي يراد التعبير عنها .

وكان درسي الثاني حفلة الكاكاو في مسرحية كاي مونك (الحب) ..

إن التمثيل هو فعل تكرار ، ولهذا فإن كل مساهمة يجب أن تنشأ عن التعاون الطوعي بين الأطراف المعنية . إذا اجبر المخرج ممثليه على ان يعملوا وفق طريقته فسوف يصل الى ما يريد ، اما إذا ترك لهم حرية التصرف فسوف يقوم كل ممثل بمراجعة دوره وفق رؤيته الخاصة ، مما سيؤدي في النهاية الى فشل عرض تنقصه الحرارة والمتعة إلا إذ بقي المخرج يتابع عن قرب جميع ممثليه . للوهلة الأولى تبدو حفلة الكاكاو عرضاً (تنقصه الحرارة) ، لكن الحقيقة أن الممثلين كانوا يرون فرصهم داخل الحدود المرسومة ، وكانوا ينتظرون بفرح اللحظة التي يستطيعون فيها تطعيم المشهد بإبداعهم الخاص . وهكذا فإن حفلة الكاكاو لم تفشل ابداً .

ذات يوم ، لمحت تورستن هامرن وهو يقلب صفحات دفتر عملي الذي لم يكن يضم رسماً واحداً ، وعندما شاهدني سأل بسخرية : « إذاً فأنت لا ترسم مشاهدك » . فأجبته : « كلا ، أنا أفضل أن أخرج مباشرة ومع الممثلين » . فقال وهو يغلق الدفتر بقوة : « سنرى الى متى سيبقى بوسعك تحمل هذه الطريقة » .

وسرعان ما ثبتت لي صحة كلامه ، ومنذ ذلك الحين وانا أقوم بتحضير أدق التفاصيل وأرغم نفسي على رسم كل مشهد ، بحيث أنني عندما ابدأ البروفات أجد كل لحظة من العرض جاهزة ، وتكون تعليماتي واضحة وعملية ومشجعة . إن من يحضر عمله بشكل جيد وحده يمتلك الفرصة للارتجال .



كبرت عائلتي . ففي ربيع عام ١٩٤٨ رزقت بتوءم وانتقلت الى شقة بخمس غرف في ضاحية جديدة خارج غوتنبرغ ، وكان لدي غرفة صغيرة بالمسرح أمضي فيها الأمسيات وأحرر النصوص واكتب مسرحيات وسيناريوهات أفلام .

انتحر زوج والدة هيلين تاركاً خلفه ديوناً كثيرة ، فانتقلت هي وابنها الصغير وأقاما معنا في غرفة مكتبي المجاورة لغرفة نومنا . وكانت تمضي ليالي كاملة وهي تبكي . وانضمت إلينا ابنتي الكبرى لينا لأن زوجتي السابقة إلزا كانت لا تزال متوعكة ، واكتملت الأسرة بوجود شخص عابث ولكن لطيف ، يساعد في ادارة شؤون المنزل . كنا عشرة أشخاص ، ولم يكن لدى هيلين الوقت الكافي لتخصصه لمهنتها ، وزادت التعقيدات المالية من سوء الوضع ، وتوقفت حياتنا الجنسية ، التي كانت خلاصنا، بسبب الجدار الرفيع الفاصل بيننا وبين والدة هيلين في الغرفة المجاورة.

كنت في الثلاثين وقد طردتني شركة سفنسك فيلم بعد اخفاق فيلم (الأزمــة) . تأزمت احوالي المادية وبدأت تدور في المنزل مشاحنات قاسية حول النقود . كنت وهيلين شخصين مسرفين ولا مباليين .

احرز فيلمي الرابع نجاحاً متواضعاً والفضل يعود الى حكمة وصبر لورنس مارمستد ، ذلك المنتج العبقري الذي كان يعيش ويحارب في سبيل أفلامه ، بدءاً من السيناريو وانتهاءً بالعرض .

لقد علمني كيف أصنع الأفلام .

بدأت التنقل بين غوتنبرغ واستوكهولم حيث استأجرت غرفــة في البيت الداخلي التابع للآنسة نيلاندر . كانت عجوزاً ارستقراطية لهــا جسد ضئيل وشعر أبيض لامع وعينان داكنتان ووجه شاحب يغطيه مكياج متقن ، وكان قد عاش في منزلها ممثلون عظام اعتنت بهم وكأنها امهم . كانت خيرة ، تتغاضى عن التجاوزات في أساليب الحياة وعن المشكلة الرئيسية التي تؤرق قاطني بيتها : دفع الأجرة .

لم أكن سعيداً في غوتنبرغ . كانت مدينة معزولة ، والمسرح فيها عالم محدود لا يتحدث أحد فيه إلا عن المهنة . أما المنزل فيضج بالأطفال الباكين والمرأة الناحبة والغسيل وأحاسيس الغيرة الغاضبة التي كانت

دقيقة تماماً في معظم الأحيان . كل طرق الهروب كانت موصدة ، وأصبح الخداع أمراً إلزامياً .

كانت هيلين تعرف أنني كاذب وكان إحساسها باليأس مزعجاً . طالما توسلت إلي أن اخبرها بالحقيقة ولو لمرة واحدة لكنني لم استطع ذلك لأنني لم أعد أعرف أين تكمن الحقيقة . في لحظات السلام القصيرة بين المعارك كان احدنا يشعر تجاه الآخر بالتعاطف والتسامح والمودة العميقة .

كانت صديقاً جيداً وقوياً ، ولو كانت ظروفنا أقل كآبة لاستمتعنا بحياتنا . لكننا لم نكن نعرف شيئاً عن انفسنا واعتقدنا ان الحياة يجب ان تكون كما هي عليه . لم نتذمر من الظروف ولم نندم على شيء . كنا نحارب ونحن مقيدون سوية ، لكننا كنا نغرق .

منحني تورستن هامرن فرصة إخراج اثنتين من مسرحياتي في الأستوديو ، وكان هذا قراراً شجاعاً وصعباً . لقد سبق أن اخرج بعضهم عدداً من مسرحياتي التي لاقت استحسان النقاد فقالوا إن برغمان مخرج جيد وموهوب لكنه كاتب سيء ، وكانوا يقصدون بالسيء انه هاو ومدع ومتقلب وصعب وعاطفي وسخيف وفقير وكئيب .. وهكذا .

وبدأ أواوف لاغركرانتز ، الذي كنت معجباً به ، يلاحقني على صفحات الجرائد وعندما أصبح المحرر الثقافي في جريدة داغنز نيتر اتخذت هجماته طابعاً ساخراً ، فقد كتب عام ١٩٥٥ حول فيلم (ابتسامات ليلة صيف) : « خيال فقير لشاب متقلب ، أحلام متغطرسة لقلب هاو واحتقار لا حدود له للحقيقة الإنسانية والفنية . هذه هي القوى التي صنعت هذه « الكوميديا » . اشعر بالخجل حقاً لأنني شاهدتها . » .

اليوم لا تتعدى هذه الكلمات مجرد طرفة مضحكة ، أما في ذلك الوقت فكانت أقراص سم احدثت كثيراً من الضرر والمعاناة .

أما توزستن هامرن ، ذلك الرجل الشجاع والمدهش ، فقد ظل ملاحقاً من قبل احد نقاد غوتنبرغ لسنوات عديدة . وعندما قدم عرض (بيكون) انتهز الفرصة خلال فترة الاستراحة بين الفصلين وظهر امام الستارة وطلب من الجمهور بعض الانتباه ، وبدأ يقرأ النقد القاسي الموجه اله ، فكافأه الجمهور بعبارات من التعاطف الهائل . توقف الناقد عن الملاحقة العلنية واستبدل بها نوعاً آخر أكثر تعقيداً واخذ يروج الشاعات قذرة عن علاقة زوجة هامرن ، الممثلة ، مع أقرب اصدقائه في المسرح .

واليوم اجد نفسي اتخذ موقفاً مهذباً ، بل ودوداً تجاه قضاتي . فذات مرة وجهت ضربة لأحد النقاد المفسدين فسقط على الأرض وسط حاملات النوتات الموسيقية ، وبعدها دفعت مبلغ خمسة آلاف كرون غرامة وكنت اعتبر الأمر اهم من النقود ، وان الصحيفة التي يعمل فيها لن تسمح له بنقد اعمالي ثانية . اختفى لعدة سنوات ، ثم عاد من جديد ينشر فكره السفيه على جهود سنواتي الكثيرة ، حتى إنه سافر الى ميونخ لانجاز مهمته فشاهدته في امسية ربيعية بشارع ماكسميليان ، وكان ثملاً للغاية يرتدي قميصاً ضيقاً وبنطالاً من المخمل ويحاول ان يحدث احداً من المارة لكن الجميع كانوا ينظرون اليه بازدراء ولا يردون عليه . كان واضحاً انه مريض ويعاني البرد .

في لحظة خطية فكرت ان اتوجه الى الرجل المسكين واصافحه .. بوسعنا ان نتصالح بعد هذه السنوات ، إننا هادئان الآن ، أليس كذلك ؟ لماذا يجب أن يستمر احدنا بكرهه للآخر بعد تلك الضجة ؟ لكنني سرعان ما تراجعت عن فكرتي . ثمة عدو قاتل يقف امامي . يجب أن ادمره . الحقيقة انه كان يدمر نفسه بكتاباته الفاسدة ، يجب أن ارقص

فوق قبره وأدعو له بأبدية خالدة في الجحيم حيث يستطيع أن يجلس ويقرأ مقالاته .

الحياة تتألف من تناقضات ، ويجب أن اشير هنا الى أنني اعتبر هربرت غريفينو ، وهو ناقد مسرحي ، واحداً من أعز أصدقائي . إننا نلتقي يومياً في المسرح الدرامي الملكي ، وأثناء كتابتي لهذه الأسطر يكون قد بلغ السادسة والثمانين عاماً ، ولا يزال يتحدى بقوة ويدخن خمسين سيجارة في اليوم .

عندما كنت في أسوأ حالاتي ، كا نتورستن هامرن وهربرت غريفنيو يقفان الى جانبي كملاكين قويين غير قابلين للفساد . تعلمت الحرفة من هامرن ، وتنظيم الأفكار من غريفينو . لقد جبلاني ووضعاني على الطريق الصحيح .

كانت المقالات السيئة والإساءات المعلنة تعذبني . وذات مرة قال لي غريفنيو : « تصور أن أمامك خطاً مرسوماً بالطبشور . انت تقف الى جانب والناقد يقف الى الجانب المقابل ، وكل منكما يستعرض حيله للجمهور .. » . ساعدتني هذه الكلمات . وفي مناسبة أخرى كنت أجري بروفة مع ممثل رائع لكنه سكير ، عندما مخط هامرن وقال : « تصور أن السوسن ينبت أحياناً من الجثث النتنة » . شاهد غريفنيو أحد أفلامي واعترض لوجود فجوة في منتصف الفيلم ، فدافعت عن نفسي بان الممثل كان يجب أن يؤدي دور شخص متوسط المقدرة ، فأجاب غريفينو : « يجب الا يؤدي شخص متوسط المقدرة دور شخص متوسط المقدرة ، ولا امراة فظة دور امراة فظة ولا مغنية أوبرا مغرورة دور مغنية أوبرا مغرورة . » . وقال هامرن : « الممثلون هم الشيطان بعينه . ما أن يلصقوا وجهاً بأنفسهم حتى يفقدوا ذاكرتهم » .

* * *

١٣

لم اكن قد سافرت الى خارج البلاد ، باستثناء تلك المرة الوحيدة ، عندما أمضيت ستة أسابيع في ألمانيا . وها أنا أسافر من جديد برفقة صديقي وزميلي في الفيلم بيرغر مالمستن لنمضي بعض الوقت في كتابة سيناريو الفيلم الجديد ، في قرية جبلية بين مدينتي كان ونيس ، قرية لم يكن يعرفها السياح من قبل إذ كان يقصدها حصراً الرسامون وفنانون آخرون . كانت هيلين قد ارتبطت بعمل في مسرح ليزنبرغ بغوتنبرغ ، وبقيت أمها تعتني بالأطفال ، وكانت أحوالنا هادئة ووضعنا المادي قد تحسن قليلاً بعد أن انتهيت من تصوير فيلم ووقعت عقداً لإخراج فيلم جديد أثناء الصيف . وصلنا الى القرية الجبلية . وكانت تدعى كان — سور — مير ، ونزلت في غرفة مشمسة تطل على حقول القرنفل في الوادي ، تجاه البحر الذي كان يتلون أحياناً كثيرة بلون النبيذ ، كما قال هوميروس .

سرعان ماالتهمت امرأة انكليزية ، جميلة ولكن مستهلكة ، صديقي بيرغر مالمستن . كانت تكتب الشعر وتعيش حياة محمومة . أما أنا فبقيت وحيداً أجلس في الشرفة وأكتب سيناريو الفيلم الذي يجب أن نبدأه في آب . كان زمن التحضير واتخاذ القرار قصيراً في تلك الأيام . وكان عنوان الفيلم (الفرح) ويروي قصة عازفين شابين يعملان في فرقة هيلسنبورغ السيمفونية ، لكنه في حقيقة الأمر كان عن قصتنا أنا وهيلين ، عن الظروف التي يوجدها الفن وعن الإخلاص والخيانة . فيلم سوف تتخلله الموسيقا منذ بدايته وحتى نهايته .

بقيت اعمل وحدي دون أن التقي او احدث احداً ، وفي الليل كنت أثمل فتأخذني صاحبة الفندق العجوز الى فراشي وهي تعبر عن قلقها

تجاه عادتي في شرب الكحول . وفي التاسعة صباحاً ، رغم أية ظروف ، أكون جالساً وراء طاولة عملي تاركاً المجال للآثار التي خلفها اسرافي في الشراب لأن تساعد على تكثيف ابداعي .

بدأنا انا وهيلين ، يكتب كل منا للآخر رسائل لطيفة وحريصة . تحت تأثير الأمل بمستقبل ممكن لزواجنا المعذب تحولت صورة الشخصية النسائية الأساسية في الفيلم الى معجزة من الجمال والصدق والحكمة والوفاء الانساني ، أما شخصية الرجل فقد أصبحت بالمقابل مغرورة ، خادعة ، مدعية وكاذبة .

بدأت تغازلني رسامة أميركية من أصل روسي بخجل ولكن باصرار. كان جسمها رياضيا وعيناها سوداوان ولامعتان ، وفمها كريم . كانت تشبه تمثال امرأة أمازونية تشع منها شهوانية مثيرة . لكن اخلاصي لزواجي حثني على عدم التورط بعلاقة معها ، فبقيت هي ترسم وأنا أكتب . شخصان وحيدان في جو من الزمالة الابداعية غير المتوقعة .

جاءت نهاية الفيلم مأساوية ومروعة .انفجر موقد الكيروسين بالشخصية النسائية (ربما كان الأمر رغبة سرية حقيقية) ، ونسمع الحركة الأخيرة من سيمفونية بيتهوفن التاسعة وتدرك الشخصية الرئيسية أنه يوجد « فرح أعظم من الفرح » . (وهي حقيقة لم أدركها إلا بعد مضي ثلاثين عاماً) .

انتزعت بيرغر مالمستن من براثن ڤينوس وودعنا صاحبة الفندق وعدنا الى بلدنا . وبعد قليل من التردد تمت الموافقة على السيناريو .

كان لقائي مع هيلين سريعاً وغير ناجح تماماً . كنت أشعر بغيرة فظيعة بعد اكتشافي أن هيلين كانت تعبث مع أحد الممثلين ، سوينا الأمر الى حد ما وسافرت الى استوكهولم وبدأت تصوير الفيلم حيث يقوم فيه بيرغر مالمستن وستيغ أولن بأداء نموذجين مختلفين للرجال ، وحيث

نجحت ماي ـ بريت نلسون بأداء دور الزوجة المثالية اليائسة بشكل مقنع للغاية .

تم تصوير المشاهد الخارجية في هيلسنبورغ . وذات ليلة في مطلع شهر آب كنا نصور مشهد الزفاف في قاعة المدينة ، وهي القاعة نفسها التي شهدت زواجي وهيلين قبل سنوات عندما جاء لمقابلتنا صحفيون من المجلة الاسبوعية (مجلة الفيلم) ، وقد حضرت معهم مديرة تحرير المجلة، إمرأة فاتنة تدعى غونيلا هولغر ومعها صديقتها غان هاغبرغ فدعوتهم لتناول العشاء في الغراند وعلى حساب الفيلم .

بعد العشاء خرجت مع غان وتمشينا . كانت ليلة دافئة وبلا رياح ، تبادلنا القبل ببهجة واتفقنا أن نلتقي عندما نعود للتصوير في استوكهولم . سافرت مجموعة (مجلة الفيلم) ونسيت الأمر برمته .

عدت الى منزلي في منتصف آب فاتصلت بي غان واقترحت أن نتناول العشاء سوية ونذهب إلى السينما بعد ذلك فشكرتها ووافقت من كل قلبي ، وأنا أشعر بطعنة الرعب .

وسارت الأمور فيما بعد بسرعة ، ففي العطلة الاسبوعية التالية ذهبنا الى تروسا ونزلنا في فندق وتوجهنا إلى السرير حيث بقينا فيه حتى صباح الاثنين . وإلى ذلك الحين اتفقنا أن نسافر الى باريس سراً حيث كان يقيم صديقي فيلغوت سيومن والذي كانت روايته الأولى بصدد اقتباسها لفيلم سينمائي يخرجه غوستاف مولاندر الذي سبق ورفض كل السيناريوهات المقدمة إلى أن استنجدت بي أخيراً شركة سفنسك فيلم ، كملاذها الأخير ، لأسافر إلى باريس وأنهي العمل مع فيلغوت العنيد . وكانت غان ستنتهز فرصة وجودها بباريس لتغطي بعض عروض الأزياء لمجلتها الأسبوعية . فعهدت بطفليها لمربية فنلندية ، وكان زوجها يزور مزرعة عائلته المنتجة للمطاط في جنوب شرق آسيا لمدة ستة أشهر .

عدت الى غوتنبرغ لاتحدث مع زوجتي بالأمر ، ووصلت في وقت متأخر حيث كان الجميع نائماً . سُرت هيلين بزيارتي غير المتوقعة ، جلست على حافة السرير دون أن انزع معطفي واخبرتها بكل شيء .

إن اي شخص يهمه الأمر ، يستطيع متابعة أحداث الجزء الثالث من فيلم (مشاهد من حياة زوجية) . ان غان على النقيض تماما من باولا التي لعبت دور العشيقة في الفيلم ، فغان امرأة من الطراز الأول ، جميلة ، طويلة ، رياضية الجسم ، لها عينان زرقاوان وضحكة عالية وشفتان ممتلئتان وهي امرأة صريحة وقوية وفخورة لكنها كانت تسير أثناء نومهـا .

لم تكن تعرف شيئا عن نفسها لانها لم تكن مهتمة بذلك . فواجهت الحياة بصراحة وصدق وشجاعة دون أيـة مقومات للدفـاع . كانت تتجاهل قرحتها المعدية التي تنفجر بين الحين والآخر ، فتتوقف عن شرب القهوة لبضعة ايام وتتناول بعض الأدوية وسرعان ما تتحسن حالتها . لم تكن تعترض على علاقتها الضعيفة مع زوجها ، فكل الزيجات تبهت عاجلاً أم آجلاً ، وتبقى الحياة الجنسية هي المرهم الوحيد المنقذ ، ولم تتأثر بأحلامها القلقة والمتكررة التي تبرزها بكثرة الطعام والشراب. كانت الحياة بالنسبة لها أمرا واقعا وساحرا في وقت واحد . كان من المستحيل مقاومة غـان .

مزق الحب قلبينا منذ البداية ، وحمل معه بذور الدمار .

سافرنا في الأول من أيلول عام ١٩٤٩ ووصلنا باريس في منتصف النهار ونزلنا في فندق عائلي حسن السمعة بشارع القديسة آنا . كانت غرفتنا مستطيلة تشبه النعش وفيها سريران منفصلان وتطل نافذتها على فناء مغلق تماما من حيث ينبعث هواء عفن ورطب . ولمزيد من المعلومات حول تفاصيل الغرفة ، يمكن العودة الى غرفة العاشقين في فيلم (الصمت) .

من شدة روعنا وارهاقنا استلقينا على أسرتنا وقد ادركت أن هذا هو العقاب الآلهي على خيانتي المطلقة . فرحة هيلين بعودتي غير المتوقعة ، ابتسامتها ، وصورتها الواضحة التي تراود مخيلتي باستمرار ، ولا تزال حتى الآن .

في صباح اليوم التالي تحدثت غان مع ادارة الفندق وانتقلنا الى غرفة اخرى مريحة تطل على الشارع ولها حمام واسع مثل صالة الكنيسة ونوافذ ملونة وانابيب تدفئة ارضية ومغسلة ضخمة . وفي الوقت نفسه استأجرت غرفة صغيرة تحت السطح فيها طاولة متزعزعة وسرير متداعٍ ، وتطل على اسطحة باريس وبرج ايفل .

أمضينا في باريس ثلاثة أشهر وكانت فترة عصيبة في حياة كل منا .

في صيف عام ١٩٤٩ صادف عيد ميلادي الواحد والثلاثين ، وكنت أعمل لمهنتي بجد ومثابرة . وجاء خريف ذلك العام في باريس دافئا وكان تجربة اثرت في سقوط جميع الحواجز . كان للحب الوقت والفرصة حتى يكبر بحرية ويفتح الغرف الموصودة ويهدم الجدران . كانت مشاعر خيانتي لهيلين والأطفال غائبة في مكانٍ ما وسط الضباب ، لكنها كانت حاضرة دائما وتحتني بشكل غريب . وخلال هذه الأشهر كان ثمة انتاج جريء يعيش ويتنفس ، كان حقيقياً ولا يقدر بثمن ، رغم ان الفاتورة التي استلمتها في النهاية كانت مرعبة جدا .

لم تكن الرسائل القادمة من المنزل مشجعة . هيلين كتبت تقول : إن صحة الأطفال سيئة ، وانها اصيبت بالأكزيما في يديها وقدميها وبدأت تفقد شعرها . قبل سفري كنت قد تركت تحت تصرفها مبلغا كبيرا من المال ، وها هي تشكو الآن انه نفد . عاد زوج غان بسرعة الى استوكهولم وأرسلت عائلته محاميا هدد باقامة دعوى قضائية اذ أن جزءا من ثروة العائلة مكتوب باسم غان .

لكننا لم ندع شيئا يزعجنا ، وكان فيض من الانطباعات والتجارب الفنية يتدفق فوق راسينا .

كان أعظم شيء اكتشاف موليير ، الذي كنت قرأت بعض مسرحياته اثناء دراسة تاريخ الأدب فلم افهم شيئا واعتبرته مبتذلا وغير ممتع .

وها هو العبقري الريفي القادم من السويد ، يجلس الآن في المسرح الكوميدي الفرنسي يشاهد (مبغض البشر) في عرض جميل وحيوي وعاطفي . كانت تجربة لاتوصف ، فالناس على خشبة المسرح كانوا يجتازون مشاعري ويدخلون قلبي . هكذا كان الأمر . ربما يبدو سخيفاً لكنه كان كذلك حقاً . دخل موليير قلبي ليبقى فيه الى آخر حياتي . إن دورة دمي الروحية والمرتبطة سابقاً بسترندبرغ فتحت الآن شرياناً باتجاه موليير .

في مساء يوم أحد ذهبنا إلى الأوديون ، المسرح الملحق بالكوميدي الفرنسي حيث كانوا يقدمون أوبرا مع موسيقا لبيزيه .

كانت القاعة مكتظة بالأهالي والأبناء والجدات والأعمام والعمات ، جميعهم ينتظرون بدء العرض . إنهم اناس لطفاء امتلأت بطونهم بوجبة يوم الأحد المؤلفة من ديك مطهي بالنبيذ ، إنهم البورجوازيون الفرنسيون الصغار في رحلة إلى عالم المسرح .

ارتفع الستار عن منظر مروع لديكور يعود الى القرن الثامن . وكانت تؤدي دور الفتاة إحدى الممثلات المنتسبات الى جمعية للممثلين وقد تجاوزت سن التقاعد . كانت تمثل بطريقة هشة ، شعرها المستعار أصفر بشكل مزعج . جميع الممثلين كانوا يخطبون وهم يسيرون أو يركضون . القت الممثلة بنفسها على أرضية المسرح عند الضوء الأمامي الساطع وعزف رجال الاوركسترا الخمسة والثلاثون موسيقا عاطفية وقوية دون أن يجهدوا انفسهم .

عندئذ سمعت أصواتاً غريبة تصدر في ظلام القاعة ، فتلفتُ حولي ولدهشتي وجدت الجميع يبكي ، بعضهم بحذر وتكتم ، والبعض الآخر بشكل علني ومتعة . وحتى السيد ليبرون الجالس إلى جانبي بشعره المشط جيداً وشاربيه المصمغين كان يرتعش وكأنه محموم . وكانت الدموع تنهمر من عينيه السوداوين على وجنتيه الورديتين ، ويداه الصغيرتان المتلئتان تهتزان فوق تجاعيد بنطاله .

واسدل الستار وسط عاصفة من التصفيق ، وظهرت الفتاة المسنة من وراء الستار وقد أعوج شعرها المستعار ، ووضعت يدها الصغيرة على صدرها العظمي ووقفت بثبات تحدق بالقاعة . كانت لا تزال في حالة النشوة ، تنصت الى صيحات التشجيع الصادقة ، شديدة الابتهاج ، كل هؤلاء الناس الذين كانوا يحجون باستمرار الى عرض يوم الاحد المسرحي ليشاهدوا حياة هذه البطلة أرلسين ، كانوا قد جاؤوا في الماضي اطفالامع جداتهم وهاهم يأتون اليوم اجداداً وجدات مع أحفادهم ، مطمئنين الى أن المدام غورلين موجودة دائماً على المسرح ، في وقت محدد ، سنة بعد سنة ، وأنها سوف تهوي بجسدها الى مقدمة المسرح . ترثي نفسها من قســوة الحياة .

كان الجميع يصيحون فرحين . لقد لامستْ قلوبهم هذه العجوزُ الصغيرة الواقفة على الخشبة المضاءة بلا رحمة . ان المسرح كالمعجزة . وتابعت أراقب بفضول هذا العرض الأساسي ، ثم قلت لغان :

« الناس الباردون يصبحون عاطفيين بسهولة » . بعد ذلك ذهبنا وصعدنا برج ايفــل .

قبل ذهابنا للمسرح تناولنا الغذاء في مطعم مميز مقابل الاوديون ، وأثناء الساعات التالية عبرت وجبة الكلاوي التي أكلناها مراحل مختلفة ، وعندما وقفنا عند قمة برج ايفل نتفرج على بانوراما المدينة بدأت عصيات الكولون تضربنا واصابتنا تشنجات حادة فهرعنا الى المصاعد لكننا فوجئنا

بانهم اغلقوها ووضعوا لافتات بأن عمال المصاعد لن يعملوا لتعاطفهم مع احتجاج عمال التنظيفات ، فاندفعنا نازلين عبر السلالم ولم يكن بوسعنا منع حدوث الكارثة . قام سائق تكسي لطيف لدرجة لا توصف بوضع صفحات جرائد على المقعد الخلفي واوصل هذين الشخصين ذوي الرائحة البشعة الفاقدين للوعي جزئياً الى فندقهما ، حيث بقينا بعدها أربعاً وعشرين ساعة نزحف على الارض ، وقد ساهمت حالتنا الجسدية البائسة في التقريب بيننا أكثر .

أصبح السيناريو جاهزاً ففادر ڤيلفوت سيومن ، وتركنا وحيدين ، ولم يعد لنا اي مبرر للبقاء في باريس . اقبلت أيام الهواء البارد وغطى الضباب برج ايفل فلم أعد أراه من أسطحة الفندق ، وكتبت مسرحية عنوانها (يواكيم عارياً) .

أرسلت النسخة الوحيدة للمسرحية الى المسرح الدرامي الملكي على امل أهوج أن يقبلوا بها ، لكنها اختفت دون أثر ، وربما كان هذا جيداً .

طفنا بالمدينة دون هدف محدد ، فكنا نضيع الطريق ، ثم نجده ، ثم نضيعه من جديد . شاهدنا بوابات مارن وحديقة صغيرة مدهشة في ضاحية بوا دو فينس .

معرض الانطباعيين في جو دي بوم . (كارمن) لرولاند الأصفر . (كونشيرتو لليد اليسرى) لرافيل في مسرح الشانزليزيه . مسرحية (فيدرا) لراسين . أوبرا (هلاك فاوست) لبرليوز في الأوبرا الكبيرة . باليه بالانشين . السينماتيك . افلام ميليس والسينما الفرنسية الصامتة . تراكمت الخبرات وكنت متعطشاً للمزيد .

ذات ليلة ذهبنا الى مسرح الآتنيه لمشاهدة لويس جوفت في مسرحية لغيرادو ، وكانت هيلين جالسة في الصف الذي أمامنا مباشرة . التفتت الينا وابتسمت ، فهربت وغان من المسرح ، ثم جاء الينا محامي في بدلة

زرقــاء شاحبة وربطــة عنق حمــراء ، وقــد ارســله أقارب غــان لدراسة وضعها . فاتفق معها على تناول الغذاء سوية ، ووقفت أنــا عند نافذة الغرفــة بالفندق أراقبهما وهمــا يسيران سوية في شــارع القديسة آن . كانت غان ترتدي حــذاء كعبه عالٍ فبدت أطول مــن المحامي القصير ، وكان ثوبها الأسود ملتصقاً بوركيها ، وأخذت تمرر يدها في شعرها الأشقر القصير . في تلك اللحظة اعتقدت أنها لن تعود الي ابداً . لكنها عندما عادت مساءً ، متوترة ومرتعشة ، وجهت اليهــا سؤالا وحيدا بفضول وهوس : « هل نمتِ مع المحامي ؟ هل نمت معه؟ اعترفي بأنك فعلتِ . أنت تعرفين ذلك . » . سوف يخلق الخوف قريبا ما كان يخشى منه .



في احد أيام كانون الاول الباردة التقينا في بيت مستأجر باستوكهولم حيث كانت أنظمة الفنادق السويدية تحظر علينا الاقامة فيها .

انهارت غان بسرعة لخوفها من أن تفقد أطفالها . فعندما عادت الى المنزل في ليدنغو وجدت زوجها وقد كان لديه الوقت الكافي ليقرر كيف سينتقم منها ، وكنت سأذهب الى غوتبرغ لانهي عملا يتعلق بعقدي .

لم يكن مسموحاً لنا أن نلتقي أو نتحدث بالهاتف أو يكتب أحدنا للآخر ، فكــل محاولة للاتصال كانت تزيد من خطــورة فقدان غــان لأطفالها ، ففي تلك الايام كانت القوانين صارمة للغاية فيما يتعلق بالمرأة التي تهجر منزلها .

وهكذا استطعت تأمين شقة صغيرة (ما زلت مستأجرها حتى الآن) وانتقلت اليها مع أربع اسطوانات وملابس داخلية قذرة وفنجان شاي مصدوع . وفي أوقات حزني تلك كتبت سيناريو عنوانه (لحن صيفي) وموجزا لسيناريو آخر ومسرحية ضاعت فيمــا بعد . وكانت تســود

اشاعات حول توقف انتاج الافلام بسبب احتجاج المنتجين على ضريبة التسلية التي فرضتها عليهم الحكومة . إن مثل هذا الاجراء سوف يستتبع كارثة مالية بالنسبة لي ، فأنا اعيل عائلتين اثنتين .

في اليوم الذي تلا عيد الميلاد قررت غان أن ترفض هذا الإذلال والا تلعب وفق قوانين الذكور ، فدفعنا اجارا باهظا لشقة مفروشة مؤلفة من أربع غرف وتقع في الطابق الاخير من بناء جميل ، وانتقلنا اليها مع طفلَيّ غان والمربية الفنلندية .

لم تكن غان تعمل ، وأصبح لدي ثلاث أسر أعيلها .

ما حدث بعد ذلك يمكن سرده باختصار .. أصبحت غان حاملاً ، ومع نهاية الصيف توقف انتاج الافلام . طُردت من شركة سفنسك فيلم وعملت مديرا فنيا في مسرح لورنس مارمستد الحديث ، لكنني فشلت في عملين فنفصلت من هناك أيضا .

اتصل زوج غان بها في أمسية خريفية واقترح نوعا من المصالحة والاتفاق عوضاً عن المحكمة ، وطلب أن يلتقي بها حتى يتوصلا الى اتفاق ويثبتاه عند المحامي . منعتها من أن تراه وحدها لكنها كانت عنيدة ، وبدت اثناء حديثها معه شبه باكية . بعد العشاء جاء ليصطحبها بسيارته ، وعادت في الرابعة صباحا ، تعبير وجهها صارم ونبرة صوتها مراوغة ، وأرادت أن تنام فورا وقالت إن بوسعنا التحدث في الصباح ، لكنني لم أدعها لأنني أريد ان اعرف ما حدث ، فأخبرتني أخيرا أنه اخذها الى خارج المدينة واغتصبها . تركت الشقة وأخذت أركض في الشوارع .

ولم اكتشف أبداً حقيقة ما حدث إذ كان مؤكداً عدم حدوث اغتصاب بالمعنى الحقيقي ، وربما قد دُفعت الى نوع آخر من العنف عندما قايضها زوجها بأن تنام معه مقابل احتفاظها بالاطفال .

ولم أعد أدرك ما يحدث . غان كانت حاملا في شهرها الرابـع وأنا أتصرف مثل طفل غيور . كانت وحيدة ومعاقبة .

في لحظة واحدة أحسسنا بنفاد كل الفرص لتجاوز الأزمة . كانت بداية النهاية أمرا حقيقيا ، ومع ذلك تمسك كل منا بالآخر في محاولـة يائسة للمصالحة .

توقفت اجراءات المحاكمة بفضل محامي غان الذي هدد بإشـهار الأعمال المالية غير المشروعة التي يزاولها الزوج . لا أعرف التفاصيل كلها ، لكن الطلاق كان مؤكداً وبلا متاعب ، وبعـد تحقيقـات مهينة ، أوصت لجنة رعاية الطفل بأن تحتفظ غان بأولادها .

انتهت هذه الدراما ، لكن حبنا كان جريحا وينزف بشكل مميت ، وكانت المشاكل المالية تلقي بظلالها فوق كل شيء .

لا نقود ، لا تصوير أفلام ، وكل شهر يجب تأمين مبلغ كبير لاعالة زوجتين سابقتين وخمسة أطفال . كانت كل زيارة للعائلة في غوتنبرغ تبدأ باللطافة الشكلية المعهودة وتنتهي بالصراخ وبكاء الاطفال المؤلم .

وأخـيرا توجهت الى شركة سفنسك فيلـم وطلبت منهم قرضـا فوافقوا واضطررت لأن أوقع عقدا معهم يلزمني أن أعمل على خمسـة أفلام أتقاضى عليها ثلثي أجري عن السيناريو والاخراج . وأن أسـدد القرض خلال ثلاث سنوات ، بما في ذلك الفوائد المترتبة عليه ، وحيث يقتطع المبلغ آليـا من دخلي الذي تدفعه الشـركة لي . وهكذا نجوت مؤقتا من كارثة مالية لكنني أصبحت مقيدا تماما .

رزقنا أنا وغـان بصبي في نهايـة نيسان عـام ١٩٥١ ، فاحتفلنا بالمناسبة ، وشـربنا شمبانيا ، ثم خرجنا بجولـة في سيارتي الفورد الآيلة السقوط . وبعد أن أوصلت غـان وتركتها لرعاية المرضات في

المستشفى ، عدت الى المنزل وشربت المزيد وثملت أكثر ، ثم فتحت علبة تحتوي على لعبة قديمة أهديت لي في الماضي ، وكانت عبارة عن قطار وسكك . بدات العب بصمت وعناد الى أن غفوت على الارض .

رُفع الحظر عن تصوير الافلام ، وحصلت غان على عمل مؤقت كصحفية في جريدة مسائية بالاضافة الى قيامها بترجمة بعض الاعمال. وكنت ساخرج فيلمين ، اولهما (انتظار النساء) عن سيناريو لي ، وثانيهما (صيف مع مونيكا) عن رواية لاندرس فوجلستروم ، وقد اخترت ممثلة شابة تعمل في مسرح سكالا لتؤدي دور مونيكا ، وهي هاريت اندرسون ، وكانت عملت في بعض الافلام سابقاً ، ومخطوبة لممثل شاب . وفي نهاية تموز ذهبنا للتصوير في الأرخبيل الخارجي .

اعتراني احساس بالراحة والمحبة المشرقة . لقد ولت جميع المشاكل العملية والمادية ، وها هو فريق تصوير الفيلم يعيش حياة مريحة نسبيا يعمل في كل الاوقات ومهما كانت الظروف الجوية . كانت الليالي قصيرة والنوم بلا احلام . بعد ثلاثة أسابيع من العمل أرسلنا الافلام للتحميض ، لكن أجهزة المعمل افسدت آلاف الامتار منها ، وأصبح ضرورياً اعادة تصوير كل شيء . بكينا قليلاً من دموع التماسيح، لكننا في سرنا كنا مبتهجين لتمديد فترة حريتنا .

إن خلق الفيلم هو عمل شهواني ذو قوة هائلة : فلا تحفظ في التقارب مع الممثلين ، والمكاشفة المشتركة أمام العيان مطلقة . الحميمية والاخلاص والحب والثقة والمصداقية يتحولون أمام عين الكاميرا السحرية الى احساس دافىء بالامان . الاجهاد والتحرر من التوتر ، حبس الانفاس المشترك ولحظة الانتصار التي يتبعها هبوط مفاجىء : انه جو مشحون بالجنس بشكل يصعب مقاومته ، وقد تطلب الامر سنوات عديدة قبل أن أدرك بأنه سيأتي يوم تتوقف فيه الكاميرا وتنطفأ الاضواء .

عملت هاريت اندرسون معي لمدة طويلة . كانت انسانة قوية وحساسة للغاية . علاقتها مع الكاميرا مباشرة وذات حساسية عالية . بالاضافة الى تقنيتها الرائعة فبامكانها ان تنتقل كالبرق من حالة عاطفية قوية الى أخرى رزينة وهادئة ، روح المرح لديها حادة ولكن غير ساخرة . انها انسانة رائعة ، وواحدة من أعز أصدقائي .

عندما عدت من رحلة الارخبيل اخبرت غان بما حدث وطلبت منها أن اذهب لفترة راحة طويلة ، فقد أدركت انا وهاريت ان علاقتنا محدودة بوقتها . غضبت غان وصاحت بوجهي بأن اذهب للجحيم . شعرت بالدهشة لغضبها الذي لم أشهد له مثيلا من قبل ، وانتابني احساس عميق بالراحة .

حزمت بعض امتعتي وانتقلت الى شقتي ذات الغرفة الوحيدة .

خلال السنوات التالية كنا نلتقي دون اتهامات او احساس بالمرارة وبعد أن طلقتها ، بدأت غان تقرأ باللغات السلافية ونالت درجة الدكتوراه وأصبح عملها بالترجمة أكثر تعقيداً ، وسرعان ما حظيت بسمعة جيدة وكونت لنفسها حياة مستقلة خاصة بها ، لها أصدقاؤها وعشاقها ورحلاتها خارج البلاد .

لكن فرحتنا بعودة التقارب بيننا كانت حذرة وانانية ، ولم نلحظ ردة فعل ابننا المحكومة بالالم والغيرة .

وعندما توفيت غان في حادث سير ، اتفقت مع انغمار الصغير أن نذهب للجنازة سوية . التقينا في شقتي الصغيرة ، وكان في التاسعة عشرة من عمره ، شاب وسيم وطويل القامة ، ولم يكن احدنا قد رأى الاخر منذ سنوات . جاء مرتديا بذلة ضيقة استعارها من أخيه لامه . جلسنا صامتين نأمل ان يمضي الوقت بسرعة ، لكنه لم يمض كذلك . سألني اذا كان لدي خيط وابرة فأحضرتهما له ، وبدأ يخيط زراً . كان شعره الاسود الطويل ينحدر على جبهته ويداه الحمراوان القويتان

مشغولتان بالخياطة ، وكان يتنشق باحراج بين الحين والاخر . تأملته واكتشفت كم هو شبيه بجده لوالده عندما كان طالباً : العينان الزرقاوان الداكنتان نفسهما ، الشعر نفسه ، والجبهة والفم الرقيق ، والوقفة البرغمانية نفسها التي تحتفظ بمسافة بينه وبين الآخرين ، وكأنه يقول لهم : « لا تلمسوني ، لا تقتربوا مني بحق المسيح فأنا برغمان » .

اقدمت على محاولة خرقاء لاقول له شيئا عن أمه ، لكنه رد بايماءة رفض عنيفة وعندما الححت على المتابعة رماني بنظرة ازدراء باردة جعلتني أصمت فوراً .

كانت غان نموذجا للعديد من النساء في افلامي : كارين لوبيليوس في (انتظار النساء) . آغدا في (الليلة العارية) ، ماريان في (درس في الحب) ، سوزان في (رحلة الى الخريف) ، ديزير أرمفلد في (ابتسامات ليلة صيف) .

وجدت مثيلة لشخصية غان في ايفا دالبك التي لا يمكن مقارنتها باحد . فكلتا المراتين استطاعتا تجسيد نصوصي الغامضة والتعبير عن حالات من الانوثة التي لا تقهر ، بطريقة لم أجرؤ على تخيلها قط .

* * *

- ١٤ -

ثمة احلام تتراءى لي باستمرار ، واكثرها مرتبط بأجواء المهنة . أرى نفسي واقفا في الاستوديو على وشك اخراج مشهد ما والجميع موجودون بانتظاري : الممثلون ، المصور ، المساعدون ، عمال الكهرباء والكومبارس . ولسبب ما لا أستطيع أن اتذكر نص السيناريو الذي يجب تصويره اليوم فاسترق النظر الى دفتر ملاحظاتي حيث لا أجد فيه سوى خطوط مبهمة . فالتفت الى الممثلين واحاول خداعهم بالحديث عن الوقفات أثناء الحوار ، ثم استدير ناحية الكاميرا وأقرأ خطا ما ، وأعيد قراءته ثانية بهدوء .

الممثل ينظر الي بارتياب لكنه يطيع تعليماتي . انظر اليه عبر الكاميرا فأرى نصف وجهه وعيناً واحدة محدقة . هذا غير صحيح ، والتفت الى سفن نيكفست الذي ينظر عبر محدد اللقطة ، يضبط البؤرة ويختبر الزوم . وفي هذه الاثناء يختفي الممثل ويقول احدهم انه ذهب ليدخن سيجارة .

الاحظ صعوبة اضاءة المشهد ، وأرى وجه سفن غير المقتنع ولكن بتهذيب . انه يكره الاضاءة القوية فوق الرؤوس والاخيلة المزدوجة .

آمر بازالة الحائط بحيث نحرر انفسنا ويصبح بامكاننا تصوير المشهد من الجانب الآخر . لكن احد المساعدين يقول إن ازالة الحائط سوف تستغرق ساعتين من الزمن ، لأن هذا الحائط بالذات هو حائط مزدوج ومرتبط بحائط اخر ثقيل يصعب تحريكه ، وربما تسبب تحريكه بانهيار الديكور كاملا . ابدي تذمري بكلمات مبهمة ، وأحس بالاسى لانني أنا من أصر منذ البداية على ربط الداخلي بالخارجي .

آمر بتحريك الكاميرا الى الباب وانظر من خلال محدد اللقطـة . ان الكومبارس يخفون الممثل ، يجب أن يتحرك الى اليمين حتى تمكن رؤيته ، لكن فتاة السكريبت تشير وبلباقة الى ان الممثل قـد تحـرك الى اليسار في اللقطة السابقة .

الهدوء يسود الاستوديو . الجميع ينتظرون بصبر ولكن دون أمل . احدق بيأس من خلال محدد اللقطة فأرى نصف وجه الممثل وعينه . وللحظة أعتقد أن هذه اللقطة ستكون مدهشة وستحظى بإعجاب وتقدير النقاد العالميين ، ثم أعود وارفضها .

وفجأة اجد الحل : لقطة مع حركة كاميرا .. يجب أن تتحرك الكاميرا حول الممثلـين وتجتاز الكومبارس . إن تاركوفسكي يحـرك كاميرته باستمرار في كل مشهد ويطير بها في كل اتجاه . كنت أعتقد انها تقنية كريهة لكنها ستحل جميع مشاكلي . ويمضي الوقت .

يخفق قلبي بقوة واجد صعوبة بالتنفس . سفن نيكسفت يقول إن تحريك الكامـيرا مستحيل . لماذا يجب أن يكون سفن أخرق هكذا ؟ بالطبع إنه يخشى حركة الكاميرا الصعبة وقد تقدم به السن وازداد جبنه . انظر إليه بيأس ، فيشير الى خلفي وهو حزين . التفت فلا أجد أي أثر لمكونات المشهد . لا شيء سوى جدران الاستوديو . إنه محق ، فحركة الكاميرا مستحيلة .

ومن شدة يأسي أقرر أن ألقي خطبة قصيرة أمام العاملين . أردت ان أقول إنني اعمل في السينما منذ اربعين عاماً وإنني اخرجت خمسة واربعين فيلماً ، وابحث الآن عن حلول جديدة واريد تجديد مخيلتي . يجب على كل واحد أن يتساءل حول نتائج عمله باستمرار . أردت أن اقول لهم إنني كفؤ وذو خبرة عظيمة ، وإن هذه المشكلة ليست سوى شيء تافه ، وإنني لو أردت لحركت الكاميرا قليلاً الى الخلف وصورت لقطة عامة وهذا سيكون حلاً ممتازاً . انا لا أؤمن بالله ، وأعـرف أن

الأمر ليس بهذه السهولة . فكل منا يحمل إلهاً في داخله . اردت أن اقول لهم كل هذا ، ولكن لا داعي . لقد تراجعوا وتجمعوا داخل الاستوديو المظلم وبدؤوا يتجادلون . لم أستطع أن اسمع حديثهم ولم اكن ارى شيئاً سوى ظهورهم .

اجد نفسي في طائرة كبيرة وانا الراكب الوحيد فيها . تسرع الطائرة على المدرج لكنها لا تستطيع أن ترتفع فتحلق فوق الشوارع العريضة والأبنية ، وارى من خلال النافذة أناساً يلوحون بأيديهم . إنه يوم ثقيل وعاصف . اثق بمهارة الطيار لكنني ادرك أن النهاية وشيكة .

ها انا اطير الآن دون طائرة ، أحرك ذراعيّ بطريقة معينة وأرتفع عن الارض واستغرب كيف انني لم أجرب هذا من قبل . إنه سهل للغاية . وادرك في الوقت نفسه أن امكانية الطيران موهبة خاصة لا يمتلكها أي إنسان . ومن بوسعه أن يطير فإنه يبذل جهداً خارقاً ، اما انا فأطير بحرية وسهولة مثل الطير .

اجد نفسي فوق احد السهوب في روسيا . اطير فوق نهر عريض وجسر مرتفع يقوم الى جانبه بناء آجري تتصاعد من مداخنه سحب الدخان ، واسمع هدير الآلات .. إنه معمل .

ويتغير مجرى النهر ، ضفافه مزروعة بالأشجار ، وبانوراما الرؤية غير محدودة . اختفت الشمس وراء الغيوم لكن الضياء قوي . مياه النهر الخضراء تتدفق بقوة عبر أخدود عريض وارى احياناً اخيلة تمضي فوق الحجارة في أعماق الماء واسماكاً كبيرة مضيئة . اشعر بهدوء وثقة مطلقة .

عندما كنت صغيراً وانام جيداً كانت تعذبني احلام بغيضة : جرائم ، تعذيب جسدي ، اختناق ، سفاح القربى ، تدمير ، غضب أهوج . اما اليوم ومع تقدمي بالسن فإن احلامي تغيب عن ذاكرتي ولا احتفظ عنها إلا بانطباعات ودودة ومريحة .

أحياناً أحلم بإنتاج ضخم يضم مجاميع هائلة من الناس مع موسيقا ومشاهد ملونة ، وأهمس لنفسي وقد تملكها إحساس بالرضى المطلق :
« هذا إنتاجي ، وأنا الذي أبدعته » .

* * *

في مطلع الخمسينيات تلقيت وعداً بالعمل في المسرح الدرامي الملكي . لكن فرحتي لم تكتمل إذ سرعان ما تغير نظام المسرح مع قدوم مدير جديد تنصل من كافة الوعود السابقة ، واخبرني بنبرة مهينة ان مستواي لا يرتقي الى مقاييس مسرحنا الوطني . وحتى اواسي نفسي كتبت مجموعة مسرحيات رُفضت جميعها . واستمرت هاريت بعملها في مسرح سكالا ، وكانت تقول : « لا أمانع أن أكون متوحشة وحرة إذا كان انغمار برغمان مولعاً بي » .

أثناء ذلك لم تعد علاقتنا واعدة ، فقد كانت شياطين الغيرة تسمم حياتنا . لذلك انتقلت الى فندق صغير في أعلى بناء مسرح الجنوب . وأثناء انفجار غير مألوف بالنسبة لي ، لحالة من الكراهية العميقة ، كتبت سيناريو فيلم (الليلة العارية) .

وبما أن احداً من مديري مسارح العاصمة لم يرغب بخدماتي ، فقد قبلت عرضاً من مسرح مدينة مالمو ، وسافرت إليها مع هاريت وأقمنا في شقة من ثلاث غرف تقع في حي سكني جديد على الطريق المؤدي لليمهامن ، واشتريت بعض الأثاث الضروري .

بعد ذلك أخذنا نغوص في عالم المسرح .

للوهلة الأولى يبدو مسرح مدينة مالمو مؤسسة كريمة تضم قاعتين للأوبرا والباليه والأوبريت والمسرح . القاعة الأولى كانت كبيرة جداً (١٧٠٠ مقعد) وتدعى بو الكبير ، أما الثانية فصغيرة جداً (٢٠٠ مقعد) وتدعى سكويك الصغير . وكانت حالة المسرح فيما يتعلق بالتجهيزات

الصوتية ، سيئة للغاية ، فحفـلات الأوركسترا كانت تفتقـد الرنين المطلوب . بالإضافة الى وجود قوس حجري عريض عند ستارة المسرح ومسافة كبيرة تفصل بين الجمهور والخشبة ذات الأرضية المهترئة . وكان يخدم هذا الوحش عدد لا بأس به من العاملين ذوي الأجور الضئيلة الذين يقدمون عشرين عرضاً في العام الواحـد ، وكان مدير المسرح ، الأوتوقراطي لارس ــ لفي لاستاديوس ، قد جاء اليه مباشرة من عمله كواعظ نهضوي . كان قارئاً جيـداً وشخصاً طائشاً مزهواً بنفسـه بشكل مهووس ، وهـذه تركيبة لا يمكن ازدراؤهـا في شخصية مدير للمسرح .

كانت السنوات الثماني التي أمضيتها في مسرح مدينـة مالمو من افضل سنوات حياتي .. كنت أخرج ثلاثة عروض مسرحية كل شتاء وفيلمين سينمائيين كل صيف . كانت يدي طليقة وحياتي الخاصة قد توقفت عملياً . عشت منطوياً على ذاتي أبذل جهداً لأزود ذلك الوحش بالعروض المسرحية ، وكنت متحرراً من أية أعباء إدارية ، فنذرت نفسي بإخلاص وحزبية من أجل اكتشاف مهنتي .

واصبح مسرحنا مركز اهتمام ، وأدرك ممثلون مشهورون ميزات تقديم مسرح جيد في الشتاء وتصوير افـلام مع بزغمان في الصيف . وتطور عمل مجموعتنا المسرحية وتشجعنا على أن نغامر أكثر فأكثر في عالم الدراما .

ولو خطر لأحد ان يسألنا عن اهدافنا التي نسعى إليها . لما كان بوسعنا ان نجيب .

لا استطيع ان اتذكر اية أهداف سياسية او دينية او فكرية حاولت ايصالها من خلال اعمالي الثلاثة عشر في مسرح مالمو . كنت اعرف فقط أن المسرح بحاجة لبرنامج وأنه من غير المجدي على الإطلاق ، كما قال

هاملت : « أن تقدم الكافيار للجميع » على خشبة المسرح الكبيرة . كان العمل يتمثل في وضع برنامج مسرحي مقنع ومؤثر .

كنت أصل الى المسرح كل صباح في التاسعة ، أتناول إفطاري المؤلف من ست قطع من البسكويت وفنجان شاي ، ثم ابدا البروفات في التاسعة والنصف ونستمر حتى الواحدة . عند الغداء أتناول وجبة من البيض واللحم مع فنجان من القهوة المركزة ، ثم أتابع عملي حتى الرابعة . . فأجري بعض اللقاءات وأعطي دروساً في مدرسة المسرح وأكتب سيناريوهات . وأغفو للحظات على كرسي . أتناول العشاء في بوفيه المسرح ، وهو دائماً عبارة عن شريحة لحم حمراء مع البطاطا ، وأتابع تحضير اعمالي لليوم التالي .

عندما تنزع هاريت مكياجها وتبدل ثيابها ، نعود الى المنزل لننام دون أن يكون لدى أحدنا الكثير ليقوله للآخر . كنت أسافر الى استوكهولم باستمرار لأتابع مشاريع أفلامي ، وكنت أقيم هناك في شقتي ذات الغرفة الوحيدة وأتناول طعامي في الاستوديو . كان يوجد لدي بنطالان وبضعة قمصان وملابس داخلية مهترئة وحذاءان . كانت حياتي عملية ودون متطلبات . توصلت الى قرار بأن الضمير المذنب مجرد تكلف لأن عذابي ان يصلح أبداً الضرر الذي سببته . كنت أعاني من قرحة معدية . اتقيأ باستمرار ، تهاجمني نوبات تشنج في المعدة يليها اسهال مزعج . في خريف عام ١٩٥٥ وبعد تصوير فيلم (ابتسامات ليلة صيف) كنت أزن ستة وخمسين كيلو غراماً ، فارسلوني الى مستشفى كارولينسكا بعد الاشتباه بوجود سرطان في المعدة ، حيث اشرف الدكتور شتور هيلندر على متابعة فحوصاتي . وذات أمسية جاء الى غرفتي حاملاً صور الأشعة وجلس يشرح لي حالتي بصبر وتأن، وشخص اعتلالي بانه (نفسي ـ جسدي) ، واخبرني بأنني يجب أن ابدي اهتماماً أكثر بتلك المنطقة الغامضة التي تشكل الجدود بين الجسد والروح ، ونصحني بتناول اليوغارت ، وهي نصيحة ما زلت

اعمل بها حتى الآن ، وكان يعتقد انني اعاني من ردات فعل ذات حساسية معينة ، وان الامر يتعلق بكيفيـــة تعاملي مع الأشياء التي لا استطيع تحملها . كان إنسـاناً يشع بالمقدرة والمودة والحكمة .



اقنعت ذلك الممثل والمخرج المخضرم ، ڤيكتور سيو ستروم بأن يؤدي الدور الرئيسي في فيلم (الفريز البري) . كنا قد عملنا سابقاً في فيلم (الفرح) ولم يشعر احدنا بحاجة ماسة لتكرار التجربة . كان ڤيكتور متعباً ومريضاً ويجب اخذ كثير من شروطه بعين الاعتبار ، ومنها اني وعدته بأن يكون في منزله كل يوم عند الساعة الرابعـة والنصف ليتناول كاس الويسكي المعهود .

بدأ التعاون بيننا بشكل مرعب .. كان ڤيكتور عصبياً ، وكنت انا متوتراً . كان يبالغ في الأداء احياناً فألفت نظره الى ذلك ، فلا يكون منه إلا أن يحتمي بانسحاب الواثق من نفسه ويقول إنه لا بد من وجـود شخص ما غيره يستطيع القيام بالدور وفق ملاحظاتي ، وإن طبيبه لا بد ان يعطيه في يوم ما شهادة تثبت سوء حالته الصحية .

وعندما كانت تظهر الفتيات في ساحـة التصوير تنتعش احواله ويفرح لمزاحهن اللطيف ، فيغازلهن ويشتري لهن زهوراً وهدايا صغيرة . وذات مرة ، وبشكل خفي ، قمت بتصوير بيبي أندرسون جالسة على ضفة المرج وهي تطعمه بيدها كرزاً برياً ، وكان كل مرة يعض اصابعها ويضحكان بصوت عال .

واثناء فترات الاستراحة كنا نتحلق حول ڤيكتور وننهـال عليـه بالأسئلة كالأطفال ، ونطلب منه أن يحدثنا عن أيامه القديمة وعمله ، عن المنتجين وزملائه من المرحلة الصامتة امثال موريس ستيلر وشارلز ماغنوسن ، وعن الممثلين ومدينة السينما القديمة ، فكان يتحدث بسرور

وطيب خاطر واعترف انه في لحظات كثيرة كان لا يستطيع أن يتفوه بكلمة تعبيراً عن رأيه ، فيبتعد عن الجميع ويضرب راسه بحائط ما ، وعندما تخف حدة توتره ، يعود بانتفاخ في جبهته . كان يرى فشله في احيان كثيرة فيتضايق من نفسه ومن افتقاره للمهارة . وكان يمتدح ستيلر المتغطرس دون أن يقارن نفسه بأحد من زملائه القدامى .

وتحدث بصراحة عن حبه لزوجته السابقة ، اديث إيراستوف ، وعن الدراما الكامنة وراء دراما (عطيل وزوجته) ، وهو أحد أفلامه القديمة . وفجاة لاذ بالصمت ، وتراجع مبتعدا ، واصبح وجهه قناعا من الحزن .

استمر التصوير بنجاح ، وذات يوم ذهبنا لتصوير المشهد الاخير من الفيلم في منطقة مجاورة لمدينة السينما . عند الساعة الخامسة بدات الشمس تنحدر وأصبحت الغابة معتمة ، وكان فيكتور غاضبا وحاقدا وجاء يذكرني بوعدي حول الساعة الرابعة والنصف ، البيت وكأس الويسكي . ناشدته بان نستمر في العمل ولكن دون جدوى . مضى بتثاقل وبعد ربع ساعة عاد وهو يقول : الن نصور هذه المشاهد اللعينة؟

لم يكن مزاجه بحالة افضل لكنه قام بواجبه . فعندما سار مع بيبي أندرسون على العشب المضاء باشعة الشمس ، وهو يدمدم متذمرا ويرفض كل محاولات التودد اليه ، صورنا اللقطة العامة ، وبعد ذلك جهزنا للقطة وجهه القريبة ، فابتعد قليلا وجلس ودفن رأسه بين كتفيه، واخذ يرفض باحتقار عرض كأس الويسكي في موقع التصوير . وعندما أصبح كل شيء جاهزاً ، اقبل مترنحا ، يعاونه بعض المساعدين ، وقد أرهقه مزاجه السيء . دارت الكاميرا وطقت الكلاكيت ، وعندئذ تغيرت ملامح وجهه فجاة وأصبحت ناعمة ، وغمره الهدوء واللطف : انها لحظة مباركة . لقد كانت الكاميرا هناك ، وكانت تدور ، ولم يفسد معمل التحميض لاحقا شيئا من المشهد .

... فوجئت بعد زمن أن احتجاج فيكتور حول وعدي بكاس ويسكي الساعة الرابعة والنصف ، وغضب شيخوخته ، كانا بسبب خوف مقلق من أن يجد نفسه غير ملائم ، مرهق ولا فائدة منه ، أو ليس جيداً بالقدر الكافي « ... لا أريد . ليس لديهم الحق لأن يطلبوا مني ذلك . لم أرغب بأداء هذا الدور . لقد خدعت . لا ، ليس ثانية ، هذا الرعب والاحساس بعدم الملائمة ، لا ، لا اريده من جديد . لست مضطرا ، ولا احد يستطيع ارغامي . أنا عجوز متعب . لا جدوى من أي شيء ، فلم كل هذا العذاب؟ اذهبوا الى الجحيم ، أريد ان ابقي وحدي . لقد قمت بواجبي وانتهى الأمر . اما التمرد على رجل مريض فهذه قسوة . الى الجحيم انتم والفيلم ، ومع ذلك دعوني أجرب . لن يلوموا سوى انفسهم ولن أكون بالمستوى الجيد ، سوف أظهر وأريهم بأنني لم اعد أصلح وأري هذه الحشرة الصغيرة بانه لا يستطيع معاملة اناس مسنين بهذه الطريقة ، وسوف يقدم لي تأكيداً ثابتاً على عدم قدرتي ، والتي ، كما يعتقد ، ظهرت في يوم التصوير الأول ..... » .

ربما كان ذلك الصديق العجوز يفكر بهذه الطريقة . الآن فقط استطعت أن أتفهم سبب غضبه ، عندما وجدت نفسي في الورطة نفسها تقريبا . كل الألعاب اللطيفة اوشكت على نهايتها ، وبدأ الملل يحدق بوجهي . ان الخوف من عدم القدرة يهاجم قدرتي ويدمرها . في الماضي كنت أطير بحرية وأساعد الآخرين على الطيران ، أما الآن فأشعر بحاجة الى ايمان الآخرين بي ، ويجب أن يساعدوني على الطيران . فأنا ما زلت أرغب بأن أطير .



عندما بدأنا بالعمل على مسرحية (رقصة الموت) للمرة الثانية عام ١٩٧٨ ، كانت قد تأكدت اصابة اندرس إيك بسرطان الدم . كان المرض يسبب له آلاما مبرحة حاول تخفيفها بتناول أدوية قوية ، وكانت كل لحظة تكربه . الى أن أكدت لنا رقصة السيف ، وهي من أهم مفاصل

المسرحية ، استحالة العرض . فقررنا تأجيله للمستقبل بعد ان قطع طبيبه وعودا غامضة بأن الآلام سوف تنحسر مع تقدم العلاج . واستمرت البروفات على نحو غريب ، وكانت الساعات تنقضي ببطء وادركنا جميعا أن العرض لن يكون عمليا وملائما ، لكنني ولأسباب واضحة لم ارغب ان ينسحب من العمل ولم يرغب هو بذلك أيضا .

كنا قد عملنا سوية منذ مطلع الأربعينيات ، وخلال السنوات الماضية تشاجرنا مرارا واهان احدنا الآخر وتصالحنا ، ثم عدنا واختلفنا وافترقنا غاضبين ، وشعرنا بالندم فعدنا اصدقاء من جديد . وكانت (رقصة الموت) تمثل قمة تعاوننا في عرض كان يضم ممثلين متميزين ، وخصوصا مارغريتا كروك وجان ـ أولوف ستراندبرغ .

ها أنا الآن أراقب اندرس بحزن وقلق وهو يبحث عن خوفه من الموت ، ويتعرف اليه في شخصية الكابتن . وتتحول كلمات سترندبرغ التي توجز حالة يرثى لها لشخص مصاب بوسواس المرض ، من خلال تأويل اندرس لها ، الى رعب ساموراي رزين وفضولي . كانت حالة مروعة ومخجلة وميئوساً منها جعلت عملنا في المسرح يبدو سخيفا .

ذات صباح اجتمعت مع اندرس في غرفة الملابس . كان يجلس الى طاولة المكياج ، يداه مرتجفتان ووجه رمادي من الالم والتعب وقد اضاءه ضياء خريفي . اعترف بأنه يستسلم الآن وان استهلاكه المتواصل للعقاقير قاتلة الألم قد شوش ذهنه وتفكيره ، وأنه أدرك بأنه يستخدم خوفه من الموت في تمثيل شخصية الكابتن .

ولامني لأنني لم أقل له شيئا .

* * *

التقيت فريق العمل في مكتب السينما توافراف لاجراء بروفة على سيناريو (سوناتا الخريف) . قرأت انغريد برغمان دورها بصوت جهوري مع حركات وتعابير معنية . وكانت قد راجعت دورها كاملا أمام

المرآة وقررت كيف ستؤديه . كان الأمر اشبه بالصدمة حتى انني أصبت بالصداع ، وهربت فتاة السكريبيت الى الممر وهي تبكي برعب . لم يعد احد منذ الثلاثينيات يسمع مثل هذه النبرات الزائفة التي كانت انغريد تقرأ بها ، وقد قامت النجمة بشطب ما تشاء من النص لأنها ترفض الكلمات الكريهة .

وقالت إن قصة السيناريو باهتة ويجب ابهاجها ببعض النكات . « لماذا أنت ممل الى هذه الدرجة عندما تكتب يا انغمار ؟ ان بوسعك أن تكون مسليا » ، ثم استمعت الى احدى معزوفات شوبان التي ستمثل لحظة الذروة في النصف الأول من الفيلم وعلقت قائلة : « يا ربنا الذي في السموات ! هل ستعزف هذه المقطوعة السخيفة مرتين في الفيلم ؟ انغمار أنت مجنون حقا فالجمهور سوف ينام . يجب أن تختار شيئا جميلا واقصر . اما هذه فانها مملة لدرجة انني اتثاءب الآن » .

كانت انغريد برغمان تقوم في الفيلم باداء دور عازفة بيانو ، ومن المعروف ان معظم عازفي البيانو ظهورهم محنية ، لذلك يمضون بعض الوقت مستلقين على ارض صلبة . وفي أحد المشاهد طلبت من انغريد ان تستلقي على ظهرها ، فضحكت وقالت : « لا بد انك جننت يا عزيزي انغمار ، هذا مشهد جدي ولا استطيع القيام به وأنا مستلقية على ظهري هذا سخف وسوف يضحك الجمهور منا . اعرف انه لا يوجد كثير من الضحك في هذه القصة المروعة ، ولكن لماذا تريد ان يضحك الناس في مكان غير مناسب ؟ اخبرني لماذا ؟ » .

وبدا التصوير بشكل مزعج .

كانت شركة التأمين قد رفضت التأمين على حياة انغريد بعد أن أجريت لها عملية استئصال ورم خبيث . وبعد اسبوع من بدء التصوير جاءنا من لندن ، حيث كانت انغريد تجري فحوصها الروتينية ، خبر مفاده ان الأطباء وجدوا أوراما جديدة ويجب أن تخضع انغريد على

الفور لعملية جراحية وعـلاج بالأشعة . الكنها قالت : إنها تنوي انهـاء الفيلم أولا ، وسألتنا فيما اذا كان بالامكان ضغط أيام التصوير الخاصة بها ، وكأنت كمن تضعنا أمام الأمر الواقع .

عادت الى العمل وكأن شيئا لم يحدث ، وتحول اعتراضها الذي ابدته في أيام التصوير الأولى الى اعتداء مهني وقح ، واتهمتني بقلة الشرف والحت أن أطلعها على رأيي الحقيقي ، وقد أجبتها بما كنت اعتقد تماما .. فتشاجرنا .

في الوقت نفسه اكتشفت انغريد ظاهرة لم تر مثيلا لها في حياتها المهنية كلها . كانت ثمة وحدة وأخوة تجمع بين مجموعة النساء العاملات في الفيلم ، وكن نساء قويات ومستقلات ، محترفات وخبيرات . كاتنكا فارغو في ادارة الانتاج ، انغر برسيون مسؤولة الملابس ، سيلا دروت للمكياج ، سيلفيا انغمارسون للمونتاج ، وآنا اسب مصممة المناظر ، كرستين ايركسدوتر ، فتاة السكريبت وزوجتي ومديرة المكتب ، ليف أولمان الممثلة . انجذبت انغريد برغمان الى هذه الوحدة وكانت تضفي بين الحين والآخر لمسات من مشاعر المودة .

كانت انغريد تحتفظ بعلبـة قصدير رثـة تضم شرائح من أفـلام التقطت لها في طفولتها وشبابها ، وتأخذها معها الى اي مكان تذهب اليه في العالم . كان والدها مصورا فوتوغرافيا يستأجر كاميرا سينمائية في المناسبات . وخلال الأربع عشرة دقيقة ، زمن عرض هذه الشرائح ، يمكن رؤية أم انغريد مع كلب صغير عند قدميها ، ثم انغريد الطفلة عند قبر والدتها ، ثم وهي تضحك وتغني وتعزف البيانو ، ثم وهي امرأة شابة تبتسم وتقطف أزهارا من الحديقة . كانت انغريد تعتبر هـذه الأفلام كنزا لا يقدر بثمن ، وقد استطعت أن أقنعها بعد جهد بأن تعيرني اياها لأخرج منها نيجاتيفا ونسخا جديدة .

واجهت انفريد مرضها بغضب ونفاد صبر ، لكن جسدها القوي انهار وتآكلت مشاعرها . كانت منتظمة اثناء عملها داخل الاستوديو . وذات صباح التفتت الي بعنف وصفعتني (مازحة !) وهددتني بأنها ستمزقني اربا اذا لم اخبرها فورا بكيفية اعداد المشاهد . اجبتها وانا غاضب لهجومها المفاجىء بانني سبق وحذرتها مئات المرات بألا تفعل شيئا . وأن الهواة اللعينين وحدهم يفكرون بما سيفعلونه في كل خطوة . عندئذ اخذت تهزأ بحدة ومرح من سمعتي كمخرج يعرف كيف يدير ممثليه ، فاجبتها بالمقابل وباللهجة نفسها ، انني أشفق على المخرجين الذين عملوا معها أثناء شهرتها . وهكذا تبادلنا الكلمات بهذا الأسلوب ، ثم بدأنا نضحك وعدنا الى الاستوديو حيث كان الجميع ينتظرون بفضول. هدأت انفريد ، وانتفخ جفناهاوكانهما امتلأا بالدموع، سقط القناع الصارم ، وسجلت الكاميرا وجها انسانيا يعاني .

تم تصوير فيلم وثائقي عن مراحل التصوير ، وكانت مدته خمس ساعات كاملة . بعد ستة أشهر جاءت انفريد لزيارتنا في فارو واصرت على مشاهدة الفيلم الوثائقي . وعندما انتهت من مشاهدته جلست صامتة لبضع دقائق ، وهو أمر غير مألوف بالنسبة لانفريد ، ثم قالت بصوتها ذي النبرة الفذة : « كان يجب أن أشاهده قبل البدء بتصوير الفيلم » .

وفي احد الأيام كنا جالسين في الاستوديو بانتظار أن تجهز الاضاءة . كانت الشمس على وشك الغروب وقد توزعنا في زاويتين متقابلتين لصوفا جلدية مهترئة . قامت انفريد بحركة نادرة بالنسبة لممثلة .. رفعت يدها ومررت بها على وجهها عدة مرات ، ثم تنهدت بعمق ونظرت الي دون مودة ولا حتى محاولة للتواصل ، وقالت : « انت تعرف انني أعيش زمنا مستعارا » .. ابتسامة مفاجئة .. زمن مستعار .

* * *

التحقت بالدراماتن ـ المسرح الدرامي الملكي في استوكهولم ـ قادماً من مدينة مالمو ، وعلى الرغم من وجود طاقم فني رائع فقد قدمت عرضاً سيئاً لمسرحية (نورس البحر) ، وطلبت من الإدارة ان اتفرغ بعض الوقت لفيلمي المقبل . وجدت نفسي فجاة شخصاً ناجحاً ، يكسب نقوداً ولم اعد أعاني من الإضطرابات العصبية نتيجة تحملي مسؤولية اعالة اسر مختلفة .

أرهقني اسلوب حياتي البوهيمي ، فتزوجت كابي لاريتي ، وكانت عازفة بيانو صاعدة وانتقلت معها إلى ڤيلا انيقة في منطقة جورشولم وقد نويت أن أعيش حياة بورجوازية ومنظمة .

ذات مساء كنت أعمل في غرفة المونتاج ، عندما اتصل بي وزير الثقافة وسالني إن كنت راغباً في استلام منصب مدير المسرح الدرامي الملكي . ذهبت لمقابلته واطلعني بسرعة وحيوية على مطالبه . كان يريد خلق مسرح معاصر من الدراماتن ، فأشرت له بأن مثل هذا المشروع سوف يكلف أموالاً طائلة فأجاب الوزير بانه مستعد للدفع اذا قبلت العرض . ومن شدة جهلي بصدق السياسيين النسبي في هذا العالم ، لم اطلب منه أي تأكيد مكتوب لوعده ، واكدت له من ناحيتي انني ساعمل كل مابوسعي رغم كل الاحتجاجات التي ستواجه هذا المشروع . اعتبر الوزير موقفي ممتازاً . وهكذا اصبحت مدير المسرح الدرامي الملكي .

أتخيل أن ردة الفعل الأولى داخل المسرح كانت مؤيدة لي . صحيح أن أعضاء مجلس الادارة كانوا فطنين إذ أنهم بالاشتراك مع المدير السابق

قاموا بترشيح شخص آخر ، لكنهم سرعـان ما ابتلعـوا انزعاجهم - واستقبلوني بلطافة محايدة .

ولأسباب تكتيكية احتفظ المدير السابق بموضوع تقاعده سرياً لأطول فترة ممكنة ، وهكذا وجدت امامي ستة أشهر لتحضير موسمي المسرحي الأول ، بالاضافة إلى انني كنت مرتبطاً بانتاج تلفزيوني ضخم في الربيع وتصوير فيلم سينمائي في الصيف .

لم تكن أحوال المسرح التنظيمية تسير جيداً ، وكان المسرح يفتقر الى قسم الاستشارة الفنية وانتظر مديرو الانتـاج الستة السياسات الجديدة ، ووجدت أمامي جملة من الأعمال الشاقة كقراءة نصـوص المسرحيات وتحديد البرنامج وابرام العقود والتخطيطات الأخرى .

وكان أول إجراء رسمي اتخذته جعل عملية اتخاذ القرارات اكثـر ديمقراطية، واتخذت نموذجاً لنا فيلهارمونيا فيينا. نعقد اجتماعاً وننتخب هيئة ادارية مكونة من خمسة ممثلين يجب عليهم ، بالاشتراك مع مدير المسرح ، تولي شؤون الإدارة واختيار البرامج والاتفاق مع الممثلـين الآخرين واداء أدوار في المسرحيات ، وان يكونوا على علم تام بكل أحوال المسرح المالية والادارية . وفي حال حدوث خلاف ما ، يجري اقتـراع ويدلي كل منهم برايه ، بما في ذلك مدير المسرح . وبدورها فإن هـذه الهيئة الادارية تكون مسؤولة أمام الشركة وبهذه الطريقة يتم القضاء على سياسات الكواليس والاشاعات المزيفة والمؤامرات .

تلقى الممثلون اقتراحي ببعض التردد . . من المريح دائما أن يبقى المرء سلبياً ويتذمر من القرارات التي يتخذها الآخرون . ابدى بعضهم تفهماً فيما يتعلق بهيئة الممثلين ، لكن هذا التفهم سرعان ماتلاشى .

كانت الادارة شحيحة باعضائها ومثقلة بمسؤولياتها ، وكانت غرفة السكرتارية عبارة عن مكتب صحفي ، وملابس المسرح في حالة رثة . اما

مهندسو الديكور فهم باستمرار إما مرضى أو سكارى . وكان مفهوم التواصل في المسرح غير معروف .

اما المطعم فاكتسب سمعة سيئة نتيجة رواده المريبين وطعامه المروع . تفقدت مع الوزير أولويات المسرح ، حيث كان كل شيء معطلاً عن العمل ، فالتصليحات السابقة لم تكن كافية . وما أن نفدت النقود من اللجنة السابقة حتى توقف العمل وغرق المسرح في رائحة النتانة .

بالإضافة إلى هذا كانت توجد مشكلات أخرى مؤلمة من وجهة النظر الفنية ، وكان أولوف مولاندر يمثل واحد منها . لقد أمضى عقوداً طويلة كان خلالها المعلم الكبير في المسرح ، ينافسه آلف سيوبرغ باستمرار وكان مولاندر قد تجاوز السبعين ومع تقدمه بالسن بدا خوفه أكثر وضوحاً ، وأصبح رجلاً متعذباً يعذب الآخرين .

تجاوزت انتاجاته كل الجداول المتعارف عليها ، وبسبب مزاجه فقد حول المسرح الى حالة من الفوضى المحمومة ذات الطابع غير المبدع ولكن المدمر . لم يشك أحد بقدراته الفنية لكن أحداً لم يعد راغباً بالتعاون معه .

أوكلت الهيئة الادارية إلي مهمة ابلاغ مولاندر بأن نشاطه في المسرح سوف يتوقف .

كان يرتدي كعادته ثياباً انيقة ، بدلة مكوية جيداً ، وقميصاً أبيض وربطة عنق داكنة وحذاءً لامعاً . كان قد فقد إظفر احد اصابع يده البيضاء الجميلة ، الأمر الذي ضايقه قليلاً . وكانت نظرته الجيليدية مركزة على نقطة ما وراء اذني اليمنى ، وكان يميل إلى جانبه بدرجة بسيطة مثل القياصرة ويبتسم ابتسامة خفيفة .

كان الموقف غريباً للغاية . لقد كان مولاندر رجل المسرح الذي علمني سحر الدراما العميق والذي تلقيت من خلاله دوافعي الأولى

القوية ، وفجأة بدت لي مهمة الهيئة الادارية مستحيلة تماماً خصوصاً وانه بدأ يتحدث عن مشاريعه للموسم القادم حيث كان ينوي اخراج ثلاثيــة سترندبرغ المسرحية (الى دمشق) مـع مجموعة قليلة مـن الممثلين . كان يتحدث ويشير بأصبعه ذي الأظفر المكسور ، ثم ابتسم وركز نظرته على الحائط ، وخيل إلي انه يعرف بالأمر لكنه يحاول تأدية مشهد ما ، مما كان يجعل الوضع اكثر إيلاماً .

قلت له : « دكتور مولاند ، انا اتحدث الآن بالنيابة عن مجلس الادارة » وللمرة الأولى نظر إلي مباشرة وقاطعني قائلاً : « تقول بالنيابة عن مجلس الادارة ؟ الا تستطيع أن تقول شيئاً بالاصالة عن نفسك ؟ » .

فاجبته بأنني أشارك مجلس الادارة الرأي .

« هل لي أن اعرف رأي مجلس الادارة يا سيد برغمان ؟ » سألني وقد اتسعت ابتسامته واصبحت اكثر ودية :

« يجب ان أخبرك يادكتور مولاندر بانك لن تقدم شيئاً لهذا المسرح خلال الموسم المقبل » .

تلاشت ابتسامته ، ومال راسه الكبير إلى اليمين وبقيت يده البيضاء مشغولة بالاصبع ذي الاظفر المفقود .

« أوه ... أهكذا هو الوضع ؟ » . وساد الصمت .

قلت لنفسي : « هذا مخالف للعقل والطبيعة . إنني ارتكب خطأ جسيماً . سوف يبقى هذا الرجل في المسرح حتى لو حطمنا جميعاً . إنني مخطىء حتماً ، وياله من خطأ رهيب » .

« إن قرارك سيسبب لك بعض المتاعب ياسيد برغمان . هل اخذت ذلك بعين الإعتبار ؟ » .

أجبته : « لقد كنت بنفسك مديراً للمسرح يادكتور مولاندر ، وأعرف من تاريخ هذا المسرح انك اقدمت على قرارات كثيرة غير سارة » .

أوما براسه وابتسم : « لن تنال مبادرتك هذه أعجاب الصحافة ياسيد برغمان » .

فقلت له : « لست أخشى الصحافة .. والحقيقة يادكتور مولاندر انني لست أخشى شيئاً على الاطلاق » .

« لا تخشى شيئاً ؟ » قال بهدوء ، ثم نظر إلي وتابع : « اهنئك . في هذه الحالة فإن أفلامك هي اختراعات ذكية جداً » .

ونهض بسرعة وهو ينهي حديثه : « لا يوجد لدى احدنا ما يقوله للآخر ، أليس كذلك ؟ » .

تساءلت اذا كان بوسعي العودة والبدء من جديد ومحاولة اصلاح هذا الضرر ، ولكن فات الآوان وبذلك ارتكبت خطئي الرهيب الأول كمدير للمسرح .

وقفت ومددت يدي لمصافحته ، لكنه تجاهلها قائلا :

« سوف أكتب الى مجلس الادارة » . ومضى خارجا .

كانت تقاليد المسرح تقضي ان يشارك المدير في جميع القرارات من اكبرها الى اصغرها . وقد بقي الحال كذلك بالرغم من عملية اتخاذ القرارات المشتركة واعصارات الاجتماعات المستمرة . إن الدراماتن مؤسسة فاشستية ميئوس منها يمتلك مديرها فرصا هائلة لتشكيل فعالياتها الداخلية والخارجية . أحببت هذه السلطة ، وكان مذاقها طيبا وحافزا . من الناحية الأخرى اتخذت حياتي الخاصة طابعا اشد تعقيدا ، لكنني كنت اتحاشى التفكير بها اثناء وجودي بالمسرح من الثامنة

صباحا وحتى الحادية عشرة ليلا . وخلال فترة الاثنين والأربعين شهرا التي عملتها مديرا للمسرح ، اخرجت سبع مسرحيات و فيلمين سينمائيين بالاضافة الى كتابة اربعة سيناريوهات .

غرقنا جميعا في العمل وكنا نقدم احدى وعشرين مسرحية خلال العام الواحد ، ثماني عشرة منها على المسرح الكبير وثلاث على المسرح الصيني ، وهو مسرح للشباب .

كانت رواتب الممثلين ضئيلة فرفعتها بمقدار اربعين بالمائة ، اذ كنت أعتبر الممثل مفيدا مثل أسقف أو راعي أبرشية . واقترحت فكرة اسبوع اجازة حيث تمنع خلاله العروض والبروفات ، وقد سُرّ الممثلون لذلك وأستفادوا من هذه الايام للتنزّه في ضوء القمر .

قوبلت اجراءاتي بصمت قلق من قبل المعارضة التي جمعت صفوفها بطريقة سويدية نكدة ، والتقى مديرو مساح البلاد في مطعم أوكر الذهبي لمناقشة ما أنا بصدده . . أن المسرح الذي ينتشر بسرعة يجلب الانتقاد لنفسه وبدأ أحدهم يسرب معلومات عن المسرح الى جريدة مسائية . وجهت لنا انتقادات مختلفة ، ومنها اننا لا نقدم مسرحيات سويدية معاصرة بالقدر الكافي ، وهذا الانتقاد بعينه كان يزعج المسرح الوطني خلال القرون الماضية وليس بوسع أحد أن يفعل شيئا تجاهه .

لا اعرف تماما كيف كان الوضع ، اعتقد انه كان مسليا ولكن بطريقة مجنونة : رعب وتسلية في آن واحد . اذكر انني كنت اشعر بالمرض والتعب وفي الوقت نفسه احترق من الفضول كل يوم ، واذكر كيف كنت أصعد الدرج الخشبي الضيق الى غرفتي السكرتارية والادارة يتملكني احساس هو خليط من الرعب والبهجة . تعلمت ان كل شيء هو مسألة حياة أو موت ، وأن الفهم وسوء الفهم يسيران سوية مثل توءم سيامي ، وأن المحنة هي الجرعة الطبيعية السائدة والمؤدية للفشل .

وان نقص الثقة بالذات أخطر شيء بالعالم وأن الرغبة بالانسحاب هاجس قد يتملك حتى أقوى الناس ، وأن التذمر اليومي الذي يتكرر مثل نوته طنانة عبر الجدران والسقوف يمنح نوعا من الطمانينة . كنا نصرخ ونتذمر ونندب ، لكننا كنا نضحك أحيانا .

من وجهة النظر المهنية أعتقد ان سنواتي كمدير للمسرح انقضت عبثا . لم أتطور ولم يكن لدي وقت لأفكر وكنت أبحث دائما عن كلمات معاكسة لحلول مثبتة ، وعندما كنت اصعد الى خشبة المسرح في التاسعة والنصف اجد راسي مزدحما بمشاكل المسرح الصباحية ، وبعد البروفات يمكن توقع لقاءات واجتماعات حتى وقت متاخر من المساء .

أعتقد أن مسرحية ابسن (هيدا غابر) هي انتاجي الوحيد الذي منحني بعض الرضا ، وكل ما عداها كان مجرد خليط تم تنفيذه على عجـل .

ومع نهايـة موسمي الأول في المسرح بدات تواجهنـا المحن .. فالافتتاح العالمي لمسرحية هاري مارتينسون (ثلاث سكاكين من فيي)لاقى فشلا ذريعافي أحد مهرجانات استوكهولم، كذلك كان الاخفاق المقنع والتام بانتظار العرض الأول لفيلمي الكوميدي (والآن بصدد أولئك النساء) .

كان صيفا حارا ، ولم نشعر انا وزوجتي كابي باية رغبة لحجز مكان نمضي به اجازتنا ، فبقينا في جورشولم وقد أقعدنا القيظ الشديد واحساسنا بالقنوط .

كتبت في يومياتي المتقطعة : « ان للحياة القيمة نفسها التي يقرر الانسان أن يحددها » . انها طريقة ساذجة لطرح الأمور ، لكنها بالنسبة لي كانت حالة من التبصر ، حابســة للانفاس ، ولا أستطيع الاستفادة منهـا .

امضى مساعدي تيم صيفاً قاسياً ... كان يعمل في السابق راقص باليه في مسرح مالمو ، لكنه لم يحصل على دور رئيسي بسبب قصر قامته على الرغم من مهارته ، وعندما بلغ الاربعين خرج الى التقاعد فعينته مساعداً لي بعد أن تعقدت امور الحياة واصبحت مخرجاً سينمائياً مشهوراً وكان لا بد من وجود شخص ما يرد على الهاتف ويكتب الرسائل ويراجع النفقات ويعتني بتنظيم القاعدة الأساسية ، شخص يتحمل متاعب لكونه يدي اليمنى .

عاش تيم سعيداً واتخذ له صاحباً ذكراً وكان الاخير متزوجاً ولديه أطفال ، وكانت زوجته امراة حكيمة فسمحت بالعلاقة بينهما ، بل وشجعتها . بالنسبة لي كان تيم لا غنى عنه وبقيت العلاقة معه دون تعقيدات نسبياً ، ثم تعرض للمأساة فجاة عندما وقع صاحبه في غرام جديد وابعد تيم عن العائلة والرفقة المنتظمة . اندفع تيم بعنف الى مستنقع الكحول والمخدرات وممارسة الجنس باحط أشكاله ، وتحول الحب الى فسق ودعارة ، وبدأ هذا الرجل الانيق والدقيق والمسؤول يهمل عمله ويظهر مع شخصيات غريبة تسيء معاملته .

واحياناً كان يختفي لايام ، ثم يتصل مبرراً غيابه بالتهاب معوي أصابه ، ودائماً التهاب معوي . حاولت اقناعه بأن يجد لنفسه طبيباً نفسانياً لكنه رفض . كان يقول لي : « لا يوجد وفاء عند الرجال لاننا لا نستطيع انجاب اطفال . ألا تعتقد بانني كنت ساصبح اماً جيدة ؟ نحن مرغمين على العيش وانوفنا غارقة في الخراء . اننا نختنق . انا لا اؤمن بالخلاص « وربما كان من الافضل لنا اننا لم نقم علاقة جسدية بيننا لانها .. كانت ستؤدي الى الغيرة والخصومة ، ولكن من المؤسف انك لم تحاول ابداً ولو قليلا . على العموم انا افضل منك ، فانا رجل وامرأة في آن واحد ، واكثر اشراقاً منك » .

مات تيم في صباح يوم أحد بينما كان يعد افطاره وقد ارتدى ثياباً مسرحية وبوزرة مطبخ رسم عليها دونالد داك . سقط على الارض وبقى

ممددا مكانه ومات خلال ثوان قليلة . موت جيد لرجل صغير شجاع كان يخشى الموت الرحيم اكثر من الحياة الوحشية .

اختار آلف سيوبرغ مجموعة فتيات طويلات القامة للكورس في مسرحية « أليستس » ، بالاضافة الى الواعدة مارغريتا بيستروم التي تخرجت لتوها من مدرسة الدراما ، وتلقت عرضاً من احد المنتجين لتلعب دوراً أساسياً ، فسمحت لها بالانتقال دون ان أسال سيوبرغ ووافقت هيئة الممثلين على قراري وعلقت قائمة بأسماء الممثلين . بعد بضع ساعات اخترق الجدران صوت هادر ، تبعه ضجيج وصخب ، ثم اقتحم سيوبرغ مكتبي غاضباً وطالبني باعادة مارغريتا بيستروم فوراً فقلت له ان هذا مستحيل وان هذه فرصة لا تعوض بالنسبة لها بالاضافة الى أنني أرفض كل أنواع التنمرد ، فأجاب سيوبرغ بأنه حان الوقت ليحطم أنفي أخيراً . تراجعت الى وراء الطاولة وذكرت له شيئاً حول السلوك المهذب ، لكنه رد قائلا إنني عملت ضده منذ لحظة وجودي الاولى في المسرح وقد زاد الامر عن الحد المحتمل . اقتربت منه وعرضت أن يضربني فوراً اذا كان يعتقد بمثل هذا النوع من الجدال . كان وجهه يرتعش وجسده يرجف وكنا نتنفس ببطء ، ثم ادركنا كم كان الموقف كوميدياً وجنونياً ولكنه بعيد عن الضحك كلية .

جلس سيوبرغ على أقرب مقعد وتساءل كيف يمكن لشخصين ذوي تربية حسنةأن يتصرفا بهذه الحماقة. وعدته أن أعيد مارغريتا بيستروم لكنه رفع يده بحركة رفض مزدرية وغادر الغرفة . عندما التقينا بعد ذلك لم يشر أحدنا للموضوع . وكنا نختلف في احيان كثيرة حول شؤون فنية وشخصية ، لكننا كنا نتعامل بلطف ودون ضغينة .

في عام ١٩٣٠ زرت المسرح الدرامي الملكي لاول مرة في حياتي ، حيث كانوا يقدمون مسرحية خيالية للاطفال من تأليف غيريستام بعنوان « كلاس الكبير وكلاس الصغير » . وكان آلف سيوبرغ مخرج المسرحية في ذلك الحينوهو يبلغ من العمر سبعة وعشرين عاماً ، وكانت هذه المسرحية

ثاني أعماله . اذكر كل التفاصيل والاضاءة والمناظر وشروق الشمس فوق الاقزام الصفار الذين يرتدون الازياء الشعبية والقارب في النهر والكنيسة القديمة التي يحرسها القديس بيتر . كنت حينها جالساً في الصف الثاني من الطابق العلوي ، قريباً الى باب المخرج . خلال السنوات الماضية وفي ساعات هدوء المسرح الفاصلة بين البروفات والعروض المسائية ، كنت أجلس الى مقعدي القديم واستسلم للحنين وأشعر بكل نبضات قلبي ان هذا المقعد غير العملي هو بيتي . وكانت الصالة الضخمة غارقة في الصمت وشبه العتمة ، وفكرت أن أكتب : « البداية والنهاية وكل شيء تقريباً بينهما » . يبدو الأمر سخيفاً ومبالغاً بـه ، ولكنني لا أستطيع أن أحـدده بشكل أفضل ــ البداية والنهايـة وكل شيء تقريباً بينهما .

اخبرني آلف سيوبرغ ذات مرة أنه لم يستعن في حياته بمسطرة لقياس مساحة الخشبة ورسـم المشاهد . كانت يده تعرف القياس الصحيح .

وهكذا استقر في الدراماتن منذ عمله الاول كممثل عاطفي شاب ، (حيث قالت عنه معلمته ماريا شيلكنشت : كان ممثلا موهوبا ولكنـه كسول لذلك أصبح مخرجاً) ، وبقي فيه حتى وفاته ، وكان قد غـادر مرتين أو ثلاثاً كمخرج ضيف على مسارح اخرى ، لكنه كان يعود الى الدراماتن حيث أصبح أميره وسجينه في آن واحد . لا اعتقد انني قابلت احداً بمثل هذه التناقضات العنيفة الموجودة لديه . كان وجهه يشبه قناع دمية تسيطر عليه الارادة وجاذبية خاصة ، وخلف هذه الواجهة الصارمة ثمة تزعزع اجتماعي وعاطفة عقلانية ، معرفة للذات وخداع لها ، شجاعة وجبن ، مزاج أسود وجدية قاتلة ، لطف وفظاظة ، نفاد صبر وصدر رحب ، كل هذا كان يمتزج مع بعضه في هارمونية واحدة . ومثل كل المخرجين ، كان يمثل دور المخرج ، ولانه أساساً ممثل موهوب فان عروضه مقنعـة .

لم أحاول منافسته أبداً . . كان ارفع مقاماً مني في المسرح وهي حقيقة تقبلتها دون ضغائن . . ان تأويلاته بالنسبة لشكسبير قد استوفت كل

شيء ولم أستطع أن أضيف اليها شيئاً . كان يعرف اكثر مني ويرى بعمق اكثر ، ثم يعيد خلق ما رآه .

وكان قد تأثر بلا شك بالثورة الثقافية الاقليمية التي جرت في بلادنا أثناء مد اضطرابات الطلاب العالمية ، وكان ، خلافاً عني ، ذا ارتباطات سياسية ، وتحدث بحماس عن المسرح كسلاح . وعندما انفجر الوضع في الدراماتن أراد أن يزود متاريس المسرح بالدماء الشابة ، ثم احس بمرارة فظيعة عندما قرأ في مكان ما بأنه يجب احراق الدراماتن وشنق سيوبرغ وبرغمان عند ساعة تورنبرغ ، خارج نيبروبلان .

ربما يأتي في المستقبل باحث جريء ويحقق في مدى الضرر الذي الحقته حركة عام ١٩٦٨ في حياتنا الثقافية . قد يكون هذا ممكن ولكنه غير مرغوب به . واليوم لايزال الثوريون المحبطون متمسكين بمكاتبهم ومناصبهم ويتحدثون بأسى عن (التجديد الذي لم يتم) . انهم لا يرون (وكيف بوسعهم أن يروا ؟) بأن مساهمتهم كانت جرحا قاتلا في عملية تطور لا يجوز أن تنفصل عن جذورها أبدا . ففي بلاد أخرى حيث يسمح بتداول وازدهار أفكار متفاوتة ، يحظر تدمير التقاليد والثقافة . ولكن في الصين والسويد فان الفنانين والمعلمين محتقرون .

لقد تعرضت بنفسي للإبعاد خارج مدرسة الدراما الحكومية وامام ناظري ابني . فعندما ذكرت أن الطلاب سوف يتعلمون مهنة تمكنهم من الخروج حاملين معهم رسالة ثورية ، لوح البعض أمامي بالكتاب الاحمر محذرا .

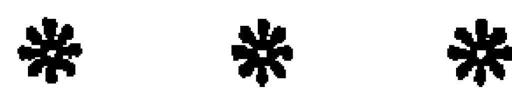
يستطيع الشباب ان ينظموا انفسهم بسرعة ومهارة ويثيروا انتباه وسائل الاعلام ويتركونا ، نحن العجائز المرهقين ، في عزلة موحشة . بالنسبة لي فانا لم أشعر بالمضايقة أثناء عملي . فجمهوري كان في بلاد اخرى وهو الذي وفر لي سبل العيش وجعلني أعيش في مزاج طيب . أكره التعصب الذي عرفته منذ طفولتي ، فعوضا عن الهواء النقي نجد

امامنا التشويش والانتماء الاقليمي والتعصب والتملق وسوء استخدام السلطة . فسدت الأفكار .. وهذا الفساد قد يحدث بسرعة وقد يستغرق مئات السنين ، لكنه في عام ١٩٦٨ حدث بسرعة مخيفة وألحق في مدة قصيرة ضررا يتعذر اصلاحه .

انجز آلف سيوبرغ خلال سنواته الأخيرة أعمالا عظيمة ، فترجم واقتبس (بشارة مريم) لكلودل وكان عرضا مسرحيا خالدا ، ثم قدم (غاليليو) لبريخت وأخيرا (مدرسة للزوجات) ، العرض الممتع والمتحفظ والغامض .

كانت غرف مكاتبنا تقع في الممر نفسه وكنا نلتقي احيانا بسرعة في طريقنا للبروفات والاجتماعات ، وكنا نجلس أحيانا أخرى على مقاعد خشبية ونتحدث وننهمك في القيل والقا لونتذمر ، ولكننا لم نلتق بشكل شخصي خارج المسرح . كنا نجلس على المقاعد الخشبية لساعات عديدة ، وأصبحت جلستنا طقسا متكررا .

بعد سنوات ، وعندما أكون مندفعا الى غرفتي في الممر المعتم ذي الرائحة الغريبة ، اقول لنفسي : « ربما قد يظهر مسرعا ونصطدم ببعضنا . » .



شيد في مدينة أوربرو ، غرب استوكهولم ، مسرح جديد ووجهت دعوة للمسرح الدرامي الملكي لحضور حفل الافتتاح . اخترنا نصا مسرحيا غير منشور لهيلمار برغمان ، ابن اوربرو الشهير ، ويدعى (سيدة نعمته) ، وقبل بدء البروفات أصيب الممثل أولوف ساندبرغ بوعكة صحية فطلبت من هولغر لوفينادلر أن يحل مكانه فوافق دون حماس لأنه كان يعرف بأن ساندبرغ متفوق ولا يمكن مقارعته في هذا الدور وأن النقاد المبدعين سوف يستفيدون من مقارنة غير محبذة .

وقبل أيام من السفر الى أوربرو اقعدت المخرج بير ـ اكسل برانر آلام عصبية في الظهر ، فتعذر سفره ، وكنت بدوري قد تعرضت لنزلة برد ، لكني شعرت بضرورة السفر لإلقاء كلمة وتوزيع الهدايا .

كان المسرح الجديد في اوربرو وحشا اسمنتيا شنيعا يكن ازدراءً متأصلاً لفن التمثيل (كانت مدينة اوربرو تضم احد اجمل مسارح البلاد والذي تحول بفضل اللامبالاة السويدية تجاه الثقافة الى حطام كامل) .

في اليوم الذي سبق الافتتاح كنا نجري بعض البروڤات ونختبر الاضاءة عندما تعرض اندرس هنريكسون ، الذي يؤدي دور ويكبرغ، لنوبات دوار ورفض استدعاء الطبيب واصر على الاستمرار وإلا فإن الحفل سوف يفشل . وفي صباح يوم الافتتاح وصلت درجة حرارتي الى الاربعين وبدأت اتقيأ فاستسلمت وطلبت من المدير المالي أن يتسلم عجلة القيادة .

وبدأ حفل الافتتاح المهيب . كتب لارس فورسل خطبة عصماء وقامت بإلقائها بيبي اندرسون وقد ارتدت ملابس دورها في مسرحية (ساغان) لهيلمار برغمان . وما أن بدأت بإلقاء الخطبة حتى انهار رجل جالس في الصف الثاني ومات ، فحملوه خارجا واعادت بيبي أندرسون الخطبة منذ بدايتها وفي جو غريب للغاية. كانت حالة أندرس‌هنريكسون الصحية قد ازدادت سوءا لكنه رفض الانسحاب ، وجاء العرض‌رهيبا في النهاية واضطر الملقن لأداء دور أساسي ، وكان النقاد شديدي القسوة ولم ينل اندرس هنريكسون سوى البصاق مقابل شجاعته .

من المفهوم لماذا يشعر بالتطير كل من يعمل بالمسرح . إن فننا هذا غير معقول وهو معرض باستمرار وغموض لمختلف‌الحوادث‌والمصادفات. وقد تساءلنا (مازحين بالطبع) اذا كان هيلمار برغمان يتدخل بشكل ما في عملنا ليمنعنا من تقديم مسرحياته .

لقد واجهت مواقف مماثلة كثيرة . يتراءى لي سترندبرغ غير راض عن عملي في السنوات الاخيرة . كنت ساخرج (رقصة المـوت) عندما القت الشـرطة القبض علي ، واصيب اندرس ايك بمرض خطير أثناء اعداد المسرحية نفسها في مناسبة أخرى ، وفقد محامي صوابه وجن أثناء بروفات (لعبة حلم) في ميونخ ، وبعد سنوات جنت الممثلة التي تؤدي دور جولي اثناء بروفات (الآنسة جولي) وحبلت ممثلة اخرى كان يفترض أن تؤدي الدور نفسه في استوكهولم ، وعندما بدات التحضير لمسرحية (لعبة حلم) انهار مصم الملابس نفسيا وحبلت ابنة اندرا واصبت انا نفسي بعدوى غريبة . إن هذه الحالات من سوء الحظ ليست محض صدفـة . إن سترندبرغ يرفضني لسبب مـا ، وقـد أحزنتني هذه الفكرة لأنني كنت أحبه .

تصورت أنه اتصل بي ذات ليلـة واتفقنا أن نلتقي في كارلافاغن . كنت منفعلاً ومراعيا لرغبات الآخرين ، وحاولت ان أتذكر كيف يلفظ اسمه الأول (اوغست) . وعندما التقيته وجدته محبا وودودا . كان قد شاهد (لعبة حلم) على المسرح الصغير ولم يقل شيئا عن المحاكاة الساخرة اللطيفة التي قدمتها في مشهد الكهف .

وفي الصباح التالي ادركت بأنه يجب توقع فترات من الخزي عند التورط مع سترندبرغ ، ولكن سوء التفاهم زال في هذه المناسبة .

اتحدث عن كل هذا كقصة طريفة ، ولكن عميقا في قلبي الطفولي ، الذي لا اعتبره كذلك ، اشعر بأن الاشباح والشياطين ومخلوقات أخرى مجهولة الاسماء والعناوين ، لاتزال تحوم حولي منذ الطفولة .

* * *

عندمـا كنت في العاشـرة أغلق الباب عـلي في مسـتودع للجثث بصوفياهمت . وكان يعمل بالمستشفى وكيل دفن يدعى الغوت ، وكان

رجلا ريفيا ، شعره قصير وأبيض مائل للصفرة ، رأسه كروي وعيناه ضيقتان وزرقاوان لامعتان ، يداه كبيرتان ، لونهما احمر مائل للزرقة . وكان مسؤولا ن نقل الجثث ويحب التحدث عن الموت والأموات .

كان مستودع الجثث يتألف من غرفتين ، الأولى عبارة عن كنيسة صغيرة حيث يستطيع الأقارب أن يودعوا ذويهم المتوفين ، والثانية كانت غرفة الجثث بعد الانتهاء من تشريحها .

في يوم شتائي مشمس أغراني الفوت بالدخول الى الغرفة الثانية وكشف الغطاء عن جثة وصلت لتوها . كانت لفتاة شابة ذات شعر أسود طويل وفم ممتلىء ورقبة مستديرة . حدقت بها طويلا بينما كان الفوت مشغولا بأمر آخر . وفجاة سمعت صوت انغلاق باب فالتفت وشاهدت الباب الخارجي مغلقا ووجدت نفسي وحيدا مع الاموات ، الفتاة الجميلة وخمس او ست جثث أخرى موضوعة على رفوف عريضة بمحاذاة الجدران وبالكاد تغطيها اغطية صفراء مبقعة . اندفعت الى الباب وصرخت مناديا الفوت ولكن دون جدوى . كنت وحيدا مع الاموات ، وبأي لحظة يمكن أن ينهض أحدهم ليخنقني . ظهرت الشمس وتسللت اشعتها عبر الواح النوافذ الزجاجية البيضاء وتراكم السكون فوق رأسي وسمعت صوت نبضي في أذني . وجدت صعوبة في التنفس وشعرت بالبرد يجمد أعماق معدتي وسطح جلدي .

جلست على احد مقاعد الكنيسة الصغيرة وأغمضت عيني فزاد رعبي . أردت أن أعرف ما يمكن أن يحدث وراء ظهري أو في أي مكان لا أراه . عبرت مجموعة اشخاص من خارج الكنيسة واستطعت أن أسمع أصواتهم والحهم من خلال زجاج النافذة المتجمدة. ويالدهشتي! إذ لم افكر بالاستغاثة بهم وبقيت جالسا بهدوء وصمت الى أن اختفوا تدريجيا وتلاشت اصواتهم .

تملكني دافع لافح ومدغدغ فنهضت وتوجهت الى غرفة الموتى . كانت الشابة ممددة على طاولة خشبية في وسط الغرفة ، عارية تماما، وكان هناك شـق ممتد من حنجرتها الى عورتها مغطى بشـريط طبي لاصق . دفعت يدي ولمست كتفها ، كنت قد سمعت عن رعشة الموت لكن جسد الفتاة كان دافئا وليس باردا . حركت يدي باتجاه ثديهـا الصغير الرخو ذي الحلمة السوداء المنتصبة . كانت تتنفس . كلا لم تكن تتنفس . هل فتحت فمها ؟ شاهدت أسنانها البيضاء وراء قوس شفتيها . تحركت حتى أرى جهازها الجنسي ، أردت ان المسه ولكنني لم أجرؤ . بعد ذلك رايتها تنظر إلي من وراء جفنين شبه مغمضين . احسست بالتشويش وتوقف الزمن واصبح الضوء أكثر توهجا . كان الغوت قد حكى لي قصة صديق له أراد أن يمازح ممرضة شابة فدس لها يدا مبتورة تحت غطاء فراشها ، وعندما لم تظهر الممرضة في صلاة صباح اليوم التالي ذهبوا الى غرفتها ووجدوها قد جنت تماما ، تمضغ بأسنانها اليد المبتورة بعد أن قطعت الإبهام ودفعت بـه الى عورتها . شعرت بانني ساجن بالطريقة نفسها . هرعت الى الباب الذي فتـح تلقائيا .. لقد تركتني الفتاة أهرب !.

حاولت أن اقدم هذا المشهد في فيلم (ساعة الذئب) لكنني لم أنجح ورميت المشهد جانبا، ثم عاودت المحاولة في فيلم (صرخات وهمسات).. حيث لا يموت الانسان نهائيا ويبقى الميت ليزعج الاحياء .

الاشباح والشياطين ، الاخيار منهم والاشرار ، يظهرون أمامي ، يدفعونني ، يثقبـون خصيتي وينزعون قميصـي . إنهـم يتحدثـون ويتهامسـون . أصواتهم واضحة ، كلماتهم غـير مفهومة ولكن لا يمكن تجاهلها .

بعد مرور عشـرين عاما خضعت لعملية جراحية بسـيطة وكانت تتطلب تحذيرا بدرجة معينة ، لكنه حدث خطأ واعطوني جرعة زائدة ، وهكذا اختفت سـاعات من حياتي لا اسـتطيع أن اتذكر اية احـلام



خلالها : لم يعد الزمن وجود ، ست ساعات ، ستة أجزاء من الثانية ، او الدهر كله .. ونجحت العملية .

طوال حياتي كنت اصارع العلاقة المعذبة مع الله . الايمان ونقص الايمان ، العقاب ، النعمة الإلهية والنكران ، كل هذا كان حقيقيا وإلزاميا بالنسبة لي ، وكانت صلواتي تفوح بروائح الألم والتضرع والثقة والكراهية واليأس . لقد تحدث الله . لم يتحدث الله . لا تشح بوجهك عني .

اما ساعات العملية المفقودة فقد حملت إلي رسالة مهدئة . لقد ولدت دون سبب وتعيش بلا مغزى . العيش يمثل مغزاه الخاص . وعندما تموت فإنك تنطفىء وتسدد دنيا ، وسوف تتحول ، من كونك أنت ، الى اللاشيء . إن الله لا يقيم بالضرورة وسط ذراتنا ذات الطابع الهوائي .

هذا التبصر حمل معه شيئا من الطمانينة التي قضت على احساسي بالألم والاضطراب ، ومن ناحية أخرى فانني لم انكر أبدا حياتي الثانية (او الأولى) ، حياة الروح .



عندما عدت من مدينة اوربرو كانت درجة حرارتي إحدى وأربعين وكنت شبه غائب عن الوعي . حضر طبيبي وأكد اصابتي بذات الرئة المضاعفة ، فاستسلمت للفراش اتناول المضادات الحيوية واقرا المسرحيات .

وبالتدريج بدات أستعيد قواي رغم بقاء حرارتي مرتفعة لبضعة أيام . و فيالنهاية التحقت بمستشفى صوفياهمت لاجراء الفحوصات. كانت غرفتي تشرف على الحديقة وبيت الكاهن الواقع على الهضبة

والكنيسة الصغيرة ، حيث كان يدخل ويخرج أشخاص متشحون بالسواد ، مع نعوش احيانا ، ومن دونها احيانا أخرى .

. كنت إتردد على المسرح ، كلما استطعت ، لأفند الشائعات حول اقتراب وفاتي ، فتسوء حالتي وتهاجمني نوبات دوار . كان يجب أن اقوم ببعض التمارين واقف في غرفتي وأركز نظري على نقطة معينة ، وعندما اتحرك اشعر بأن الجدران واثاث الغرفة تسقط على رأسي فاتقيأ مباشرة . اصبحت مثل رجل عجوز ، يسير خطوة خطوة وبحذر شديد وهو يمسك مقابض الأبواب ويتحدث ببطء .

وفي أيام معينة ، بعد زوال علائم المرض وعودتي إنساناً طبيعياً ، كانت تزورني صديقة حميمة هي انفريد فون روزن وتأخذني بسيارتها الى سمادالارو ونجلس على عتبة البيت الصيفي المظللة بشجرة بلوط قديمة ونأكل الشطائر ونشرب البيرة . كان احدنا يعرف الآخر منذ سبع سنوات ولم يكن يوجد لدى أحدنا ما يقوله للآخر ، لكننا كنا نستمتع بوجودنا سوية .

تعودت على نظام المستشفى فكنت انهض مبكراً واتناول الإفطار واتمشى في الحديقة قليلاً واجري بعض الاتصالات الهاتفية مع المسرح لمناقشة الكوارث الأخيرة ، واقرأ الصحف وإجلس الى مكتبي لأرى إن كان بوسعي تحقيق شيء مبدع .

كان يجب أن انتظر شهراً حتى تحرر مخيلتي نفسها وتتشكل بواسطة الكلمات الحائرة والعبارات المتلعثمة .

كنت مرتبطاً مع شركة سفنسك لإخراج فيلم في حزيران ، وكانت قصته مقبولة ويدعى (آكلة لحوم البشر) . وعند نهاية آذار أدركت أن المشروع غير واقعي واقترحت بديلاً منه فيلماً صغيراً يتحدث عن امرأتين . وعندما سألني مدير المؤسسة عن الفيلم الجديد أخبرته

بمراوغة وتملص بأنه فيلم يروي قصة سيدتين شابتين تجلسان على شاطىء البحر وترتديان قبعتين ضخمتين وتجريان مقارنة بين أيديهما ، فاحتفظ المدير بوجهه صارماً وقال بحماس شديد : إن الفكرة رائعة .

ومع نهاية نيسان جلست الى مكتبي في غرفتي بالمستشفى ، أراقب قدوم الربيع حول بيت الكاهن ومستودع الجثث .

بقيت المرأتان تقارنان بين أيديهما ، وذات يوم اكتشفت أن إحداهن كانت صامتة مثلي ، أما الثانية فكانت متحدثة وفضولية وحريصة ، مثلي أيضاً . لم تكن لدي قوة لأكتب السيناريو بالصيغة التقليدية . . كانت المشاهد تولد بصعوبة بالغة ترافقها شبه استحالة في كتابة الكلمات والعبارات . لقد انقطع الاتصال مع آلية التخيل وعجلة الاختراع ، أو أنه أصيب بضرر بالغ . كنت أعرف ما أريد أن أقوله لكنني لم أستطع التعبير عنه .

تقدم العمل ببطء شديد مثل الحلزون ، وتخللته هجمات من الحمى واضطراب التوازن والقنوط ، وبدأ الوقت المحدد ينفد ، ولا بد من الاتفاق مع الممثلات . كنت أتناول العشاء مرة أو مرتين بالأسبوع مع صديقي الدكتور شتور هيلاندر والذي كان هاوي تصوير فوتوغرافي . كانوا يصورون فيلماً في لوفوتن تحت عنوان مؤقت (الصيف قصيراً) ، وقام هيلاندر وزوجته بزيارة موقع التصوير لأنهما كانا صديقين حميمين لبيبي أندرسون . التقط الدكتور مجموعة صور وعرضها علي بعد عودته وكانت معظمها لزوجته وللجبال ما عدا صورتين أثارتا اهتمامي ، بيبي أندرسون تجلس مقابل حائط خشبي أحمر والى جانبها ممثلة شابة تشبهها ولا تشبهها في آن واحد ، وعرفتها مباشرة . كانت عضواً بالبعثة النرويجية التي زارت الدراماتن وتعتبر ممثلة واعدة وقد سبق لها أن لعبت دوري جوليت في (روميو وجوليت) ومرغريتا في (فاوست) . . كان اسمها ليف أولمان .

بعد انتهاء تصوير ذلك الفيلم سافرت الممثلتان برفقـة زوجيهما لقضاء الإجازة في يوغوسلافيا .

مع انتهاء الموسم المسرحي في الدراماتن اصبح سيناريو (برسونا) جاهزاً بين يدي . فالتقيت الممثلتين اللتين شعرتا بالدهشة والخوف في مواجهة هذه التجربة .

واثناء المؤتمر الصحفي الذي سبق تصوير (برسونا) عاودتني نوبات الدوار ، واراد المصور ان يلتقط لي صورة مع الممثلتين بالقرب من شجرة بتولا ، فرفضت لأنني لم أكن قادراً على الحركة . وكانت الصورة التي التقطها اخيراً صورة لثلاثة أشخاص شاحبين وقلقين ، يميلون بوجوههم الى اليسار .

تم تحديد موعد بدء التصوير واعتمدت فارو موقعاً رئيسياً له . كان الاختيار سـهلاً لأن فارو بقيت علـى امتداد سـنوات طويلـة حبي السري .

لقد حدث انه في عام ١٩٦٠ كنت سأصور فيلماً بعنوان (عبر مرآة معتمة) عن اربعة أشخاص في جزيرة ، يظهرون في لقطة البداية وكأنهم قادمون من البحر . اردت ان اصور في أوركينز . عصر اعضاء مجلس ادارة الشركة اياديهم عندما عرفوا حجم النفقات المقبلة ووضعوا طائرة هيليكوبتر تحت تصرفي لاستطلع الشاطىء السويدي . عدت وانا أكثر تصميماً على التصوير في أوركينز فاقترح احد المنتجين المنفذين أن نصـور في فارو ، فهـي تشبه أوركينز لكنهـا ارخص منهـا واكثر ملاءمة وعملية .

ومن أجل حسم الموضوع نهائياً وصلنا الى جزيرة غوتلاند في يوم نيسـاني عاصف لاستطلاع فارو واتخاذ قرار اخير . اقلتنا سيارة أجرة

متداعية عبر الأمطار والثلوج الى مكان المعدية التي نقلتنا بصعوبة الى فارو وهناك بدأنا جولتنا على الطرقات الساحلية الزلقة .

يفترض أن نشاهد في الفيلم حطـام مركب غارق .. ما أن اجتزنا منعطف الجرف حتى شاهدنا حطام مركب غارق ، تماماً كما وصفته في السيناريو . وكان يفترض أن تحيط بالمنزل القديم حديقة فيها اشجار تفاح قديمة ، فوجدنا الحديقة واتفقنا على بناء المنزل ، وكان يفترض أخيراً وجـود شاطىء حجري ، ووجدنا الشاطىء الحجري يواجـه اللانهايـة .

لا اعرف ماذا حدث تماماً ، فإذا اراد المرء ان يبدو كئيباً لقال إنه وجد مشهده الطبيعي وبيته الحقيقي ، ولو اراد ان يبدو مضحكاً لقال إنه حب من النظرة الأولى .

اخبرت سفن نيكفست بانني اريد أن اعيش هنا بقية حياتي وابني منزلاً في المكان نفسه حيث يقوم المنزل المخصص للتصوير ،فاقترح سفن أن أختبر موقعاً آخر يبعد بضعة كيلو مترات الى الجنوب ، وهو الموقع نفسه الذي يوجد فيـه بيتي اليوم وقـد تم بناؤه بـين عامي ١٩٦٦ و ١٩٦٧ .

إن لارتباطي بفارو أصولاً عديدة أولها الحدس .. هذا هو مكانك يا برغمان ، إنه يتوافق مع أعمق تصوراتك عن الشكل .. توجد هنا الألوان والآفاق ، الأصوات والصمت ، الأضواء والانعكاسات . يوجد أمان هنا ولا تسأل عـن السبب . إن الطبيعـة في فارو تمنحك كل ما تحتاجه في مهنتك من البساطة والتناسب ، الجهد والاسترخاء .

الأسباب الاخرى : يجب أن أجد موازياً للمسرح ، فإذا أردت أن أتحدث بصخب وحماس على الشاطىء فربما يطير النورس ، لكن مثل هذا الاستعراض على خشبة المسرح سيكون كارثة حتماً .

الأسباب العاطفية : أريد أن أعتزل العالم واقرأ كتباً لم اقرأها واطهر روحي واوزانها (بعد حوالى شهر أو أكثر وجدت نفسي متورطاً مع مشاكل سكان الجزيرة .. واثمر هذا التورط فيلماً وثائقياً عن الجزيرة في عام ١٩٦٩) .

أسباب عاطفية أخرى : فأثناء تصوير (برسونا) تملكتنا أنا وليف عاطفة قوية ، ومع نقص هائل بالقدرة على المحاكمة شيدت المنزل وأنا تراودني فكرة إلعيش المشترك معها ، دون أن أسألها رأيها ، وقد اكتشفت الكثير بعدما قرأت لاحقاً كتابها (التغير) ، واقتنعت بصدق اعترافاتها المذكورة فيه . عاشت معي بضع سنوات حاربنا خلالها شيطانينا بكل ما لدينا من قوة ، ثم حصلت على دور كريستينا في فيلم (المهاجزون). . . الذي أخذها بعيداً . وعندما رحلت عرفت كل منا ذلك .

العزلة المفروضة ذاتياً أمر لا بأس به . قمت بتحصين نفسي واسست نظاماً ثابتاً . كنت أستيقظ مبكراً واخرج للتنزه وأعمل واقرأ . وفي الساعة الخامسة كانت تأتي زوجة جاري فتعد لي طعام العشاء وتنصرف فأعود وحيداً في الساعة السابعة .

كان لدي سبب لأفكك أجزاء نظامي واختبرها . لم أكن راضياً عن أفلامي وأعمالي الأخيرة ، وكان عدم الرضى يأتي بعد الحدث دائماً . واثناء استمرار العمل قمت بحماية نفسي وأعمالي من الانتقادات الهدامة ، ولم أتعرف على الفشل والضعف إلا فيما بعد .

* * *

- ١٧ -

في ربيع عام ١٩٣٩ ذهبت لمقابلة باولين برونيوس ، مديرة المسرح الدرامي الملكي آنذاك ، وطلبت منها ان توظفني بالمسرح لأعمل أي شيء واتعلم المهنة . كانت إمرأة نحيلة وجميلة ، وجهها شاحب وعيناها زرقاوان كبيرتان وصوتها هادىء . اخبرتني خلال المقابلة التي استمرت ثلاث دقائق بأنها ترغب جداً بأن أعمل لديهم بعدما أنهي دراستي الأكاديمية وأكدت على الصلة بين الدراسة وفن المسرح ، خصوصاً بالنسبة لشخص جريء مثلي يود أن يصبح مخرجاً . وعندما لاحظت علائم اليأس الرهيب على وجهي ، امسكت بيدي وقالت : « إن عيوننا مركزة عليك يا سيد برغمان » . بعد أربع دقائق وجدت نفسي في الشارع وقد انهارت أحلامي وآمالي التي علقتها على مقابلة السيدة برونيوس .

ادركت بعد انقضاء فترة طويلة ان والدي كان قد اتصل بالسيدة برونيوس ، التي يعرفها من خلال مركزه الرسمي ، وأخبرها برغبته المتعلقة بإتمامي للدراسة أولاً . وربما كان هذا للأفضل .

في لحظات يأسي تقدمت بطلب للعمل في دار الأوبرا وبدون أجر ، وكان هارلد أندري قد استلم منصب المدير لتوه ، فتأمل حالة الكرب التي اعانيها من خلال شقي عينيه الصغيرتين وهمس بأمر ما خيّر لم اسمعه جيداً . وفجأة وجدت نفسي بوظيفة مساعد للإنتاج .

كان هارلد أندري منتجاً شهيراً ومخرجاً ماهراً ، يعمل معه في قيادة الفرقة الموسيقية ليوبليش ونيلز غريفيليوس وكان لدار الأوبرا شركة ممولة دائمة وفرقة كورس جيدة وفريق مروع من راقصي الباليه .

وكان برنامج الدار شاملاً وصالتها صغيرة وحميمة . اما الخشبة فكانت واسعة تنحدر قليلاً باتجاه اضواء المقدمة .

وكان تورولف جانسون قد صمم عدداً هائلاً من المناظر وقام برسمها بنفسه لأعمال من تأليف سترندبرغ . أما الإضاءة فكانت ذات نوعية غير مفهومة تعود الى عام ١٩٠٨ ويشرف عليها رجل عجوز نبيل يطلقون عليه لقب (سيد النار) يساعده ابنه الشاب الصموت ، وكانا يعملان في مساحة ضيقة تشبه الممر وتقع الى شمال الخشبة حيث تنعدم كل فرصة تقريباً لمشاهدة ما يجري عليها .

كان بناء المشهد يتطلب قوة وعملاً متواصلاً ، أما اليوم فإن تعقيدات الكومبيوتر الالكترونية تعمل بشكل اسوأ من آلات الثلاثينيات الخرقاء .

وثمة تفسير وحيد لهذه الظاهرة الغريبة ، يتمثل في وجود عمال دائمين ، متقدمين بالسن الى حد ما وثملين أحياناً ، يعملون ليل نهار على خشبة المسرح بعزم وتصميم . كانوا يشعرون بالمسؤولية ويعرفون جيداً ماذا يفعلون . يعرفون موعد تبدل المشاهد ، وربما كانوا يعملون فرقاً متناوبة ، لست أدري . واعتقد أن الرجال العجائز أنفسهم هم الذين يمسكون الحبال ليل نهار ، سنة بعد سنة ، وربما تأثروا بنوتات فاغنر الطويلة وموت ايزولدا العاصف ، لكن كل شيء كان يبدأ وينتهي في وقته ، وترتفع المناظر الخلفية أو تهبط بالسرعة المطلوبة دائماً ، أما ستارة المسرح فإنها تفتح وتغلق ببراعة فنية لا يمكن استبدال الآلات ذات السرعة المتدرجة بها .

بقيت اتجول في المسرح لبضعة اسابيع وكانني غير مرئي . لم ينتبه أحد إلي ، فحاولت أن أجري اتصالات حذرة لكنها صُدت ببرود . وفي الليل كنت أجلس في زاوية بمكتب ادارة المنصة ، وكانت غرفة كبيرة

ذات سقف منخفض ونافذة مقنطـرة . ترن أصوات الهواتف ، يأتي الناس ويذهبون . أنهض وأحيي القادم كائناً من كان . ويقرع الجرس مشيراً الى انتهاء فترة الاستراحة ، فتطفأ السجائر ويعود كل واحـد الى مكان عمله .

ذات مساء امسكني الدكتور مابوس ، مدير الخشبة ، من طية سترتي وقال لي : « إن الآخرين لا يرغبون بجلوسك هنا أثناء الاستراحة، تستطيع أن تجلس في ممر الكواليس » . أخفيت نفسي خلف باب غرفة البالية وابتلعت دموع الإهانة والإحساس بالذل . لمحتني راقصة بالية جميلة عندما أضاءت النور فجأة في غرفة الباليه فقالت لي : « يبدو أنك مهتم جداً بالبالية ، لكننا لا نحب أن تحدق بنا ونحن نعمل » .

وبعد شهور من التجوال في أرض اللا احد هذه ، أرسلوني للعمل في أوبرا (فاوست) لغونود والتي كان يخرجها فيامتا ، رجل نشيط طويل القامة ترتسم على محياه ملامح النبل .

وكان بالنسبة لي شخصاً يمكن الاعتماد عليه . وكنت أعرف أنه كتب كثيراً من السيناريوهات وأخرج مجموعة من الأفلام العظيمة بالإضافة الى عدد لا يحصى من الأوبرات ، ورأيته كيف يعمل مع المغنين والكورس . كان صوته أجش ويلثغ قليلاً ، رأسه مندفع للأمام وكتفاه منتصبتان للأعلى ويداه طويلتان ترفرفان كالأجنحة . أدركت أنه رجل واسع الإطلاع وحيوي ، يراه النجوم لطيفاً وخيراً وممتعاً ، أما الآخرون فيرونه ساخراً وفظاً وخبيثاً . كانت شفتاه الرقيقتان تبتسمان باستمرار سواء كان ودوداً أو غاضباً .

وسرعان ما لاحظ جهلي التام ، فأنزل مرتبتي الى مجرد مراسل تساء معاملته . وكان يقرص وجنتي بقوة أحياناً لكنني كنت ضحية ممتنة لسخريته . وعلى الرغم من خوفي واحتقاري فقد تعلمت الكثير

من توجيهاته العملية . لقد استطاع بعد جهد عظيم وبمشاركة مصمم المناظر الرائع في الدراماتن ، سفن اريك سكاونيوس . أن يقدم عرضاً ساحر الأجواء لأوبرا غونود الشعبية القديمة .

ذات مرة أوقفني ليون بيوركر ، مغني طبقة الباص العظيم ، والذي كان يجهل قراءة النوتات الموسيقية ، وسألني : « لماذا تبدو متعجرفاً ؟ هل انت صبي متسكع أيضاً ؟ » . حدقت به دون ان أفهم ماذا يقصد بالمتعجرف . فتابع قائلاً : « إننا هنا في المسرح نتبادل التحية عادة ، ولقد مررت بجانبي أكثر من مرة ورفضت ان تقول لي مرحبا . هل انت صبي متسكع ؟ » لكنني لم استطيع إجابته .

كان فيامتا جريئاً وساخراً وقاسياً ولكن غير مزعج . أحببته فعلاً وأعجبت باخلاصه وعناده الذي لا يقهر .

بعد انتهاء إحدى البروفات ذات مساء وقف وراء كرسي خشبي ، يتملكه الحزن ، ثم انحنى على الطاولة الى حيث كنت جالساً أدون بعض الملاحظات وسألني بصوت هادىء ونبرة مدافعة : « ماذا يجب ان أفعل يا سيد برغمان ؟ إن هيوردس لا تزال مصرة على الضفائر الشقراء الطويلة . إنها متبجحة هنا مثلها في الحياة الخاصة » . ثم جلس بصمت على كرسيه الهزاز وقال : « أنت اخترت مهنة غريبة يا سيد برغمان ، وقد يبدو الأمر محبطاً للغاية عندما يتقدم السن بالمرء » .



حاولت في فيلمي (ساعة الذئب) أن أخلق مشهداً له تأثير عميق في داخلي . . يبقى تامينو وحيداً في حديقة القصر فيصرخ قائلاً : « آه أيتها الليلة القاتمة ! متى سوف تنتهي ؟ متى سأجد النور بعد الظلام ؟ » . فيجيبه الكورس من داخل المعبد : « قريباً ، قريباً أو ليس أبداً ! » . تامينو من جديد : « قريباً ؟ قريباً ؟ أو ليس أبداً . أجيبيني أيتها

المخلوقات المختفية ، الا تزال بامينا حية ؟ » فيجيب الكورس من بعيد : « بامينا ، بامينا لا تزال حية . » .

تتضمن هــذه الأسطر تساؤلين عن الحيــاة والإجابتين كذلك . عندما كتب موزارت هذه الأوبرا كان مريضاً وشبح الموت يلقي بظلاله عليه . فصاح موزارت في لحظة يأس وألم : « آه أيتها الليلة القاتمة ! متى سوف تنتهي ؟ متى سأجد النور بعد الظلام ؟ ويجيبه الكورس بغموض : « قريباً ، قريباً ، أو ليس أبداً » . إن موزارت المريض على نحو مميت يطرح تساؤلاً في الظلام ، ومن أعماق الظلام يجيب على تساؤله الخاص ــ أو ربما يأتيه الجواب بطريقة ما ؟ .

ومن ثم التساؤل الثاني : « الا تزال بامينا حيــة ؟ » وتحــوّل الموسيقا مضمون هذا التساؤل البسيط ، ليصبح أعظم تساؤل يمكن ان يطرح : « هل يوجد الحب حقاً ؟ هل الحب حقيقي ؟ » . وتأتي الإجابة مرتعشة ولكن مفعمة بالأمل وبلفظ متقطع لاســم بامينــا : « با ــ مي ــ نا ــ لاتزال حية » . لم يعد الأمر مجرد اسم امرأة جذابة ، لكنه مفتاح السر لكلمة الحب : « با ــ مي نا ــ لا تزال حية » . الحب حقيقي ، الحبموجود في عالم الإنسان .

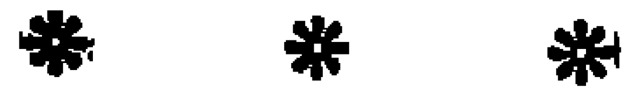
في (ساعة الذئب) تستعرض الكاميرا بحركة بانورامية الشياطين التي هدأت للحظات بفعل الموسيقا ، ثم تتوقف عند وجه ليف أولمان . إنه تعبير مزدوج عن الحب ورقة القلب ، واليأس .

بعد بضع سنوات اقترحت على التلفزيون السويدي إعادة تقديم فيلم (الناي السحري) للتلفزيون . قوبــل اقتراحي ببعض التردد والقلق ، ولولا تدخل ودعم اماغنوس انهورننيغ ، مدير البث في ذلك الوقت ، لما كتب لهذا المشروع أن يتحقق .

لم احقق خلال حياتي المهنية كثيراً من الأعمال الدرامية الموسيقية والسبب في ذلك محرج .. إذ ان حبي للموسيقا متزعزع ولا أملك القدرة لأحفظ أو لأعيد الجمل الموسيقية بترتيبها الصحيح . أستطيع أن أتعرف عليها بسرعة ولكن دون أن أكررها حتى بالغناء أو التصفير . إن حفظ عمل موسيقي عن ظهر قلب هو عمل شاق للغاية بالنسبة لي ، وطالما جلست لأيام مع المسجل وجدول النوتات ، يصيبني الشلل أحياناً لافتقادي المهارة والقدرة .

وربما كان هذا الصراع الشاق يتضمن بعض الملامح الإيجابية إذ كنت اضطر لقضاء وقت طويل استمع فيه بحذر واهتمام الى كل جملة ، وكل نبض وكل برهة .

إن اعمالي تنشأ أصلاً من الموسيقا ولا أستطيع أن امضي في أي اتجاه غير الذي يؤدي إليها .



احبت كابي لارتي المسرح واحببت انا الموسيقا . وخلال زواجنا حطم كل منا حب الآخر بسذاجة وعفوية عاطفية . ففي الحفلات الموسيقية كنت التفتُ إليها والسعادة تغمرني ، فتنظر إلي بشك وتسألني : « هل تعتقد حقاً بأن هذا جيد ؟ » . وكان البؤس نفسه يتكرر في المسرح . كنت اكره ما تحبه والعكس بالعكس .

واليوم نحن صديقان حميمان لا يزال كل واحد منا متمسكاً بحكمه الهاوي على فن الآخر ، ومع ذلك لا أستطيع أن أنكر بأنني أثناء حياتي مع كابي تعلمت الكثير عن الموسيقا .

- ١٨ -

كانت اندريا كوررلي تنتمي إلى اسرة ثرية من الطبقة الراقية في تورين ، وقد نشأت وفق التقاليد المتبعة ، فتلقت تعليمها من الأدب الكلاسيكي واللغات في مدرسة للراهبات ونالت مقعداً في أكاديمية الموسيقا بروما . كانت تعتبر عازفة بيانو واعدة وعاشت قريباً من عائلتها ، متدينة ، تحميها معتقدات الطبقات الإيطالية الراقية .

كانت إمرأة جميلة ومرحة وإلى حد ما رومانسية ، وتتمتع بفضول للمعرفة والثقافة ، يحيط بها المعجبون دائماً . قام جوناثان فوغلر ، وهو فنان متذوق وعازف كمان في متوسط العمر ، بزيارة الأكاديمية لإلقاء دروس فيها ، وكان مترهلاً وشاحباً وله عينان سوداوان كبيرتان تنظران شزراً . جاء من برلين واثار الإعجاب بعزفه وحضوره المتألق .

واختيرت أندريا لترافقه اثناء حفلات الأكاديمية الموسيقية ، فوقعت في حبه وهجرت عائلتها والأكاديمية وتزوجته وانضمت إليه في رحلاته الكثيرة . وفي وقت لاحق شكل فوغلر رباعياً للوتريات نال شهرة عالمية ، وكانت اندريا تشارك في العزف بالخماسيات التي يوجد فيها بيانو ، ورزقت بطفلة فتركتها لرعاية الأقارب ومن ثم المدرسة الداخلية .

وسرعان ما اكتشفت اندريا أن فوغلر لم يكن مخلصاً لها ، فشهيته كانت مفتوحة لجميع أنواع النساء . هذا الرجل القصير ، الضئيل الحجم ، صاحب النظرة الشزراء والقلب المريض ، كان عاشقاً للحب والمتعة وموسيقياً بارزاً . وعندما تركته اندريا اقسم بأنه سوف ينتحر ، فعادت إليه وعاد كل شيء إلى طبيعته .

ادركت انها تحبه الآن دون تحفظات ، فوضعت جانباً كل المعتقدات ولم تصبح مديرة للرباعي فقط ، بل ومديرة لعلاقات زوجها العاطفية ، وجعلت عشيقات زوجها صديقات لها واشرفت على هـذه الحركة الشهوانية مثل ناظر المحطة وحظيت بثقة زوجها ، لكنه لم يتوقف عن الكذب ابداً لأنه لم يكن قادراً على قول الصدق ، إلا انه لم يعد مضطراً للتمويه فيما يتعلق بفسقه . ومن خلال اصرارها وموهبتها التنظيمية استطاعت اندريا أن تسافر مع موسيقيّها في رحلات لا نهاية لها داخل البلاد وخارجها .

خلال فترة ما بين الحربين ، وفي كل صيف ، كانا يتلقيان دعوة لزيارة قصر شلوس بالقرب من شتوتغارت ، وكان القصر يقع في ريف ساحر تحيطه الجبال والأنهار ، وتملكه سيدة غريبة الأطوار تدعى ماتيلدا فون مركنز ، ارملة أحد اقطاب الصناعة ، وقد اندثرت لاحقاً هي والقصر .

لكنها كانت تدعو اليها كل صيف أهم الموسيقيين في أوروبا ، ومن بينهم كسالس ورونبشتاين وفيشر وكريسلر وفور تفانغلر وفوغلر ، وكانوا يلبون دعوتها ويتناولون الطعام على موائدها الفاخرة ويشربون نبيذها ، يستغرقون في زوجاتهم وزوجات غيرهم ويعزفون موسيقا عظيمة .

وكانت اندريا لا تزال تحتفظ بموهبتها في سرد قصص ايطالية فظة ، وكانت لها ضحكة رنانة ، أما قصصها الجنونية والغريبة والساخرة فكانت مادة لفيلم سينمائي وقد قررت أن اجمعها في كوميديا واحدة .

جاءت اندريا لزيارتنا أنا وكابي في جورشولم واحضرت معها بعض الصور لذلك الصيف في قصر ماتيلدا فون مركنز ، وكانت بينها صورة جعلتني أنتحب من البؤس ، وفيها تجلس المجموعة على الشرفة بعد ما كان يبدو غداء رائعاً ، والأعشاب الخضراء تزحف في المكان وتغطي السلالم الحجرية والدرابزين والتماثيل والقناطر . وكانت مجموعة من

عباقرة الموسيقيين الاوربيين تجلس مبعثرة في الشرفة ذات الارضيـة المهترئة . كانوا غير حليقي الذقون ، يدخنون السيجار ويتفصدون عرقاً . جاك تيبولت يغطي انفه بقبعته وينحني ليقول شيئاً . ادوين فيشر يسند بطنه على الدرابزين ، الفريد كورتوت يضحك وماتيلدا فون مركنز تمسك فنجان قهوة بيد وسيجاراً باليد الاخرى . بعض النسوة يقفـن وراء النوافذ الكبيرة وإلى الجانب البعيد منهن تقف إمراة رفيعة التهذيب والاناقة ، جمالها شرقي ، إنها اندريا فوغلر كورللي ، وهي تحمل بين يديها ابنتها ذات الاعوام الخمسة .

كانت الصورة تشع بالغذاء الفخم وحرارة الطقس المرتفعة والفسق والفساد الرقيق ، وبعد ان انتهى هؤلاء السادة من تناول عشائهم وقهوتهم الممزوجـة بالمسكـرات ، تجمعـوا في صالـون ماتيلـدا فـون مركنز وعزفوا الموسيقا .

شعرت باليأس والخجل بسبب فيلم (والآن بصدد أولئك النساء) لتصنّعه وزيفه . كان خجلي واضحاً وكريهاً ، وكان لدي قبل التصوير الكثير جداً لافكر به بعد ان اصبحت مدير الدراماتن ، واواجه موسماً لا اعرف كيف سانطلق به . وهكذا تمسكت بابسط الحلول وكنت افضل الاستسلام لكنني اذنت نفسي ، فالعقود كلها ابرمت وتم تحضير التفاصيل كاملة لبدء التصوير والسيناريو يبدو ممتعاً والجميع مسرور بالعمل .

إن وضع المكابح يتطلب احياناً شجاعة اكثر من اضرام النار بالجبال ، لقد افتقدت حينها الشجاعة الكافية ، لكنني ادركت فيما بعد اي نوع من الافلام يجب ان اخرجها .

وكان العقاب مؤكداً إذ انتهى المشروع الى فشل كئيب على صعيدي الجمهور والمال .

جاءت الحرب واغلقت المسارح وقاعات الحفلات وتشتت الفرق الموسيقية ، لكن رباعي فوغلر حصل على اذن استثنائي بإقامة الحفلات .

في يوم خريفي وجدت اندريا وباقي الموسيقيين انفسهم في شرق بروسيا بالقرب من كونيسبرغ ، يقيمون في فندق صغير بجوار شاطىء البحر ويعزفون الموسيقا .

وذات مساء كانت اندريا تسير وحيدة بمحاذاة الشاطىء تراقب الشمس الغاربة وسط الضباب والبحر الساكن وتنصت إلى أصوات المدافع البعيدة ، عندما توقفت فجاة وقد ادركتها فكرتان عفويتان وقويتان : الأولى انها كانت حاملاً ، والثانية أن الملاك الحارس يحميها .

بعد بضعة أيام احتلت القوات الروسية مدينة كونيسبرغ وتم اقتياد اندريا وابنتها وزوجها والموسيقيين الى نقطة التجمع ، وهناك اثار اذن السفر الخاص الذي بحوزتهم ارتياب الروس فسجنوهم جميعاً في أحد الاقبية وصادروا آلاتهم الموسيقية ، ثم أمروا جوناثان فوغلر أن ينزع ثيابه وساقوه مع بعض السجناء لإعدامهم في باحة المدرسة ، حيث كانوا يقفون لساعات عديدة في مواجهة الحائط بانتظار اجراءات معينة ، وفي النهاية يعيدونهم إلى الأقبية ، ليتكرر الاجراء نفسه في اليوم التالي .

اغتصب الحراس زوجات السجناء ، وحتى لا تثير أندريا خوف ابنتها فقد تركت الرجال يستخدمونها واحصت عدد المرات . لقد اغتصبوها ثلاثاً وعشرين مرة .

وبعد ايام اخرى وصلت إلى المدينة وحدات روسية من النخبة ، واقامت ادارة جديدة واعدمت بعض الجنود الروس الذين اعتبرتهم مرتدين ، فالجيش الأحمر لا ينهب الفقراء ولا يغتصب الضعفاء .

تحول القبو إلى مكان للإقامة واستعاد فوغلر ملابسه وانهارت أعصابه فانزوى بعيداً يرتجف طوال الوقت ولا يحدث احداً ، وانطلقت اندريا مع الموسيقيين للعثور على طعام .

اثناء إحـدى جولاتها التقت مدير مسرح المدينـة وبعض الممثلـين وفرروا جميعهم أن يزوروا قائد المنطقة ويطلبوا منه تصريحاً باستمرار النشاطات الموسيقية والمسرحية . كانت اندريا تتحدث بالروسية وأبدى الضابط اهتماماً بالمشروع ، وبشكل ما غير مفهوم استعاد الموسيقيون آلاتهم سليمة وبلا أضرار .

وخلال أيام أعلنت اندريا عن اقامة حفلة في صالة المدينة التي فقدت طابقها العلوي . وفي الثامنة مساءً كانت القاعة قد اكتظت بأهالي المدينة واللاجئين والمحتلين الروس . وعزف الموسيقيون معـزوفات لبـاخ وشوبرت وبرامز وقدمت الفرقة المسرحية مشاهد من (فاوست) . استمر العرض ساعات حتى انهمر المطر وتسرب عبر السقف المثقوب ، معلناً نهاية الحفل .

وتكررت العروض بنجاح كبير وكان رسم الدخول قطعة فحم أو بيضة أو شريحة زبدة أو ما شابه من الاحتياجات الضروريـة وكانت اندريا تشرف على العروض وتنظيمها في أثناء تمارين زوجها والموسيقيين .

بعد الحرب هجر فوغلر زوجته وأصبـح بروفسوراً في احـدى الأكاديميات الألمانية . بحلول ذلك الوقت كان شعره قد ابيض تمامـا واصبح لون بشرته كما لو انه مطلي بالطبشور الأبيض ، وتحولت آلام معدته ومتاعب قلبه الى أمراض مزمنـة ، وعاش مع ثـلاث عشيقات دائمـات .

اما اندريا فاستقرت في شتوتغارت وكرست نفسها معلمة للموسيقا ، وكانت كابي لارتي طالبتها المخلصة التي عاملتها بلطف غير عاطفي وتصميم قاس كحجر الصوان .

كانت مشكلة كابي جدية . لقد كونت لنفسها مهنة انطلاقا من موهبة موسيقية ودفء وحيوية ممتزجين بالجمال والحضور المتألق . لكن هذا

التكوين كان يشبه بناءً جيدا يقف على ارضية مهتزة . كانت كابي تفتقر الى تقنية الصوت مما يؤدي بالنتيجة الى شك وخوف وراء الثقة الباهرة بالنفس ، وقد تكون حفلاتها الموسيقية رائعة أو مروعة ، حسب الظروف .

وهكذا لجأت كابي لارتي الى اندريا فوغلر كورللي لتنشىء أساسا قويا تحت هذا البناء الجميل ، وتحول الأمر الى اختبار قاس استمر سنوات عديدة ترسخت خلالها صداقة حميمة بين المرأتين .

احبت اندريا يدي كابي وحيويتها وموهبتها الموسيقية وكانت تشكو من كسلها وتقسو عليها احيانا ، اما كابي فكانت لا تهدأ أبدا لكنها تستسلم بسهولة ، وأثناء الدروس تحولت الحلول ذات الطابع التقني البحت الى اعتبارات روحية ونفسية : « ضمي اصابعك ، يدك ، ذراعك الى الأعلى ، الى الأسفل ، الكتف ، الظهر ، الانحناءة ، الأصابع . لا تخادعي ولا تتعجلي ، تمهلي وفكري . في هذه الجملة لديك الحل للسطر بأكمله . تابعي . يجب أن تتنفسي هنا . لماذا تكتمين انفاسك طوال الوقت يا طفلتي العزيزة ؟ بقي لدينا نصف ساعة فقط ، اصبري قليلا وستنالين فنجانا من الشاي . والآن اعزفي نوتة (فا) عشرين مرة، كلا ، ثلاثين مرة . ولكن فكري جيدا بما تفعلين ! ان القوة تنبع من معدتك ، لا تخادعي بانحناءتك . لا توجد آلة موسيقية واحدة تستطيع أن تعزف ديناميكية بيتهوفن التي تخيلها في عالمه الصامت . اترين ، لقد احسنت الآن . انت جميلة ، ويجب ان تعرفي كيف تظهرين هذا الجمال. هنا يوجد تحذير مسبق لما سيحدث لنا بعد تسعة وعشرين سطرا ، قد لا تلاحظين ذلك لكنه هام للغاية . لا وجود للحشو عند بيتهوفن فهو يتحدث باقناع وعنف ، بحزن وفرح ، انه لا يدمدم أبدا ، وأنت أيضا يجب الا تدمدمي ، وألا تقدمي حشوا . يجب أن تعرفي ما تريدين حتى ولو كان خطأ . المعنى والمضمون . تابعي الآن . هذا لا يعني ضرورة التأكيد على كل شيء ، هناك فرق بين التأكيد والمغزى . دعينا نكمل

وكوني صبورة ، علمي نفسك الصبر . وعندما تريدين التوقف يجب ان تشغلي بطارية خاصة لتضاعف لك جهودك ، لا يوجد اكثر فظاعة من الضمير المذنب في الفن . توقفي هنا . كان لدي صديق يذهب الى البيانو كل صباح بعد الافطار ويعزف نغمات من سي ماجور ويقول انه بذلك يغسل أذنيه » .

كنت استمع الى اندريا في احدى المرات القليلة التي سمحت لي بأن احضر دروسها ، وأخذت أفكر بالمسرح وبنفسي وبالممثلين ، بقذارتنا وجهلنا والحشو الفارغ الذي ننتجه مقابل المال .

إن مشهدنا الثقافي الضئيل يحوي عدداً من الممثلين البارزين الذين يفتقدون التقنيات الأساسية ، فيعتمدون على جاذبيتهم الساحرة ويخرجون الى خشبة المسرح ليقيموا علاقة جنسية مع الجمهور ، وعندما تفتقد هذه العلاقة يصابون بالتشويش وينسون كلماتهم (التي ربما لم يحفظوها من قبل) ويرتبكون ويتحولون الى كابوس بالنسبة لزملائهم الممثلين والملقن . لعلهم كانوا هواة رائعين للحظات ، وربما لأمسيات كاملة من التجلي المسبب للدوار ، ولكن دونما مستوى مستقر وليس دونما مخدرات وكحول .

الممثل العظيم غوستا ايكمان هو خير مثال : لم يستفد من خبرته وجاذبيته الساحرة ويمكن رؤية بؤسه في أفلامه حيث تظهر الكاميرا خداعه وفراغه وتزعزعه وحاجته للهوية الجنسية .

ربما كانت عروضه الافتتاحية رائعة ، أما العرض الخامس ، أو الخامس عشر ؟! لقد شاهدته في دور هاملت أثناء عرض عادي ، يستعرض غطرسته ويمثل دون دوافع أو مؤثرات ويلقي حوارا يحرضه الملقن وحده على مضمونه .

* * *

على امتداد بضع سنوات ، وفي الصيف ، كنا نستأجر أنا وكابي منزلا في الأرخبيل بشمال أورنو ، وكان المنزل عبارة عن ڤيلا حجرية

رومانية الطراز تطل على خليج دالارو ، وتفصلها عن باقي الجزيرة غابة قديمة كثيفة الأشجار ، يزحف عليهـا الفريز وتنمو بجانبهـا نباتات السحلب التي تلتمع في الظلام .

في هذه الأجواء الغرائبية كنا نحتفل بالصيف ، كابي وأمها ، وخادمتنا الالمانية وانا . كانت كابي حاملا وتعاني من حكة دائمة ومؤلمة في ساقيها ، كانت تحك طوال الوقت ولا تستطيع الجلوس كثيرا ، وكانت لياليها سيئة لا تعرف فيها مذاقا للنوم .

كان من عادة كابي أن تتذمر من الأشياء الصغيرة ، لكنها تحملت هذه المعاناة بصبر . وهي تقرأ روايات روسية ضخمة . كانت تمضي ساعات العتمة بالتجوال وتنام أحيانا أثناء سيرها وعندما تستيقظ تجد أنها أقدمت على فعل أشياء تجهلها تماما .

ذات ليلة أيقظني صوت ضجة عنيفة وصرخة رعب ، أسرعت فوجدت كابي ملقاة على الأرض أسفل الدرج . لقد غفت أثناء سيرها ووقعت .

انهارت آلية نومي الى أجزاء وأصبح أرقي مزمناً . لكنني أغدو على ما يرام عندما أنام لأربع أو خمس ساعات . ثمة لولب يشدني من أعماق النوم بقوة تصعب مقاومتها . أهو احســاس قلق بالذنب أو حاجـة للسيطرة على الواقع ؟ لا أدري . ان المفتاح الوحيد الذي يجعل الليل محتملا يكمن في الكتب والموسيقا والبسكويت والمياه المعدنية . أسوأ الساعات هي (ساعات الذئب) بين الثالثة والخامسة صباحا عندمـا تأتي شياطين إماتة الأجساد والكراهية والخوف والغضب ، ولا تعود مقاومتها ممكنة لأن ذلك سيزيد الأمور سوءاً . عندما تتعب عيناي من القراءة اغمضهما وأستمع للموسيقا بتركيز وأطلق العنان للشياطين : « تعـالوا ، أنا أعرفكم جيـدا وأعرف كيف تعملون ، تستمرون حتى

تصابوا بالتعب » . وبعد فترة يتحولون الى حمقى ثم يختفون وأستطيع عندئذ أن أنام بضع ساعات .

ولد دانييل سباستيان بعملية قيصيرية في السابع من أيلول عـام ١٩٦٢ ، وبقيت كابي تتلقى دروسها من اندريا حتى اللحظة الأخيرة . وبعد الولادة استغرقت كابي بالنوم بعد سبعة أشهر من العذاب ، وكنت جالسا مع اندريا التي تناولت الجدول الموسيقى لفيلم (الناي السحري) وأخذت تتصفحه . اخبرتها عن رغبتي في انتاج هذا الفيلم . قرأت اندريا أغنية الكورس وأشارت الى روعة موزارت الذي اختار لرسالته على الرغم من كونه كاثوليكيا أعمالا كورالية لباخ ، ثم قالت : « هذا هو الرافد الأساسي لديك . لن يعمل (الناي السحري) من دون هذا الرافد، انــه كورس باخ » .

ووصلنا الى مشهد بابانو وبامينا ، فقالت لي : « انظر هنا ، انها مثل جملة اعتراضية ، رسالة أخرى . الحب هو أفضل شيء في الحياة . الحب هو المغزى الأعمق للحياة » .

أن عملي الفني يمتد بمجساته وجذوره عميقا في الزمن والأحلام . أحب تخيل هذه الجذور مقيمة في غرفة الروح الواسعة ، تنضج مثل قرص جبن كبير .

لقد بدأ مخزون الأفكار والوحي السريع ينضب الآن ، لكنني لا أشعر بالحزن أو الخسـارة .

* * *

اخرجت في مطلع السبعينيات مجموعة افلام مشكوك بأمرها ، لكنها عادت علي بأموال طائلة ، كنت في حالة بائسة بعد مشروعي العظيم وغير الناجح الذي قمت ببطولته مع ليف أولمان وجرت أحداثه في فارو . تركت احدى الشخصيتين الأساسيتين المكان وبقيت أنا وحدي ، فقدمت اخراجا جيدا لمسرحية (لعبة حلم) ووقعت في حب ممثلات شابات . وكانت تروعني آلية البروقات فأعود الى جزيرتي ، وخلال تلك الفترة الطويلة التي كنت فيها فريسة للكآبة الموحشة ، كتب سيناريو فيلم (صرخات وهمسات) .

جمعت كل مدخراتي واقنعت الشخصيات الرئيسية الأربع بأن يستثمروا اجورهم في الفيلم ، واقترضت نصف مليون كرونو من معهد الفيلم ، الأمر الذي أثار امتعاض عدد من المخرجين الذين احتجوا بأن برغمان يخطف الخبز من أفواه زملائه السويديين الفقراء ، رغم أنــه قادر على تأمين تمويل لأفلامه من الخارج . كانت القضية مختلفة ، فبعد مجموعة من شبه الاخفاقات التي أصابت أفلامي لم يعد هناك خبازون لا في داخل البلاد ولا خارجها . حسنا .. لقد كنت دائما أقدر الوحشية الصادقة في عالم الفيلم ، يجب الا يشك المرء بقيمته الحقيقة في السوق . كانت قيمتي صفرا . وللمرة الثانية في حياتي بدأ النقاد يتحدثون عن اقتراب نهايتي ، ومن الغريب انني لم أتأثر بكلامهم مطلقا .

انجزنا الفيلم في جو من الثقة والبهجة ، وجرى التصوير في بيت ريفي متداع ، يقع خارج ماريفيرد ، وكانت غرفه في حالة سيئة للغايــة فاصلحناها كما شئنا وعشنا وعملنا فيها مدة ثمانية أسابيع .

أحيانا ينتابني الأسى لأنني لم أعد أصنع أفلاما .. انه احساس طبيعي لكنه يمضي . وأكثر ما افتقده العمل برفقة سفن نيكفست ، ربما لأننا كلينا أسيران لمجموعة من المشكلات والهواجس الواحدة : الاضاءة ، الهدوء ، الخطر ، الأحلام المتشابهة ، الحياة ، الموت ، الوضوح ، الضباب ، الحر ، العنف ، الشعاع ، الظلام ، السقوط ، الانحدار ، الحسية ، الخضوع ، المحدودية ، السم ، الهدوء ، النور الشاحب ، الاضاءة .

تطلب انجاز (صرخات وهمسات) وقتا طويلا ، ودون انتظار نتائجه النهائية بدأنا بفيلم (مشاهد من حياة زوجية) ، عمل لمجرد المتعة . وفي منتصف فترة التصوير اتصل بي المحامي ليخبرني بأن نقودنا ستنفد خلال شهر على الأكثر ، فبعت الحقوق الاسكندنافية للتلفزيون السويدي وانقذت فيلما مدته ست ساعات .

كان العثور على موزع أميركي (لصرخات وهمسات) أمرا في غاية الصعوبة ، وقد بذل وكيلي بول كونر ، وهو تاجر عجوز وماكر ، جهودا حثيثة دون فائدة ، حتى أن أحد الموزعين صرخ في وجهه قائلا : « سوف أقدمكم للمحاكمة بسبب هذا الفيلم اللعين » . وفي النهاية عطفت علينا احدى الشركات الصغيرة المتخصصة بأفلام الرعب والبورنو الخفيف ، واشترت الحقوق . وكانت احدى دور العرض في نيويورك تعاني من حالة فراغ بسبب تأخر وصول فيلم لفيسكونتي في الوقت المناسب ، فقررت عرض الفيلم ، وكان افتتاحه قبل يومين من عيد الميلاد .

تزوجنا أنا وانغريد في تشرين الثاني وانتقلنا الى شقة في كارلابلان ، رائعة روعة قطعة حلوى . وكان البناء يقوم على انقاض البيت الأحمر الذي عاش فيه سترندبرغ وهاريت بوس . وفي الليلة الأولى استيقظت على عزف بيانو بعيد ، وكانت احدى مقطوعات شوبان ، وهي نفسها المعزوفة المفضلة لدى سترندبرغ . ربما كانت تحية ودودة ؟

بدأنا نحضر لعيد الميلاد مع احساس بالقلق تجاه المستقبل . كانت كابي تقول بانها لا تأبه للنقود ولكن النقود مريحة للأعصـــاب . شعرت بالاسف لأن شركة سينما توغراف قد تضطر لوقف نشاطاتها .

قبل يوم واحد من ليلة الميلاد اتصل بي بول كونر من أميركا كان صوتــه غريبــا وهو يصيح : « انه الهذيان بعينــه يا انغمار . انــه الهذيان ! » . لم أفهم قصده وتطلب الأمر بعض الوقت لاستيعاب النصر الكبير . وبعد عشرة أيام كان فيلم (صرخات وهمسات) قد بيع لكل دولة ما زالت توجد فيها دور عرض سينمائية .

وهكذا انتقلت شركة سينما توغراف الى موقع جديد ، خصصنا فيه غرفة عرض جميلة بتجهيزات ممتازه وتحول مكتبنا الى مكان رائع للقاءات والفعاليات المكثفة ، وبدأت أعمل كمنتج سينمائي في أفلام مخرجين آخرين .

لا أعتقد انني كنت منتجا جيدا لانني بذلت جهودا كبيرة كي لا أتحول الى مستبد وبالتـــالي الى مخـــادع . كنت أشجع المخرجين ولا أطالبهم بالكثير .

زواج ناجح واصدقاء جيدون ومؤسسة تعمل برشاقة ومثابرة ، ونسمات لطيفة تهب حول أذني الناتئتين قليلا . والحياة طعمها افضل من أي وقت مضى . نجح فيلم (مشاهد من حياة زوجية) ، ونجح بعده فيلم (الناي السحري) .

ومن اجل ان نحك اكتافنا بالشهرة ولو مرة واحدة ، سافرت مع انغريد الى هوليوود بعد أن تلقيت دعوة لالقاء محاضرات بمدرســة الفيلم في لوس انجلوس .

وفاقت الرحلة كل توقعاتنا : السماء الصفراء والمسممة فوق لوس انجلوس ، دعوات الطعام الرسمية مع المخرجين والممثلين ، والعشاء

الذي لا يوصف في قصر دينو دي لورينتس الذي يطل على مشهد للمدينة والمحيط ، مع زوجة دينو ، سيلفانا مانغانو ، ملكة الجمال في الخمسينيات والتي تحولت الآن الى هيكل عظمي متجول بجمجمة مصنوعة جيدا وعينين جريحتين لا تهدأان . الطعام السيء ، والمودة الرقيقة غير المبالية .

في مناسبة اخرى دعا وكيلي بول كونر ، جندي هوليوود المخضرم ، مجموعة من المخرجين القدامى لتناول العشاء ، فجاء وليام ويلر وبيلي ويلدر ووليام ولمان ، وتحدثنا عن نشاط الأفلام الأميركية الرائع ، وروى لنا وليام ولمان كيف بدأ بالعشرينيات مع ممثلين اثنين ، وكان يجب أن يجعل كل شيء واضحا منذ البداية ، فصور مشهدا لشارع ترابي خارج الحانة وكلب صغير يجلس على العتبة . يأتي البطل خارجا فيداعب الكلب بحنان ويمتطي حصانه ويمضي ، ثم يظهر الشرير خارجا بدوره فيركل الكلب بقدمه ويبتعد . الآن يمكن أن تبدأ الدراما بعد أن قرر الجمهور في دقيقة واحدة من سيحب .... من سيكره .

كنت أنوي أن اتحدث في فيلم (وجهاً لوجه) عن الاحلام والواقع ، حيث تصبح الأحلام واقعاً ملموساً ، ويتلاشى الواقع ليتحول الى حلم . وكنت قد استطعت في محاولات كثيرة ان أزيل الحواجز بين عالمي الاحلام والواقع كما في أفلام (برسونا) و(الليلة العارية) و(صرخات وهمسات) لكن الوضع مختلف الآن . لقد تطلبت نواياي الهاماً خذلني ، فأصبح تسلسل الأحلام مركباً والواقع غير واضح ، ثمة مشاهد قوية هنا وهناك وليف أولمان تكافح فيها بضرواة ، لكنها لم تستطع انقاذ الذروة .

كان الظلام يخيم حولي دون أن أراه . ارادوا في التلفزيون الايطالي ان يصوروا فيلماً عن حياة المسيح ، وكان يقف وراء هذا المشروع خبازون أقوياء ، حضر خمسة منهم الى السويد ليفاوضوني على العمل ، فعرضت عليهم ملخصاً للفيلم يستعرض الثماني والأربعين ساعة الأخيرة من حياة المنقذ ، ويتألف من مجموعة مشاهد يروي كل منها قصة احدى

الشخصيات المهمة في هذه الدراما : بيلاطس البنطي وزوجته ، بطرس ، مريم والدة المسيح ، مريم المجدلية ، الجندي الذي ثنى التاج وسمعان الذي حمل الصليب ، ويهوذا الخائن . كل شخصية لها مشهدها الخاص الذي تتضح خلاله مواجهتهم للمأساة التي دمرت واقعهم وغيرت حياتهم. من ناحية أخرى أخبرت جماعة التلفزيون الايطالي انني انوي التصوير في فارو ، حيث ستكون قاعة المدينة القديمة سور القدس والبحر بحيرة طبرية ، وسوف ارفع الصليب فوق هضبة لانفهامر .

قرأ الايطاليون الملخص ، وتأملوه بكآبة ثم رحلوا ووقعوا عقداً سخياً مع فرانكو زيفيريلي الذي أخرج لهم فيلماً عن حياة وموت المسيح .

كان الظلام يخيم حولي دون أن أراه .

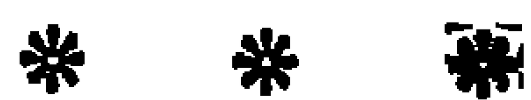
عادت حياتي هائئة بعد أن تخلصت من الصراعات المضنية ، وتعلمت كيف أتعامل مع شياطيني واستطعت تحقيق احد احلام طفولتي ، فبعد انتهاء تصوير (مشاهد من حياة زوجية) في البيت القديم الذي اعدنا اصلاحه في دامبا بفارو ، حولت البيت الى قاعة للعرض مع غرفة مونتاج في مخزن التبـــن .

وبعد الانتهاء من مونتاج (الناي السحري) قمت بدعوة كل من شارك بالفيلم ، بالاضافة الى أهالي فارو وبعض الاطفال ، لحضور العرض الأول. كان شهر آب والقمر بدراً والضباب فوق دامبا والطواحين تدور في الضيـــاء البارد .

عندما يتقدم السن بالمرء تخف حاجته للتسلية واللهو ، واشعر الآن بالامتنان لكل أيامي اللطيفة ولياليي المؤرقة . لقد منحتني غرفة العرض السينمائي في فارو متعة لا توصف ، واستطعت من خلال علاقتي الطيبة مع أرشيف معهد الفيلم أن أستعير أفلاماً قديمة من مستودعهم الذي لا ينضب. لدي كرسي مريح وغرفة دافئة ، يسود الظلام لبرهة ثم تظهر

الارتعاشات الاولى على الحائط الابيض . الهدوء يعم المكان وآلة العرض تصدر صوتاً خافتاً في غرفة العرض المعزولة ، وتتحرك الظلال ، ويلتفتون بوجوههم الي وكانهم يحثونني ان اتابع مصائرهم ..

لقد انقضى ستون عاماً وما زالت الاثارة هي نفسها .



- ٢٠ -

في عام ١٩٧٠ دعاني لورنس أوليفيه لاخراج (هيدا غابلر) على خشبة المسرح الوطني في لندن ، مع ماغي سميث للدور الرئيسي ، فحزمت امتعتي وسافرت يراودني احساس بالمواجهة والتفاؤل .

كانت غرفتي بالفندق قذرة ومعتمة ، تهتز مع البناء كله بسبب حركة السير الفظيعة في الشارع، وتفوح منها رائحة نتنة، وكانت تعيش في الحمام حشرات صغيرة خجولة ، جميلة ولكن في غير مكانها . أما العشاء الذي اقامه لورنس أوليفيه ، الذي نال لقب لورد مؤخراً ، ترحيباً بي ودعا اليه بعض الممثلين ، فكان سيء الطعام وغير صالح . ثمل احد الممثلين واخبرني بأن سترندبرغ وابسن ديناصوران لا يمكن العمل معهما مما يعني ببساطة ان المسرح البورجوازي في طريقه للاندثار . سألته عن سبب مشاركته (بهيدا غابلر) ما دام هذا اعتقاده ، فأجابني أنه يوجد في لندن حوالى خمسة آلاف ممثل وممثلة عاطلين عن العمل . ابتسم اللورد أوليفيه بقليل من السخرية واخبرني بأن صديقنا هو ممثل ممتاز في الحقيقة. ولكونه اصبح ثورياً بعد أن ثمل ، أمر لا يعني شيئاً على الاطلاق.

انفضت الجلسة بسرعة .

كان مقر المسرح الوطني المؤقت في مكان مستاجر لان المسرح الجديد لا يزال قيد البناء على الضفة الجنوبية . وكانت البروفات تقام في قاعة اسمنتية ذات سقف حديدي ، تقع قريباً من ساحة تضم صناديق قمامة ذات روائح كريهة ، وعندما كانت تحتد الشمس وتصب جام غضبها على السقف الحديدي يصبح البقاء في القاعة جحيماً لا يطاق . وكان

يوجد مرحاضان بين قاعة البروفات ومركز الادارة تفوح منهما روائح البول والاسماك الفاسدة .

كان الممثلون ممتازين والبعض منهم خارقاً ، وقد أخافتني قليلا حرفيتهم وسرعتهم العالية ، ولاحظت فوراً أن اساليب عملهم تختلف عن اساليبنا . انهم يحفظون أدوارهم اثناء القراءة الاولى ، وعندما تبدأ البروفة يمثلون بايقاع سريع . طلبت منهم أن يخففوا سرعتهم فحاولوا باخلاص لكن المحاولة ضايقتهم لأنهم لم يعتادوا بعد .

كان اللورد أوليفيه مصاباً بالسرطان ، لكنه كان يوجد في مركز الادارة اعتبارا من التاسعة صباحاً كل يوم ، فيعمل طيلة النهار ثم يؤدي دور شايلوك في عدة أمسيات بالاسبوع وأحياناً يقدم عرضين في اليوم الواحد. في أمسية احد ذهبت لرؤيته في غرفة ملابس الضيقة بعد انتهاء العرض الاول ، فوجدته جالساً بملابسه الداخلية والمكياج يغطي وجهه الشاحب شحوب الموت والمتفصد عرقاً ، وكانت أمامه بعض الشطائر غير المشجعة ، وزجاجة شمبانيا ، شرب الكأس الأولى والثانية والثالثة ، ثم اقترب الماكيير منه ، وساعده عامل الملابس على ارتداء الزي الخاص بالدور .

لم أستطع عندئذ الا أن أفكر بالممثلين السويديين الشباب الذين يتذمرون لوجود بروفات أثناء النهار وعروض في المساء : يا له من عمل شاق ! هذا مسيء لأحاسيسهم الفنية ! كم سيصعب العمل في اليوم التالي ! كم هو الوضع كارثي بالنسبة لحياتهم العائلية !

قررت أن انتقل الى فندق آخر جيد مهما بلغت النفقات ، لكن اللورد اوليفيه عرض علي الاقامة في استراحته الخاصة الواقعة في الطف أحياء المدينة ، وأكد لي بانني لن أشعر بالانزعاج هناك . كان يقيم في برايتون مع زوجته بلوريت ونادرا ما يقضي الليل في لندن ، لذلك لن يسبب أحد منا احراجاً للآخر . قبلت العرض وشكرته وانتقلت الى الاستراحة حيث

استقبلتني واحدة من شخصيات ديكنز ، وكانت امرأة ايرلندية تشرف على المنزل ، وتقرأ صلواتها كل ليلة بصوت عالٍ حتى انني ظننت لدى سماعي لها لاول مرة ان الصلاة تبث في غرفتها بواسطة مكبرات للصوت .

وعمليا كنت أقابل اللورد أوليفيه كل صباح على مائدة الافطار ، وكانت اللقاءات منيرة بالنسبة لي . وأثناء احتساء القهوة كان لورنس أوليفيه يحدثني عن شكسبير وكان حماسي لسماعه بلا حدود . كنت أسأله وهو يجيبني ويستفيض بالاجابة حتى أنه كان يتصـل بالهاتف احيانا ويعتذر عن حضور اجتماع ما ، ويصب فنجانا جديدا ويتابـع حديثـه .

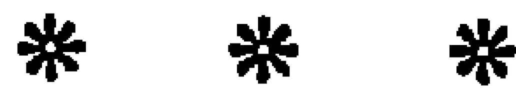
هذا الصوت اللطيف والوحيد يتحدث عن حياة كاملة امضاها مع شكسبير ، عن الاكتشافات والمحن ، عن البصيرة والخبرة . وبالتدريج بدأت أفهم ، وبمتعة ، مـودة الممثلين الانكليز العميقة وفهمهم العملي وتعاملهم مع قوة طبيعية مجهولة كان يمكن أن تحطمهم أو تحولهم الى عبيد . لقد عاشوا احرارا ولكن ضمن التقاليد . طيبو القلب ، متكبرون، عدوانيون ولكن أحرار . مسرحهم ، اوقات البروفات المحدودة ، الضغط القاسي ، الالتزام بضرورة الوصول الى الجمهور ، كل هذه كانت أمورا اساسية لا رحمة فيها . كان ارتباطهم بتقاليدهم متعدد الابعاد ومطلقا . لقـد تمسك لورنس أوليفيه بالتقاليد وتمرد عليهـا في الوقت نفسـه وذلك بفضل تعاونه المستمر مع زملائه ، الأصغر والأكبر سنا ، الذين كانوا يعيشون ظروف الابداع القاسية ذاتها ، وبفضل علاقاته الكثيرة خلال حياته المهنية العظيمة ، وحيث أصبحت علاقته الخاصة بفنـه أكثر عمقا وقدرة على التدبير ، لكنها بقيت خطرة ومرهقة ومفاجئة .

التقينا مرات عديدة . كان اللورد أوليفيه قد انتهى لتوه من اخراج فيلم (الشقيقات الثلاث) ، وكنت أعتبره سـيئا باخراجه وتصويره ومونتاجه ، بالاضافة الى افتقاده اللقطـات الكبيرة لوجوه الممثلـين .

حاولت ان اخبره برايي بقدر المستطاع من اللطف والتهذيب ، مع الإشادة باداء الممثلين وخصوصا جوان بلورايت ، ولكن دون جدوى . لقد تحول لورانس أوليفية فجأة الى شخص يتعامل بشكل رسمي ، وانقلبت مودتنا واهتماماتنا المشتركة الى شجار متبادل حول تفاصيل تافهة .

جاء الى بروفة الملابس لمسرحية (هيدا غابلر) متأخرا نصف ساعة ولم يعتذر ، بل حاول أن يشير بتهكم الى ضعف العمل .

غادرت لندن ، التي كرهتها من كل أعماقي ، في يوم افتتاح المسرحية ، ووصلت استوكهولم في أمسية بيضاء من شهر أيار . وقفت على الجسر الشمالي أتأمل الصيادين وقواربهم . كانت ثمة فرقة موسيقية تعزف في مكان قريب ، وعبير ازهار الكرز يملأ الفضاء ، واحساس بالبرودة ينبعث من مياه النهر المتدفقة .



خلال الستينيات زار شارلي شابلن استوكهولم ليشارك بالحملة الدعائية لكتاب سيرته الذاتية ، واتصل بين الناشر لاس برغستروم وسألني إن كنت راغبا بلقاء هذا الرجل العظيم في فندق الغراند ، وكنت راغبا بالفعل . وفي العاشرة من صباح اليوم التالي كنا ندق باب غرفته ، وسرعان ما فتح لنا شابلن نفسه وقد ارتدى ثيابا انيقة لا عيب فيها ، ورحب بنا وقدمنا الى زوجته أوانا وابنتيه الصغيرتين ، الجميلتين كغزالتين .

جلسنا نتحدث حول كتابه ، وسألته عن المرة الأولى التي اكتشف فيها أنه كان مضحكاً للجمهور ، فأومأ برأسه بتلهف وروى لنا الحادثة عن طيب خاطر :

كان قد عين من قبل كيستون مع مجموعة من الممثلين ، ليؤدوا دور رجال الشرطة . وفي احد المشاهد طاردوا رجلاً شريراً ، وبعد عدة لقطات من المطاردة والسقوط وقع الشرير في قبضتهم ، فطرحوه ارضا وانهالوا عليه بهراواتهم ، وخطر لشابلن الا يضرب الرجل بشكل متكرر كما اخبره المخرج ، فوقف في مكان بحيث يشاهدونه جيدا ضمن الرجال الآخرين وامضى وقتا طويلا وهو يحدد الهدف بهراوته ، وكان في كل مرة يشرع بضرب الشرير ، يتوقف في اللحظة الاخيرة ويعيد الكرة من جديد . وعندما قرر أن يسدد ضربته الأخيرة رفع هراوته وهوى بها ، لكنه فقد توازنه واخطأ الهدف وسقط أرضا .

عرض الفيلم في نيكيلدون ، وذهب شابلن لمشاهدته . وعندما اخطأ الهدف وسقط أرضا ضحك الجمهور على شارلي شابلن للمرة الأولى.



وصلت غريتا غاربو الى السويد في زيارة سريعة لاستشارة احد الاطباء السويديين ، واتصل صديق يخبرني عن رغبة النجمة بزيارة مدينة السينما في وقت متأخر من بعد ظهر اليوم ، وكانت قد اعتذرت عن حفل استقبال وطلبت ان ارافقها في المكان الذي عرف خطواتها الأولى .

وفي حوالى السادسة من مساء يوم ربيعي بارد توقفت سيارة سوداء فاخرة في ساحة الاستوديو ، ونزلت منها النجمة . استقبلتها مرحبا ، وبعد قليل من الاضطراب والعبارات الاجبارية انسحب كل من مساعدينا لتناول البراندي وتبادل الحديث ، وبقيت مع غريتا غاربو وحدنا في غرفة عملي الضيقة والمتواضعة .

جلست على الكرسي واضات مصباحا صغيرا ، اما غريتا فجلست على الكنبة وقالت : « لقد كانت هذه غرفة ستيلر » ، وبدأت تتفحصها

بنظراتها . لم أدر بماذا أجيب فقلت لها إن غوستاف مولاندر كان يعمل في هذه الغرفة قبلي ، لكنها عادت تقول « نعم انها غرفة ستيلر، أنا متأكدة » ، ثم تحدثنا بشكل غائم عن ستيلر وسيوستروم ، واخبرتني بأن ستيلر أخرج لها فيلمها الأول في هوليوود رغم انه كان مطرودا من العمل . « كان مطرودا ومريضا وانا لم أعرف بذلك فهو لم يكن يتذمر أبدا ، وأنا كانت لدي مشكلاتي الخاصة . » .

وساد الصمت .

وفجاةنزعت نظاراتها الشمسية السوداء وقالت لي : « انظر إلي كيف أبدو يا سيد برغمان » ، وابتسمت ابتسامة سريعة ومتألقة .

يصعب القول فيما اذا كانت الاساطير العظيمة ساحرة بسبب كونها أساطير أو أن سحرها وهم خلقناه نحن المستهلكين . ولكن في تلك اللحظة لم يكن يوجد مجال للشك . في تلك الغرفة الضيقة ذات الاضاءة الخافتة كان جمالها خالدا ، ولو أنها كانت احد ملائكة الأناجيل لقلت أن الجمال يحلق حولها ، هذا الجمال المتجسد بملامح وجهها الصافية وبجبهتها وعينيها وحتى ثقبي أنفها . انتبهت غريتا الى ردة فعلي فورا ، فانتعشت وبدأت تتحدث عن دورها في مسرحية لسلما لاغرلوف .

توجهنا الى الاستوديو الصغير واخذت تذكر أسماء المساعدين والفنيين الذين ماتوا جميعا باستثناء واحد . قمنا بجولة سريعة في المنطقة وكانت تستند الى ذراعي بين الحين والآخر بسبب الطرقات الزلقة ، وعندما عدنا الى الغرفة كانت مبتهجة ومسترخية ، وكان مساعدي يمرح مع ضيوفه في الغرفة المجاورة .

« أراد آلف سيوبرغ أن نصنع فيلما سوية ، وأمضينا الليل كله جالسين في السيارة نتحدث . كان ملحا وتصعب مقاومته . قبلت

مرضه لكنني غيرت رايي في صباح اليوم التالي ورفضت . كان هـذا غباءً مروعا من طرفي . الا تعتقد ذلك يا سيد برغمان ؟ » .

وانحنت قليلا بحيث انكشف وجهها أمـام ضوء المصباح الموجود على طاولة المكتب .

وفجاة رايت ما لم اره من قبل . كان فمهـا بشعا . شق رمادي محاط بالتجاعيد . كانت الرؤية غريبة ومزعجة . كل هذا الجمـال وفي وسطه نشاز عالي النغمة ، ولن يكون بوسع اي جراح تجميلي أن يصلح هذا الفـم . قرات افكاري بسـرعة فلاذت بالصمت ودب الملل اليها وافترقنا خلال دقائق قليلة .

لقد شاهدت بتمعن فيلمها الأخير الذي صورته وهي في السادسة والثلاثين . كان وجهها جميلا ولكن مشدودا ، فمها بلا رقة ونظراتهـا مشتتة وحزينة رغم الكوميديا . ربما لمح الجمهور لها بما كانت مرآة مكياجها قد أسرّت إليها .



في صيف عـام ١٩٨٣ قدمت مسرحية موليـير (دون جوان) في مهرجان سالزبورغ ، وكان التخطيط لهذا العرض قد استمر ثـلاث سنوات وبدأ في مرحلة شهر العسل بيني وبين مدير مسرح الريزدنز ، النمساوي كورت يزل الذي كان سيؤدي دور سغاناريل ، ثم اختلفنا فطردني من المسرح الكن عقدي ظل ساري المفعول ، فاخترت ممثلا آخر لأداء دور سغاناريل وكانت تعمل تحت تصـرفي مجموعة رائعـة ، منها مايكل ديفن في دور دون جوان العجوز .

تلقيت دعوة لزيارة هربرت فون كارايان الذي كان يحضّر لإعادة تقديم اوبرا (الفارس حامل الورد) خلال المهرجان ، وكان يعتبرها من اهم أعماله .

اقلتني سيارته ، ثم وصلت الى مكتبه الخاص داخل أحد الأبنية الضخمة ، ووصل متأخرا بضع دقائق . كان رجلا نحيلا ورأسه كبيرة، وكان يساعده على السير أحد مساعديه بعد أن أجرى مؤخرا عملية في ظهره واخرى لساقه . جلسنا في غرفة انيقة ومريحة تغلب عليها الألوان الرمادية الباردة واللائمة ، وانسحب كل المساعدين والسكرتيرات ، وكان يفترض أن تبدأ بروفات (الفارس حامل الورد) خلال نصف ساعة .

دخل المايسترو في الموضوع مباشرة ، كان يريد أن يصور (توراندوت) كفيلم أوبرالي للتلفزيون على أن أقوم باخراجه بنفسي . ونظر إلي بعينين مرهقتين وباردتين (وكنت أعتقد بأن توراندوت عبارة عن خليط مزعج وثقيل) لكنني كأنما خضعت لجلسة تنويم مغناطيسي أثناء نظرات هذا الرجل النحيل إلي ، فقلت له إن هذا شرف عظيم بالنسبة لي وإنني كنت دائما مسحورا بتوراندوت وأن الموسيقا رائعة ولا يوجد ما يشجع أكثر من التعاون مع هربرت فون كارايان .

حددنا موعد الانتاج في ربيع عام ١٩٨٩ ، واقترح كارايان بعض الاسماء من نجوم الاوبرا في العالم ، ومصمم المناظر والاستوديو ، وسيكون الفيلم مقتبسا عن تسجيل سوف ينجزه في خريف عام١٩٨٧ .

وفجاة أصبح كل شيء غير واقعي ، الشيء الواقعي الوحيد هو (توراندوت) . كنت أعرف أن هذا الرجل أمامي قد بلغ الخامسة والسبعين وأنا أصغره بعشر سنوات . في عام ١٩٨٩ ، سيقوم مايسترو في الواحدة والثمانين ، ومخرج في الواحدة والسبعين بنفخ الحياة في عمل موسيقي غريب ومحنط . لم أشعر بمثل هذه الغرابة ، لكنني كنت سعيدا بها .

وبعد الترتيبات الأولية بدأ المايسترو يتحدث عن شتراوس ، وعمله (الفارس حامل الورد) ، الذي قام كارايان بقيادته للمرة الأولى

عندما كان في العشرين من العمر ، وعاش معه هذا العمل طوال حياته ولايزال يراه جديدا ومليئا بالتحديات ، ثم قال فجأة : « لقد شاهدت مسرحيتك (لعبة حلم) أنت تخرج وكأنك موسيقي ، لديك احساس بالايقاع والموسيقا ، كذلك كان الحال في (الناي السحري) . توجد فيه مشاهد رائعة ، لكنني لم أحب الفيلم وكان يجب أن تضيف بعض المشاهد الى النهاية . لانك لا تستطيع أن تفعل هذا بموزارت ، فكل شيء عضوي ومترابط » .

ظهر أحد المساعدين بالباب وقال إن وقت البروفة قد حان ، فلوح له كاريان بيده مشيرا الى أن ينتظروا .

بعد لحظات نهض بصعوبة وأمسك عصاه وجاء مساعده ليمسك بيده اثناء عبور الممرات الحجرية الطويلة في مسرح المهرجان . وما أن سرنا حتى تحولنا الى موكب امبراطوري من المساعدين والسكرتيرات ومغني الأوبرا من كل الاجناس والنقاد المتذللين والصحفيين الخانعين .

كان العازفون المنفردون يقفون باستعداد على خشبة المسرح ، أما اعضاء فيلهارمونيا فينيا فأخذوا موقعهم في المكان المخصص للاوركسترا ، وامتلأت القاعة بمئات من مواطني امبراطوريته .

وعندما ظهر الرجل النحيل ذو الساق العرجاء ، وقف كل الموجودين احتراما له وانتظروه حتى تبوأ منبره .

وبدأ العمل فورا ، وغرقنا في موجة من الجمال .



بدات عملية النفي الذاتي في باريس عام ١٩٧٦ . وبعد فترة من التجول انتهيت الى ميونيخ ومن ثم الى مسرح الرزيدانز ، الذي يعادل بالنسبة للبافاريين المسرح الدرامي الملكي في استوكهولم ، ويضم ثلاث قاعات ، وعدد العاملين نفسه وحجم الانتاج نفسه ايضا . خلال فترة وجودي قدمت أحد عشر انتاجا مسرحيا ، واكتسبت قدرا كبيرا من الخبرة ، وارتكبت قدرا أكبر من الحماقات .

يوجد في المانيا الغربية عـدد هائل من المسارح ، يجتذب بعضها افضل الكوادر المسرحية في البلاد لاسباب منها الأجور العالية ، وانتفاء خطورة الغرق بالنسيان . يتحرك المخـرجون والنقاد باستمرار ، ويأتون من اقصى الامكنة لمشاهدة كل جديد ، وبالمقارنة مع بلاد اخرى فان صفحات الثقافة والفنون في الصحف الرئيسـية تخصص حيزا للنشاطات المسرحية مستقلا عن حيز اخبار الفيديو والأغاني ، ويصعب أن يمضي يوم واحد دون وجود تقرير عن احداث مسرحية معينة ، أو تغطية لحوارات حامية الوطيس عن المسرح .

كما يصعب وجـود منتجين أو مصممي مناظر ممـن يتمتعون بامتيازات خاصة . ويرتبط الممثلون بعقود سنوية ويمكن أن يطردوا من العمل بشكل اعتباطي ما عدا أولئك الذين مضى أكثر من خمسة عشر عاما على وجودهم بالمسرح . الاحساس بعدم الأمان مطلق وهو أمر له حسناته وسيئاته . بالنسبة للحسنات فهي واضحة ولا تحتاج لتعليق وأما السيئات فتولد المكائد وسوء استخدام السلطة والعدوانية والاحساس بالذل والخوف وعدم الاستقرار . وعندما يتسلم مخرج

جديد ادارة المسرح ، ينقل معه عشرين أو ثلاثين ممثلا ممن كانوا يعملون معه في مسرحه السابق ويطرد العدد نفسه من ممثلي المسرح الجديد. هذا نظام ساري المفعول ولا يناقشة أحد بمن فيهم مسؤولو النقابات .

وكان العمل يسير بسرعة .. ثماني مسرحيات على الأقل للقاعة الكبيرة ، وأربع لقاعة انكس ، ومجموعة من الأعمال المنوعة للقاعة التجريبية . العروض تقدم يوميا بلا توقف ، البروفات طوال ستة أيام في الأسبوع وأحيانا في المساء أيضا . البرنامج المسرحي أمر يجب الالتزام به كلية . البرامج تتغير يوميا . ثمة عروض تستمر لسنوات ، وعروض أخرى تزيد مدة عرضها عن العشر سنوات .

الحرفية تقدر عاليا ، وكذلك المعرفة والمهارة والقدرة على تحمل المحن والمضايقات بلا تذمر .

وهكذا فالعمل طبيعته شاقة للغاية ، والوقت المخصص لبروفات العمل الواحد يحدد بين ثمانية وعشرة أسابيع . أعتقد انه لا يوجد في العالم كله مسرح مستبد ومتطلب كما هو المسرح الألماني ، ربما باستثناء المسرح البولوني .

عندما ذهبت الى ميونخ اعتقدت أن لغتي الألمانية جيدة بما فيه الكفاية ، لكنني سرعان ما اكتشفت عكس ذلك .

واجهتني المشكلة للمرة الأولى أثناء القراءة المشتركة لمسرحية (لعبة حلم) ، حين وجدت أربعة وأربعين ممثلا وممثلة رائعين يجلسون أمامي وينظرون الي بتوقع . شعرت بالإخفاق التام ، فتلعثمت ولم أعثر على الكلمات المناسبة وتشوشت وتوردت خجلا وعرقت واعتقدت بأنني اذا اجتزت هذه اللحظات الصعبة استطيع اجتياز أي شيء .

كانت السنوات الأولى شاقة ، أحسست خلالها كأنني عاجز مقطوع اليدين والساقين وادركت ان الكلمة الصحيحة الرشيقة في

وقتها المناسب هي أداتي القوية بوصفي موجها للممثلين ، الكلمة التي لا تكسر ايقاع نفسها ولا تزعج الممثلين أثناء تركيزهم أو استماعهم لي ، الكلمة السريعة والفعالة التي تولد حدسيا وبالشكل الصحيح . وقد لاحظت بغضب وأسف ونفاد صبر أن هذه الكلمة لا تولد من لغة المحادثة القـــدرة .

استطعت بعد سنوات أن أتعلم كيفية اقامة اتصال مع الممثلـــين الذين يفهمونني بحدسهم ، وتمكنت معهم من إرساء نظام للاشارات كان مقنعا في أحيان كثيرة . ويعود الفضل بأنني اســـتطعت ، ورغم عجزي ، تقديم أفضل عروضي في ميونخ ، الى حساسية الممثلين الألمان العالية وفهمهم السريع وصبرهم . إن تعلم لغة جديدة في مثل سني أمر لا يمكن مناقشته .

ثمة شيء رائع فيما يتعلق بجمهور مسارح ميونخ ، فهم أناس يعرفون الفن جيدا رغم انهم ينتمون الى شرائح اجتماعية مختلفة ، ولديهم جراة كبيرة لانتقاد ما لا يعجبهم والتعبير بالصفير عــن عدم اعجابهم . لكن الطريف فيهم انهم يذهبون الى المسرح بغض النظر عن مستوى المسرحية ، وهذا لا يعني أنهم لا يصدقون كتابات نقاد الصحف اليومية التي يقرؤونها حتما ، لكنهم يحتفظون بحقهم ليحددوا بانفسهم موقفهم من المسرحية .

وتكون نسبة الحضور بحدود ٩٠ بالمائة ويكون التصفيق هو التعبير عن انهم أمضوا أمسية جيدة ، يغادرون بعـــدها المسرح ببطء وعلى مضض ويقفون بدوائر يناقشون انطباعاتهم ، وبعد قليل تكتظ بهـــم حانات البيرة والمقاهي بشارع ماكسيمليان . الطقس دافىء ورطب وثمة رعود تقصف فوق الجبال البعيدة ، وحركة المرور صاخبة ، فأقف قلقا ومثارا أتنشق روائح الطعام وأدخنة عوادم السيارات وعبير الحدائق المبللة ، واستمع الى وقع آلاف الخطوات واللغة الأجنبية الغريبة وأقول لنفسي : « لا شك انني في بلد أجنبي » .

وفجأة أشعر بالحنين الى جمهوري الخاص الذي يصفق بلطف ويغادر المسرح بسرعة وكأن النار قد شبت فيه .

كان استقبالي الأول في ميونخ رائعا ، فاشرعوا أيديهم مرحبين بي . إنه برغمان الذي فر هاربا من جحيم الاشتراكية في الشمال ووجد ملاذه في مجتمع بافاريا الديمقراطي ، حيث عانقه بحب فرانس — جوزيف شتراوس .

في حفلة خاصة اقيمت على شرفي ، التقطت لي صورة مع شتراوس استخدمها لاحقا في حملته الانتخابية . وتتالت حفلات التكريم واحدة تلو الاخرى ، وكان فيلم (الناي السحري) يجتذب الجمهور في واحدة من اكبر دور العرض السينمائية بالمدينة ، وقدم التلفزيون (مشاهد من حياة زوجية) والحقه بمقابلات ونقاشات حادة . حاولت بدوري أن أبادل هذه النوايا الطيبة بجهود حثيثة لأن أكون لطيفا مع الجميع ، الى أن لاحظت متأخرا أن المجتمع البافاري مجتمع مُسيَّس ، تفصل بين أحزابه وزمره حواجز عالية .

خلال فترة قصيرة للغاية نجحت في أن أبدو أحمق .

دخلت مسرح الريزدانز حاملا مبادىء وأفكارا تشكلت وتطورت عبر حياتي المهنية الطويلة في تلك الزاوية من ضاحية العالم ، وارتكبت خطأ شنيعا بمحاولة تطبيق النماذج السويدية على الظروف الألمانية ، فأمضيت وقتا طويلا وجهودا كبيرة في محاولة جعل عملية اتخاذ القرارات في المسرح اكثر ديمقراطية .

كان هذا غباء مني .

كنت اندفع الى اجتماعات الشركة واقترح فكرة المجلس الاداري المؤلف من خمسة ممثلين ، لكن المشروع لم ينجح في البداية ، ويجب

الاشارة في هذا السياق الى انه لا يوجد مجلس ادارة في مسرح بافاريا الوطني الذي تديره بشكل مباشر وزارة الفنون ، وعن طريق شخصية مغرورة يصعب الوصول إليها اكثر من امبراطور الصين .

واخيرا بعد صراع طويل مع الشركة تم اعتماد فكرتي وتشكل المجلس الاداري الاستشاري وباشر اعماله ، وعندئذ لاحظت ذلك الوحش المخيف الذي استطعت أن اخلقه في داخلي ، لقد خرجت الى النور تلك الكراهية التي تراكمت وتقيحت عبر السنين ووصل معها الاحساس بالخوف والذل الى درجة لا توصف . لقد أصبحت المكائد ، التي يصعب في السويد تصور حدوثها حتى في كواليس الكنائس ، أمرا يوميا ومألوفا .

كان مدير مسرحنا في السبعين من عمره ، وقد جاء من فينا . وكان ممثلا باهرا ومتزوجا ــ لسوء حظه ــ من ممثلة جميلة ولكن اقل موهبة منه ، حاولت التعويض عن ذلك بأن أصيبت بجنون العظمة وبدأت تتصرف بلا وعي وتحوك المكائد . وتكافح مع زوجها ليشقا الطريق سوية عبر مذلة وعظمة المسرح الألماني .

وعاش المدير متوهما انه يستطيع ادارة المسرح بحكمة أبوية ، لكن مجلس الممثلين المشكل حديثا قوض أوهامه بقوة ، ولأسباب واضحة عدني المدير شخصا مدمرا لعلاقة الحب بين الأب وطفله ، وأكثر أعدائه ضراوة فبدأ يحاربني ، تسانده بكل طاقتها زوجته التي كانت تؤدي دور أولغا في مسرحيتي (الشقيقات الثلاث) ، والتي كانت تضايقني بطريقة حديثها التي ربما اعتقدت انها مثيرة جنسيا ، حتى انني نصحتها اخيرا بأن تواظب على دروس الالقاء ، فلم تغفر لي نصيحتي أبدا .

واحتد الصراع بيني والمدير واتخذ طابعا قاسيا وفظا ، وأصبح اكثر مأساوية لأن كلاً منّا كان معجبا بالآخر فيما مضى .

وكانت النتيجة أن عاش المسرح في حالة من التوتر واللاجدوى ، وقد نسيت أثناء تطلعي الدائم الى الأفضل ، أمرا اساسيا وهو أن هؤلاء الممثلين يفتقدون الاحســـاس بالأمان ، فكـــان خوفهم مفهوما وشجاعتهم لا تصدق .

طردت من العمل في حزيران ۱۹۸۱ .

شُطبت أعمالي من جداول العروض وأُبعدت عن المسرح ، ورافق ذلك اتهامات واهانات سربت الى الصحافة ووزارة الفنون . ولا أريد ان أقول : إنني عوملت بغير نزاهة ، لانني لو كنت مديرا للمسرح لأقدمت على الخطوة نفسها ولكن في وقت مبكر .

عدت الى العمل بعد ستة أشهر مع تولي مدير جديد ادارة المسرح إثر فوزه بحملة انتخابية سياسية وصحافية شنيعة ، غير مقنعة في مجتمع منفتح مثل بافاريا . وكانت نتائجها مثيرة لأي شخص من خارج المسرح لكنها مذلة ومرعبة للضحايا في داخله .

من حماقاتي الأخرى انني قطعت كل صلة ممكنة مع صحافةميونخ ورفضت مقابلة اي من النقاد مهما كان حجمه ، وكان هذا خطأ آخر ارتكبه ، لأن وجود تفاعل معين بين الضحية والجلاد يعتبر عاملا مهما في لعبة التمجيد والذل البافارية ذات الطقوس الصارمة .

ذات مـــرة قال صديقي أرلنـــد يوزفسن إن الانســـان يجب أن يكون حذرا أثناء تعرفه على الناس لأنه قد يبدأ بحبهم . هذا ما حدث لي تماما . أعجبت بالكثير من زملائي وكان من المؤلم فك الارتباط معهم، هذا الارتباط الذي كان سببا في إرجاء رحيلي سنتين على الأقل .

لم أعرف في حياتي كلها صحافة سيئة مثل التي عرفتها خلال السنوات التسع من وجودي في ميونخ ، حيث قوبلت مسرحياتي وأفلامي

ومقابلاتي وأي ظهور آخر لي بالاهانات والازدراء ، مع وجود بعض الاستثناءات بالطبع .

توجد توضيحات لذلك : فأعمالي الأولى لم تكن جيدة بالقدر الكافي بل كانت تقليدية بطريقة مضجرة واثارت قلقا وتشويشا ، وكنت أرفض وبشكل مبدئي أن أقدم شروحات حول أفكاري واعمالي مما أثار مزيدا من القلق والازعاج .

لكنني تحسنت مع الوقت وكنت بحالة جيدة في معظم الأحيان ، ومع ذلك فقد وقع الضرر ، واتخم الناس بهذا الاسكندنافي غير المحتمل الذي يفكر كثيرا بنفسه،ثم جاءني الذم وانهالت علي أصوات الاستهجان والازدراء بعد العرض الافتتاحي لمسرحية (الآنسة جولي) ، وكانت تجربة مثيرة .

يجب على المخــرج ان يقف مع الممثلين في نهاية عــرض الافتتاح ليتلقى معهم تحية الجمهور . خرج الممثلون وقوبلوا بالتصفيق وصيحات الاستحسان لكنني عندما خرجت إليهم أخذوا يصفرون ويستهجنون ، وماذا بوسعك أن تفعل ؟ لا شيء . يجب أن تبقى مكانك وتنحني مــع ابتسامة مرتبكة وفي الوقت نفسه قلت لنفسي : « والآن يا برغمان هذا جديد بالنسبة الك ، ولكن لاباس أن يكون الناس قادرين على الغضب . من أجل لا شيء » .

الجمهور يغضب ويصفق ، والنقاد يغضبون ويصفقون ، وانا احس النار تشتعل في رأسي والأرض تميد تحت قدمي . ما هذا الذي اراه واسمعه ، هل هذا أنا ـ أم ؟

إن معظم الذي سقط فوق راسي داخل المسرح الألماني لم يكن حرية مطلقة ، بل عصابا مطلقا .

ولكن في وسط هذه الفوضى كانت تزدهر تجارب مسرحية عظيمة .

شاهدت قبل سنوات فيلماً من الرسوم المتحركة لوالت ديزني ، يتحدث فيه عن بطريق صغير يحنّ الى بحار الشمال ولكن ينتهي بـه المطاف الى مياه زرقاء دافئة عند شاطىء مليء بأشجار النخيل ، حيث يعلق صورة للقطب الشمالي على إحـدى الأشجار ويبدأ ببناء قارب يعيده الى موطنه الذي يشعر بالحنين اليه .

انا اشبه هذا البطريق ، فاثناء عملي في مسرح الرزيدانز بميونخ كنت افكر كثيراً بالمسرح الدرامي الملكي واشعر بالحنين اليه والى لغتي الأم واصدقائي . وها انا عدت أتوق الى التحديات والمعارك الدامية .

في مثل سني يصبح المستحيل مهمازاً وحافزاً ، واستطيع هنا أن افهم شخصية البناء لدى إبسن ، والذي بدأ يصعد أدراج برج الكنيسة رغم معاناته من الدوار . إن المحلل النفسي قد يقول إن الدافع نحـو المستحيل له علاقة بالفعالية المتقهقرة . وماذا بوسع المحلل النفسي أن يقول غير ذلك ؟

اعتقد أن لدي دوافع مختلفة ، فقد يكون للفشل طعم طازج وحاد ، وقد تحرض المحن مشاعر العدائية وتدفع بالحياة الى الإبداع الذي ربما كان ساكناً .

إن المستحيل مغرٍ ولا يوجد لدي ما اخسره .

وفي إحدى لحظات الغضب التي يرافقها وضوح بالرؤية ، أدركت أن مسرحي ينتمي الـى الخمسينيات وأن أساتذتي ينتمـون الـى العشرينيات . هذه الفكرة جعلتني حـذراً ومثقل الصدر . يجب أن افصل المفاهيم المترسخة عن التجارب الهامة ، وافند الحلول القديمة دون أن أُحلّ محلها بالضرورة ، حلولاً أخرى جديدة .

إن الحقيقة في أعمالنا مرتبطة بالزمن ، فانتاجنا المسرحي لا يلبث أن يختفي في الظلمـة ولا يتبقى سوى لحظـات خاصة من الإحساس

بالعظمة او البؤس . اما الأفلام فتعيش وتبقى شاهداً على تقلب الحقائق الفنية القاسي .

عندما اصبح يوربيديوس ، والد المسرح ، عجوزاً ، نفي الى مقدونيا حيث كتب آخر مسرحياته (باخوس) . بنى جداره حجراً بحجر ، بغضب وضراوة ، فتعارضت المتناقضات مع المتناقضات ، والعبادة مع التجديف بالله ، واليومي المبتذل مع الطقوس . كان قد سئم الأخلاقيات ورأى ان اللعبة مع الآلهة انهارت تماماً ، وآنذاك تحدث المعلقون عن سأم وضجر الشاعر الطاعن في السن . لكن الأمر كان مختلفاً تماماً . إن بناء يوريبديوس الخطير يقدم النوع البشري والآلهة والعالم في حركتهم القاسية وغير المجدية تحت سماء فارغة .

إن (باخوس) تقدم شاهداً على الشجاعة في تحطيم القوالب .

* * *

- ٢٢ -

عند غروب شمس يوم الثلاثاء ٢٧ كانون الأول عام ١٩٨٣ ، انقطعت الكهرباء عن مدينة استوكهولم بينما كنا نقوم بالبروفات لمسرحية (الملك لير) في غرفة فسيحة ومريحة بالدراماتن اجتمع فيها ستون شخصاً بين ممثلين وراقصين ومساعدين .

كان الملك المجنون واقفاً في وسط الخشبة محاطاً بكل انواع الرعاع، مشيراً الى أن الحياة مسرح للحمقى ، عندما انقطعت الكهرباء في تلك اللحظة عينها فضحك الجميع ، كانت الريح تضرب ندف الثلج بزجاج النوافذ التي تسلل عبرها الى غرفة البروفات ضياء رصاصي . اتصل احدهم بواسطة الهاتف الداخلي واخبرنا بان المدينة كلها غارقة في الظلام .

اقترحت أن ننتظر قليلاً فلا يمكن أن تقطع الكهرباء عن المدينة لأكثر من دقائق ، جلسنا على الأرض والكراسي نتبادل الأحاديث بهدوء ، وانسحب المدخنون المدمنون الى غرفة الانتظار ، لكنهم ما لبثوا أن عادوا بسبب الظلام الدامس هناك .

انقضت الدقائق وبدأ يتلاشى ما تبقى من ضياء النهار الرمادي . وكان الملك لا يزال واقفاً بثيابه ومتوجاً بإكليل من الأزهار ، شفتاه تتحركان ، يده تحسب الزمن وعيناه مغلقتان . اما غلوستر فكان واقفاً يغطي عينه المفقوءة برباط ملطخ بالدم ويتمتم بشيء ما حول سمك الرنكة المقلي . جلس بعض الراقصين في الزاوية يستمعون الى تهكمات البني الذي كان يحمل سيفاً ويرتدي بدلة رياضة ، ويضحكون احياناً بسعادة ولكن بتحفظ ، فالجو في الغرفة لم يكن ساراً .

نزع ادغار نظاراته وبدأ يتحدث الى مدير الخشبة الذي كان يدون ملاحظاته ، في حين استلقى ايرل أوف كنت على الأرض وكأنه يعاني من آلام بالظهر أو متاعب صحية لعينة اخرى ، واشعلت كورديليا الجميلة شمعة واخذت تطوف بها في عتمة غرفة الانتظار باحثة عن سيجارة .

مضت نصف ساعة ، ازدادت قوة العاصفة الثلجية وخيم الظلام على زوايا الغرفة البعيدة ، فتجمع قائد الفرقة الموسيقية وبعض الشباب والشابات ذوي الأصوات الجميلة وجلسوا في وسط الغرفة حول خمس شمعات مضاءة وانشدوا قصيدة غزلية .

صمت الباقون وانصتوا . كانت اصوات الغناء تطوف حولنا بلطف، والعاصفة تعوي خارجاً ولا اثر لضوء في الشارع . لامست الأغنية مشاعرنا واصبحت وجوهنا غير واضحة . لقد توقف الزمن وكنا هنا ، عميقاً في عالم كان قريباً ودائماً هنا . كنا بحاجة الى قصيدة غزلية وعاصفة ثلجية ومدينة بلا كهرباء . في مهنتنا هذه كنا نلعب كل يوم مع الزمن ، فنمدده أو نقصره أو نوقفه ، وقد توقف الآن من تلقائه ... إن الزمن هش وها هو الآن يتلاشى تماماً .

كان (الملك لير) قارة بحد ذاتها ، تزودنا لاستكشافها بمهارات مختلفة وبخريطة لمزوج ونهر وشواطىء وجبل وغابات . وكنا أحياناً نصطدم بعضنا ببعض اثناء تجوالنا ونكتشف بيأس أن ما كان جزيرة بالأمس أصبح جبلاً اليوم . رسمنا خرائطنا ، ناقشناها ووصفناها لكنها لم تنجح . في البداية كان كل شيء منتظماً ثم انقلب الى فوضى وكارثة كونية .

كنت اعرف ماذا يحدث : فقد جربت الدراما واختبرتها بأعماق روحي . كيف يمكن أن أوظف خبرتي بحيث يستطيع الملك أن يهدم حواجزه المحصنة ضد الفوضى والانحلال .

لكن عروضنا يجب الا يثقلهـا العمق الزائد : يجب أن تكون رشيقة ومنبسطة ومفهومة . لا يوجد لدينا نحن السويديين اية خبرة او ايـة تقاليد شكسبيرية . لدينا تعاليم مدرسية سيئة . هل يمكن ان تحل الرغبة محل التقنية ؟ أو هل نموت في مستنقع هذا الكم الهائل من الكلمات ؟ نحن الذين مارسنا فقط حوار سترندبرغ المباشر والذي يقف على قدميه . هل يستطيع ممثلون عاديون ان يعبروا عن ألم غلوستر المزدوج وغضب كنت الزائف وجنون ادغار المدعي وشيطانية ريفان ؟

شقت بعثتنا طريقها عبر الحرارة اللافحـة وكنا نتصبب عرقاً . وفجأة تسقط الشمس مثل حجر متوهج ويسود الظلام وندرك أننا في مستنقع لا نهاية لأعماقه . اياماً واياماً : كانت هذه لحظة الحقيقة ، نقطة ثابتة ، واخيراً نستطيع أن نكون منهجيين بهدوء . المسافة من هناك الى هناك متران وسبعون سنتمتراً . نسجل ذلك . يفضل أن نقيسها ثانية . إنها الآن اربعة عشر الف متر !

والمخرج والممثل والناقـد ، كل منهم يرى (الملك لير) بطريقـة مختلفـة ، احياناً بضبابية واحياناً اخـرى بوهم ، كل وفق حدسه وشعوره الذاتي .

ارى وادرك انها لحظة انتصار : فاليوم لم ينقض عبثاً وحياتنـا المترددة اكتسبت معنى ولوناً .. يا للروعة .

* * *

- ٢٣ -

قال أحدهم إنني يجب أن أكتب عن أصدقائي ، وهذا غير واقعي إلا إذا كان المرء طاعناً في السن ، وأصدقاؤه قد غادروا الحياة ، وإلا فإنه سينتهي الى توازن غير دقيق بين الطيش وكتم الأسرار .

ذات مرة كتب أحد الأشخاص مذكرات مفصلــة قرأتها عشيقته السابقة فذهبت الى الحمام وتقيأت ، ثم طالبته بحذف اسمها فوافق لكنه في الوقت نفسه ألغى كل آرائه الإيجابية عنها وأبقى السلبية فقط .

الصداقة مثل الحب ، وجوهر الصداقة يقوم على الصراحة والعاطفة والصدق . من المريح أن ترى وجه صديقك أو تسمع صوته بالهاتف وتتحدث معه حول أمور مؤلمة وملحة ، وتسمعه يعترف بما يخشى التفكير به . إن للصداقة لمسة من الحسية ، فشكل الصديق ووجهه وعيناه وشفتاه وصوته وحركاته ونبرة صوته ، كل هــذا محفور في ذهنك ، مفتاح سري يمنحك الثقة لأن تبوح بنفسك في صداقة حقيقية .

إن علاقة الحب تنفجر متحولة الى صراعات لا يمكن تفاديها ، أما الصداقة فلا تحتاج الى الرغبة نفسها من الاهتياج والتعقيم . في أحيان كثيرة يلتصق الرمل بين أسطحة التواصل القابلة للخدش ويلي ذلك الأسف والصعوبات . أفكر وأقول لنفسي إنني أستطيع تدبير أموري جيداً دون هذا الأحمق ، ثم يمضي بعض الوقت ويظهر إحساس غير سار بفقدان هذا الشخص ، إحساس يعبر عن نفسه بمستويات مختلفة، واضحة أحياناً ومتكتمة غالباً .

الصداقة لا تعتمد على الوعود والاحتجاجات أو على الزمان والمكان. الصداقة غير متطلبة إلا في أمر واحد . إنها تتطلب الصدق ، وهو مطلبها الوحيد ، ولكن الصعب .

كتب احد اصدقائي من الممثلين دراما اذاعية رائعة المستوى فسألته إذا كان بإمكاني أن اخرجها . بعد بضعة اشهر عرضت عليه أن يؤدي دوري الشبح والعازف الأول في (هاملت) والحتد النقاش بيننا ، ثم خذلني . شعرت بالغضب وقلت له إنني في هذه الحالة لن أخرج مسرحيته الإذاعية ، فأصيب بالصدمة وأجاب إنه لا يرى الصلة بين الأمرين ، والتي كانت واضحة بالنسبة لي . وبعد أخذ ورد أنهينا خلافاتنا دون أن يبدل أحدنا مواقعه ، لكن صداقتنا كانت قد تأثرت .

كان احد اصدقائي من الشخصيات الاجتماعية والسياسية الناجحة يعيش حالة خوف عصابي من كل اشكال العدائية المباشرة . وكنت أحب أن أستمع اليه لأنه يعلمني اشياء كثيرة . ومنذ سنوات حاضربي طويلاً عن مستواي المتذبذب في سوق الفيلم العالمي ، الشيء الذي كنت أعرفه اكثر من اي شخص آخر ، وفي المرة الأخيرة التي عاد يتحدث فيها عن الموضوع نفسه انفجرت غاضباً ونصحته بعبارات غير مباشرة أن يصمت ويذهب الى الجحيم ، ثم اقتضى الأمر سنوات أخرى حتى استطعنا استعادة صداقتنا .

وبشكل عام لا أوهام عندي بشأن موهبتي للصداقة . أنا مخلص للغاية لكنني مرتاب جداً . وإذا فكرت بان احداً خانني فإنني أرد له الخيانة بسرعة ، وإذا قاطعني أحد اقاطعه فوراً . إنها موهبة مشكوك بامرها وذات طابع برغماني بحت .

أجد صداقة النساء أكثر سهولة . فالصراحة واضحة (كما أحب أن اعتقد) لا مطالب فيها (كما آمل) . الاخلاص غير قابل للخدش (كما اتصور) . الحدس يتحرك بلا تحامل أو ضرر ، العواطف غير مقنّعة أو

متنكرة ولا دخل للصيت والشهرة . الصراعات التي تنشأ غير معدية . لقد رقصت معهن في كل وجهة ممكنة : المعاناة ، الحنان ، العاطفة ، الحماقة ، الخيانة ، الغضب ، الكوميديا ، الملل ، الحب ، الأكاذيب ، المتعة ، الغيرة ، الزنا ، تجاوز الحد ، الوفاء ، وهناك المزيد أيضاً : الدموع ، الشهوانية ، الشهوانية المجردة ، الكوارث ، الانتصارات ، المتاعب ، الأذى الجسدي ، القلق ، الوخز بالدبابيس ، الخصيتان ، المني ، النزف ، الرحيل . ويستحسن أن ننتهي من هذا قبل أن نصل الى آخر السكة ، فهناك أيضاً العنة ، الفسق ، الرعب ، قرب الموت ، الموت نفسه ، الليالي ، الليالي البيضاء ، الليالي المؤرقة ، الموسيقا ، الإفطار ، الأثداء ، الشفاه ، الصور . والآن ندير الكاميرا باتجاه آخر لنرصد خليطاً آخر من الصور : الجلد ، الكلب ، الطقوس ، لحم الحوت ، المحار سيء الطعم ، الاغتصاب ، الملابس الانيقة ، المجوهرات ، اللمسات ، القبلات ، الأكتاف ، الأرداف ، الأضواء ، الشوارع ، المدن ، المنافسة ، المغريات ، المشط في الشعر ، الرسائل الطويلة ، الشروحات ، كل الضحك ، التقدم بالسن ، الرماد ، الأيدي . وتأتي المنطقة الآن الى نهايتها : الظلال ، الرقة ، شاطىء البحر ، البحر .

والآن يسود الهدوء ، وانظر الى ساعة والدي الذهبية القديمة ذات الزجاج المكسور ، والموجودة أمامي على المكتب . إنها تشير الى الثانية عشرة إلا سبع دقائق .

كلا ، لن أكتب عن أصدقائي أو زوجتي انغريد . هذا مستحيل .

منذ سنوات أخرجت فيلماً غير ناجح تماماً يدعى (حب مع العاشقين) ، عبارة عن بانوراما للحياة في ألمانيا الغربية ، ثم مات الفيلم بشكل طبيعي لكنني نحتُ منه شريحة أصبحت فيما بعد فيلماً تلفزيونياً بعنوان (من حياة الدمى) أعده واحداً من أهم أفلامي ، وهو رأي يشاركني فيه قلة .

ويوجد في سيناريو الفيلم حكاية ماخوذة عن أوڤيد حول الآلهة التي تنكرت ونزلت الى الأرض لترى كيف يعيش الخلق . وذات امسية ربيعية باردة وصلت الآلهة الى مزرعة مهملة عند شاطىء البحر حيث يعيش رجل عجوز وزوجته ، فيدعونها للعشاء وقضاء الليل . وفي الصباح تابعت الآلهة طريقها بعد أن سمحت للعجوزين بالتعبير عن أملهما الوحيد بألا يفرق الموت بينهما . استجابت الآلهة لرغبتهما وحولتهما الى شجرة واحدة كبيرة تظلل المزرعة .

نعيش أنا وزوجتي سوية ، وإذا فكر احدنا بأمر فإن الآخر يجيبه . لذلك لا توجد لدي أية وسيلة لوصف هذه الصلة الروحية .

ولكن ثمة مشكلة لا يمكن حلها ، ففي يوم ما سوف نفترق ، ولن توجد الآلهة الطيبة التي ستحولنا الى شجرة تظلل المزرعة . إن لدي موهبة في تخيل معظم مواقف الحياة فأنا أكدح في حدسي وخيالي ومشاعري .

ومع ذلك فإنني افتقر الى وسائل تصور لحظة الفراق ، وبما أنني لست قادراً ولا راغباً بتصور حياة أخرى وراء الآفاق ، فإن تلك اللحظة تبدو مروعة . سوف أتحول من شخص ما الى لا أحد على الإطلاق ، وهذا اللا أحد لن تكون لديه الذاكرة لأية صلات روحية .



٢٤

عندما ذهب والدي الى ڤارموس لقضاء اجازته في منتصف شهر تموز ، كان يبدو متعباً وقلقاً ، فامضى وقته يسير وحيداً في الغابات وينـام في مخازن الحبوب .

وذات يوم احد كان متوجهاً لإلقاء موعظة في كنيسة امسبرغ . وكان الصباح رعدياً ومغماً انتشرت خلاله فوق التلال سحب زرقـاء قاتمـة .

وكان قد تقرر منذ مدة طويلة ان اصطحب والدي في رحلته هذه فوضعني امامه على الدراجة وثبت خلفه صرة الطعـام وحقيبة تضم غفارته . كانت قدماي عاريتين ، وارتدي بنطالاً ازرق قصيراً وقميصاً لونه باهت ووضعت رباطاً حول معصمي بعد ان لسعتني بعوضة وتورم موضع اللسعة . اما والدي فكان يرتدي بنطالاً اسود وجزمة سوداء برباط وقميصاً ابيض وقبعة بيضاء وسترة صيفية .

استطيع ان أؤكد هذا لانني عثرت مؤخراً على صورة ، وفيها تقف غرترود ، صديقة العائلة الشابة ، في الخلفية ، تنظر الى والدي بحب وتبتسم بغيظ ، وكانت المفضلة بالنسبة لي لأن الأمور تتحسن بوجودها فتجعل والدي يضحك دائماً وتلطف مزاجه . ويمكن رؤية جدتي في طريقها الى المرحاض ، وشقيقي منكباً على إحدى ألوظائف اللعينة وشقيقتي نائمة وانا في حوالي الثامنة من العمر . وكانت أمي تمسك الكاميرا وتحب التقاط الصور . .

اجتزنا منحدر الغابة المزورع بالصنوبر ، عبر روائح الصمغ والطحالب ، ومررنا بجانب حديقة مزروعة بالفروالة . وكان شقيقي ورفاقه من دار الارسالية قد قاموا منذ أسابيع بسرقة الفراولة وهرسها على ملاءات السيدة تورنكفيست . واشتبه بنا جميعاً ، ثم اطلق سراحنا لعدم وجود الأدلة .

في احد الايام دلى شقيقي امام أنفي دودة تستخدم لصيد السمك وقال لي : « إذ اكلتها اعطيك خمسة أورات » . تدبرت أمري وأكلت الدودة وبعد أن ابتلعتها نهائياً قال لي : « ما دمت أحمق لدرجة أنك تأكل الدود فلن أعطيك الأورات الخمسة » .

كان يسهل خداعي ، وكنت أعاني من زائدة انفية وأتنفس غالباً عن طريق فمي الذي يبقى مفتوحاً فيجعلني أبدو كالأبله .

وفي مرة اخرى قال لي شقيقي : « خذ مظلة جدتك واصعد بها الى الشرفة . والآن افتحها . اقفز وسوف تطير » . كنت غبياً للنهاية فبكيت بغضب لا لأنني خدعت ولكن لأنني لم أطر بواسطة مظلة جدتي .

وذات يوم قالت لي لالا العجوز : « انت ولدت يوم الأحد يا انغمار وتستطيع أن ترى الجنيات ، ولكن لا تنسى أن ترفع غصنين أمام عينيك » .

لا أعرف الى اية درجة كانت لالا تؤمن بما تقوله ، لكنني لم أشاهد جنيات بل رجلاً رمادياً صغيراً ذا وجه كريه يمسك بيد فتاة لا يزيد حجمها عن حجم اصبعي ، أردت أن أمسك بها ، لكنها اختفت هي والقزم .

عندما كنا نقطن فيلا غاتن كان يأتي لزيارتنا موسيقيون جوالون فيعزفون ويمضون ، وذات يوم جاءت عائلة كاملة منهم فدخل والدي

الى غرفة الطعام وقال : « لقد بعنا انغمار للفجر وحصلنا على سعر جيد » . بدأت أنتحب من الرعب وانفجر الجميع ضاحكين فأخذتني امي الى احضانها وداعبت راسي برفق وقد دهشت لكوني ساذجاً الى هذه الدرجة : « إنه يخدع بسهولة وليست لديه روح دعابة » .

وصلنا الى مكتب البريد في قمة الهضبة ونزلت عن الدراجة وتابعت الطريق سيراً على الأقدام . القينا تحية الصباح على ساعي البريد الذي كان في طريقه الى المحطة ليسلم البريد لقطار الصباح المتجه الى كريلبو .

بعد الهضبة تابعنا الطريق صاعدين واجتزنا مزرعة برغلوند الكبير ، من حيث كنا نأخذ الحليب ، ثم اجتزنا بيتاً تقطنه الأشباح ، وبيت الإرسالية حيث يعيش عدد من الأطفال الذين يعمل آباؤهم في بعثات تبشيرية لصالح الله في حقول افريقيا . وكانت تحكم هذا البيت مسيحية مبهجة دون قوانين أو إكراه ، وكان الأطفال يقضون أيامهم متجولين حفاة الاقدام ، ويتناولون وجبات الطعام عندما يشاؤون ، ويشاهدون مسرحاً بناه خصيصاً لهم بنغت فريكهولم نقلاً عن موديل موجود في إحدى المجلات المتخصصة بالعائلات .

وها نحن نعدو الآن باتجاه المنحدر المؤدي الى سولباكا . الطريق يمتد بمحاذاة النهر والشمس متوهجة والعجلات تصرصر على الأرض المبللة بالماء ، والغيوم لا تزال فوق التلال . كان والدي يغني بصوت خافت وقطار الصباح يصفر بعيداً ، وفكرت بقطاري الموجود في البيت . فقد كان يمكن ان أكون هناك في هـذه اللحظة ، أمد السكة في القبو المعشوشب والهو وحدي . إن الرحلة مع والدي مشروع متقلقل لأنك لا تعرف كيف سينتهي ، فاحياناً يبقى مزاجه رائقاً طيلة النهار وأحياناً أخرى تتلبسه الشياطين فيصبح صامتاً ونزقاً .

وجدنا بعض العربات التي تقل الناس الذاهبين الى الكنيسة واقفة بانتظار المعدية ، وكان هناك رجل مع بقرة قذرة ومجموعة صبية في طريقهم السباحة والصيد في جوبتارن .

وبدات المعدية عبورها الى الطرف الآخر وانشغل والدي بالحديث مع إحدى النساء ، فجلست عند الحافة وأسقطت قدمي في الماء البارد كالثلج رغم حرارة الصيف .

منـذ طفولتي ارى النهر في احلامي دائماً .. يجري ملتفاً وقاتماً مثل نهر غرادا أسفل جسر السكة الحديدية حيث تمتد جذور أشجار جار الماء والبتولا ، ثم تضيئه الشمس للحظات وعندما تختفي يعود اشد قتامة من قبل ويمضي بحركته الأزلية تجاه المنعطف .

كنا نذهب احياناً لنسبح قريباً من ضفة النهر وناخذ الطريق المنحدر من ڤارموس عبر بناء المحطة وطاحونة برغلوند ، وكنا نقفز الى الماء من طرف خشبي موثق الى الضفة باحكام ، وذات مرة وجدت نفسي أغوص تحت الطوف ولا اعرف كيف أعود الى السطح ، لكنني لم اشعر بالخوف وفتحت عيني فشاهدت الأعشاب المائية تتراقص أمامي وفقاعات الهواء تتصاعد من فمي والأسماك الصغيرة تتوارى بين الحجارة . بعد ذلك اذكر انني كنت ممدداً على الطوف اتقيأ ماءً ومخاطاً والجميع حولي يتحدثون بوقت واحد .

لكنني الآن اجلس على حافة المعدية ابرد أخمص قدمي واداوي لسعات البعوض . وفجاة رفعني احدهم من كتفي ودفعني إلى الخلف وهوى بضربة قوية على رأسي . ووجدت والدي يصيح غاضباً : « انت تعرف بأن هذا ممنوع ، الا ترى كيف يمكن ان تسقط إلى الأسفل » . وضربني من جديد . لم ابك لكنني امتلأت كراهيـة . هذا السفاح اللعين الذي يضرب دائماً . سوف اقتله . لن اصفح عنه ، وعندما نعود

إلى البيت سأفكر بموت مؤلم له وسوف يتوسل الرحمة وساسمعه يصرخ فزعــاً .

وصلنا الشباطىء ، وجرت العربات بعيداً ، وودع والدي الناس . كان يجد سهولة دائمة في التحدث إليهم . ابتسم الصبية بازدراء ومضوا واخذ الرجل العجوز يصعد المنحدر مع بقرته القذرة .

قال والدي بصوت ودود : « تعال الآن يابني » . لكنني لم اتحرك واشحت بوجهي وكدت ان أبكي بعد ان سمعت صوته الودود . اقترب مني قائلاً : « لابد انك رأيت كم كنت خائفاً عليك . كان يمكن أن تغرق دون أن ينتبه احد إليك » .

ومد يده الكبيرة يبحث عن يدي فزال غضبي ببرهة سريعة . لقد كان خائفاً . هذا مفهوم . إذا كنت خائفاً فسوف تغضب . أستطيع ان افهم هذا . إنه لطيف الآن . لقد ضربني بقسوة لكنه يشعر بالندم .

كان المنحــدر شديداً ، فساعدت والدي علــى دفــع الدراجــة إلى القمة وهناك كان الحر ينتصب مثل الجدار ولايوجد اثر لنسمة باردة.

دخلنا ساحة الكنيسة عندما كانوا يعلنون الساعة العاشرة تماماً . كانت ساحة الكنيسة مظللة وبعض النساء المتشحات بالسواد يسقين زهور الأضرحة . وكان الجو لطيفاً داخل الاروقة . لحق أمين الكنيسة الذي كان يقرع الأجراس بوالدي الى غرفة المقدسات حيث يوجد حمام وابريق ماء داخل الخزانة . نزع والدي قميصه واغتسل ، ثم ارتدى قميصاً نظيفاً وياقة ورداءه الكهنوتي وجلس إلى طاولة يكتب ارقام الاناشيد على ورقة . بعد ذلك قمت وامين الكنيسة بتوزيع الأرقام في الكنيسة دون أن يحدث احدنا الآخر اثناء هذه المهمة ، لأن الرقم الخاطىء كان يعني كارثة .

كنت اعرف ان والدي يود البقاء وحيداً بعض الوقت فخرجت إلى الساحة وقرأت الكتابات على الأضرحة في مقبرة الاطفال . كانت قبة السماء بيضاء والحرارة تتربص بلا حراك . ثمة نحل شديد الطنين . بعوضة . خوار بقرة . اشعر بالنعاس . اغفو لبرهة . أنام .



اثناء التحضير لفيلم (ضوء الشتاء) كنت اتجول في كنائس أوبسالا، وامضي فيها ساعات طويلة اراقب حركة الضوء بداخلها وافكر بنهاية الفيلم . كل شيء كان جاهزاً باستثناء النهاية .

ذات يوم ، وكان الاحد ، اتصلت بوالدي وسألته ان كان يرغب بالخروج معي ، فأمي كانت ترقد بالمستشفى بعدما داهمتها أزمة قلبية وبقي هو وحيداً في البيت وقد ساءت حالته الصحية واصبح يرتدي حذاءً طبياً مقوماً ويسير مستنداً إلى عكاز ، لكنه بقوة ارادته ونظامه الذاتي الصارم استمر بواجباته في ابرشية القصر الملكي ، ، وكان في الخامسة والسبعين .

كان صباحاً ربيعياً وضبابياً . وصلنا في الوقت المحدد الى كنيسة صغيرة تقع شمال أوبسالا ، ووجدنا اربعة اشخاص يجلسون امامنا على المقاعد الضيقة ينتظرون بدء الصلاة . كان امين الكنيسة وحامل الصولجان يتهامسان في الرواق ، وعازفة الاورغن في العلية تبحث عن شيء ما . تلاشى صوت الجرس الذي يدعو للاجتماع ولم يظهر الكاهن بعد . ساد صمت طويل ، وكان والدي يغمغم بقلق . مضت بضع دقائق، ثم سمعنا صوت سيارة مسرعة تتوقف خارجاً وصوت اغلاق الباب بعنف ، وشاهدنا الكاهن يدخل الكنيسة لاهثاً .

وعندما صعد الى المذبح تلفت حوله ونظر الى رعاياه بعينين حمراوين ، وكان رجلاً نحيلاً طويل الشعر . لوح بذراعيه كمن يتزحلق على الثلج

وسعل ، ثم قال : « انا مريض . حرارتي مرتفعة.ولدي رعشة ». وبحث عن تعاطف في أعيننا ، وتابع: « لدي اذن بأن تكون الصلاة قصيرة ولكن من دون المشاركة لهذا اليوم . ساعظ بافضل ما استطيع وسننشد اغنية وهذا كل شيء ، اما الآن فساذهب الى غرفة المقدسات واضع ردائي الكهنوتي » . وحدق للحظات دون أن يحسم ذهابه ، وكأنه ينتظر تصفيقاً او استحساناً أو دلائل استيعاب لكلماته . وعندما لم يجد ردة فعل من احد استدار واختفى وراء الباب الضخم .

نهض والدي عن مقعده . كان يشعر بالضيق . « دعني أمر ، يجب ان اتحدث الى هذا المخلوق » افسحت له المجال فمضى باتجاه غرفة المقدسات وهو يستند الى عكازه بصعوبة . بعد ذلك دار نقاش عنيف بالداخل .

ظهر امين الكنيسة ، وابتسم بحرج واوضح أن المشاركة ستكون بعد الصلاة ، وأن زميلاً مسناً سوف يساعد الكاهن .

انشدت عازفة الأورغن والحاضرون لحن المقدمة ، وخرج والدي برداء كهنوتي أبيض ، وعندما انتهى اللحن بدأ والدي يتحدث بصوت حر وهادىء .

وهكذا حصلت على نهاية فيلم (ضوء الشتاء) ، وعلى قاعدة مازلت اتبعها حتى اليوم : يجب ان تتمسك بمشاركتك بصرف النظر عن أي شيء . هذا مهم بالنسبة لرواد الكنيسة ، واكثر أهمية بالنسبة لك أنت .



نمت جيداً على المقعد الطويل المظلل ، وافقت على قرع الأجراس فتوجهت الى الكنيسة حافي القدمين ، حيث أمسكتني زوجة الكاهن ودفعتني لأجلس بجانبها تحت منبر الوعظ مباشرة رغم أنني كنت راغباً

بالصعود الى علية الاورغن . وفجأة شعرت برغبة للذهاب الى الحمام وادركت ان محنتي سوف تطول (ان صلوات الكنائس والمسرحيات السيئة تستمر اكثر من اي شيء آخر بالعالم ، واذا شعرت بأن الحياة تمضي بسرعة كبيرة فاذهب الى الكنيسة او المسرح . عندئذ سوف يتوقف الزمن وتظن أن ساعتك لا تعمل جيدا ، وكما يقول سترندبرغ في (العاصفة) : «ان الحياة قصيرة ، لكنها قد تكون طويلة اثناء استمرارها » .

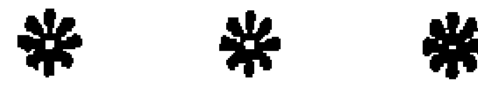
مثل كل رواد الكنيسة في كل العصور استغرقتني تفاصيل المذبح والالواح الثلاثية والصليب وزجاج النوافذ الملون واللوحات الجدارية التي أرى فيها المسيح والعذاب ومريم والقديس يوحنا ومريم المجدلية، والفارس يلعب الشطرنج مع الموت ، والموت ينشر شجرة الحياة وساحر شرير يفرك يده . الموت يقود الرقصة الى أرض الظلمات ويستخدم منجله كالراية ، ورعايا الكنيسة يقفون في طابور طويل والشياطين تترك قدور الماء تغلي ، والخاطئون يندفعون الى الأعماق ، وآدم وحواء يغطيان عورتيهما . لا وجود لبقعة خالية في الكنيسة ، فالناس يملؤونها ، والقديسون والأنبياء والملائكة والشياطين ، كلهم أحياء يلمعون على الجداريات . الواقع والخيال ينبثقان في صنع أسطوري قوي .

عندما عملت مدرسا في مدرسة مالمو للدراما كان يجب أن نقدم عرضا لكننا لم نعرف ما هو ، وعندئذ فكرت بتلك الجداريات التي رأيتها في طفولتي ، وخلال أيام كتبت مسرحية بعنوان (الرسم على الخشب) ووجدت فيها دورا لكل طالب .

وبالتدريج تحولت : (الرسم على الخشب) الى (الختم السابع) ، وهو فيلم متفاوت المستوى لكنه قريب الى قلبي لأنني أخرجته في ظروف صعبة ومع دفق من الحيوية والبهجة ، ويستطيع المشاهد ان يلمح في مشهد الغابة السوداء حيث تُعدم الساحرة ، من بين الأشجار ، النوافذ

العالية لضاحية قريبة من الاستوديو ، أما مشهد موكب الضاربين انفسهم بالسوط فتم تصويره في موقع مهجور شيدت عليه فيما بعد معامل التحميض التابعة للاستوديو .

لقد صورنا لقطة رقصة الموت تحت الغيوم المظلمة بسرعة عجيبة لان يوم العمل قد انتهى بالنسبة للممثلين ، فارتدى المساعدون والفنيون والماكيير ، بالاضافة الى زائرين لم يفهما أبدا ماذا كنا نفعل ، ملابس المحكومين بالموت ، ونصبت الكاميرا وصورت اللقطة قبل أن تتبدد الغيوم .



لم اكن اجرؤ على النوم ابدا أثناء مواعظ والدي في الكنيسة . كان يرى كل شيء . وحدث ذات مرة أن نام أحد اصدقاء العائلة أثناء صلاة الصباح في كنيسة مستشفى صوفيا همت ، فأوقف والدي طقوسه وناداه بوضوح وهدوء ، « استيقظ يا اينار ، ان الذي سيأتي له علاقة بك » ، ثم تحدث عن موضوع الأخير الذي يصبح الأول . وكان العم اينار موظفا في ارشيف وزارة الخارجية ويطمح لاستلام منصب أعلى .

بعد انتهاء الصلاة قدمت القهوة في بيت الكاهن الذي كان له ابن سمين ذو شعر أصفر في مثل سني ، اسمه أوسكار ، وكان مثيرا للقرف لاصابته بالاكزيما في فروة رأسه وتفوح منه رائحة مبيد للحشرات . صعدنا الى غرفة نومه التي حولها الى كنيسة فيها مذبح وأعمدة شموع وصليب وقماش ملون ملصق على النوافذ وزاوية للأورغن ، خيرني اوسكار بين سماع موعظة او لعب جنازة حيث كان يحتفظ بنعش طفل صغير في خزانة الثياب ، فقلت له انني لا أؤمن بالله ، فحك رأسه وقال ان وجود الله مثبت علميا ، وسرعان ما تشاجرنا ، وكان أقوى مني فأمسك بذراعي ولواها وطالبني بالاعتراف بوجود الله . احجمت عن

طلب المساعدة ، فمن المحتمل أن يكون أوسكار مجنونا ولا يمكن التنبؤ بما سيفعل ، واعترفت بسرعة انني أؤمن بوجود الله .

بعد اعترافي جلس كل منا عابسا في احدى زوايا الغرفة ، ثم قلنا وداعا وافترقنا . كان والدي قد حزم رداءه وأمتعته وارتدى قبعته استعدادا لرحلة العودة . أراد الكاهن وزوجته أن نبقى حتى تمر العاصفة فالشمس على حافة غيمة كثيفة ، ولكنها لا تزال مشمسة والحرارة تزداد مع اقتراب المطر . ابتسم والدي وشكرهما مؤكداً بأننا سنجتاز العاصفة ولا بأس بقليل من المطر المنعش . ضمتني زوجة الكاهن الى بطنها وكانت تفوح منها رائحة العرق ، وصافحني الكاهن ، أما أوسكار فلم يكن له أثر في المكان .

واخيرا قفلنا عائدين . لم نقل شيئا لكنني شعرت بأن والدي كان مرتاحا ، يردد لحنا ويقود الدراجة بسرعة .

وعندما اجتزنا المنعطف المؤدي الى جوبتارن اقترح والدي أن نسبح قليلا ، وكانت فكرة جيدة ، فاستدرنا الى طريق صغير ومضينا باتجاه النهر .

نزعنا ثيابنا والقى والدي نفسه بالماء واخذ يسبح ويلهث ، أما انا فكنت حذرا وبقيت قريبا من الشاطىء ، فعمق النهر هنا بلا قرار .

بعدها جلسنا على الشاطىء نجفف أنفسنا بحرارة الشمس الحارقة ، والحشرات الطائرة تطوف حولنا . كان لوالدي كتفان عريضان وصدر مرتفع وساقان طويلتان وقويتان وقضيب كبير ، وجلد بلا شعر تقريبا . جلست بين ركبتيه كما جلس المسيح مستندا الى الصليب ، ولمحت وردة أرجوانية اللون وسألته عن اسمها فقد كان يعرف كل شيء عن الورود والعصافير .

وعلى الرغم من تناولنا للطعام بوفرة في بيت الكاهن ، فقد أتينا على الشطائر التي كانت بحوزتنا .

بدأ الظلام يخيم تدريجيا ، وقامت مجموعة دبابير بهجمات سريعة على بقايا الشطائر ، ثم تكاثرت وتجمعت بحلقـات فوق سطح المـاء واختفت .

قررنا أن نتابع الطريق ..



عندما ترمل والدي اعتدت أن أذهب لزيارته واتحدث اليه . وذات يوم كنت جالسا مع مشرف البيت أعالج معه بعض الأمور العملية ، فسمعنا صوت والدي وهو يجرجر قدميه في الممر ويدق الباب ويدخل الغرفة ويحدق في الضوء الباهر وقد استيقظ من النوم لتوه . نظر الينا بدهشة ثم سألنا : « ألم تعد كارين بعد ؟ » . وفي اللحظة نفسها أدرك التشويش المؤلم الذي أصابه فابتسم بحرج . كانت أمي قد توفيت منذ اربع سنوات وقد جعل نفسه يبدو أحمق بالسؤال عنها ، وقبل أن يجيبه احد منا بكلمة واحدة لوح بعصاه وعاد الى غرفته .

كتبت في دفتر يومياتي : « ٢٢ نيسـان ١٩٧٠ ، والدي يحتضر . ذهبت لرؤيته أمس الأحد في مستشفى صوفيا همت فوجدته نائمـا يشخر، وبجانبه اديت التي لا تفارقه ابداً. أيقظته اديت وغادرت الغرفة. همس بشيء ما ، وكان مستحيلا أن أفهم كلماته ، وافترضت أنه مضطرب قليلا ، وكنت ارى التحولات السريعـة التي تطرأ على تعابير عينيه : التحدي والتساؤل ، نفاد الصبر والخوف ومحاولة للتواصل . وعندما نهضت لاغادر امسك بيدي فجأة وتحدث بصوت غير واضح . كان يقرأ شيئا وادركت انها المباركة . والد محتضر يدعو الله ليبارك ابنه ! كل شيء حدث بسرعة ودون توقع . » .

« ٢٥ نيسـان ١٩٧٠ ، والدي لا يزال على قيد الحياة لكنه غائب عن الوعي تماما ، وقلبه القوي لا يزال ينبض . اديت تعتقد بأنها تتواصل

معه بواسطة اليدين . تتحدث اليه فيرد عليها من خلال يده .. الأمر غامض ومؤثر . انهما صديقان منذ الطفولة » .

« ٢٩ نيسان ١٩٧٠ ، مات والدي . رحل في الساعة الثامنة واربع دقائق من مساء يوم الأحد . كان موته هادئاً . وانتابني احساس يصعب تفسيره عندما رايت وجهه ولم أتعرف اليه . كان وجه الموت . أفكر به من مسافة بعيدة يائسة ، ولكن بحنان . الأموز سيئة اليوم بالنسبة لبرغمان . أتوق الى أحد يلمسني ويباركني . الأمور سيئة اليوم ، لست أنا الذي اشعر بالمرض ــ بالعكس ــ انها روحي .. » .



عندما خرجنا من غابة البتولا الى الحقول العريضة المنبسطة ،شاهدنا الشمس تضيء التلال . قلت لوالدي : « يجب أن نطوف العالم هكذا ، أنا وانت » ، فضحك واعطاني قبعته لامسكها . كنا في مزاج رائق . هبت العاصفة أثناء صعودنا الهضبة باتجاه قرية مهجورة ، وخلال دقيقة تقريباً اشتدت العاصفة واخذ البرق يلتمع في السماء المظلمة وتحول الرعد الى هدير مستمر وحبات المطر الى كتل ثلجية قاسية . أسرعنا الى أقرب مزرعة مهجورة واختبانا في مخزن للتبن .

جلسنا على عارضة كبيرة نتأمل الطقس بالخارج ، عبر الباب المفتوح ضرب البرق شجرة بتولا مرتين وبدأ الدخان يتصاعد من جذعها، واهتزت الأرض نتيجة الرعد المتواصل . جلست متكوماً عند ركبتي والدي . فاجبته بانني لست خائفاً ، وفكرت بانه ربما كان يوم القيامة حيث تنفخ الملائكة ابواقها وتهوي النجوم في البحر . كنت أنكر وجود الله واعتقد أن العقاب لن ينالني لأن الله والمسيح الى جانبه ، سيران انني مختبىء .

اصبح عصف الريح اكثر شدة وبرودة وبدات اسناني تصطك من البرد ، فنزع والدي سترته ولفني بها . كانت مبللة قليلاً لكنها دافئة

بدفء والدي . توقفت العاصفة واستمر المطر وأخذ ضياء النهار الرمادي يتقلب كما في ساعة الغروب دون شمس .

ـ . وتابعنا الطريق وكانت امامنا مسافة طويلة قبل بلوغ المنزل ، رغم ان الساعة قد تجاوزت موعد العشاء . كانت قيادة الدراجة صعبة وسط الدروب الموحلة ، وفجأة انزلقت الدراجة فسحبت ساقي بسرعة وتدحرجت على منحدر عشبي بسيط ، اما والدي فوقع على الطريق ، فنهضت ونظرت اليه كان يرقد بلا حراك وساقه محشورة تحت الدراجة، وعندئذ خيل الي ان والدي مات .

بعد لحظة أدار وجهه وسألني اذا ما أصبت بضرر ، ثم ضحك ضحكته العادية والمبتهجة ، ونهض ورفع الدراجة ، وكان خده قد جرح قليلاً وبدأ ينزف . كنا متسخين تماماً والمطر لايزال يتساقط فتابعنا السير ووالدي يضحك بين الحين والآخر وكأنه تحرر من امر ما .

دق والدي باب مزرعة صادفناها قبل الوصول الى المعدية ، وسأل صاحبها العجوز أن يسمح له باستخدام الهاتف ، لكن العجوز أجاب بأن العاصفة قد قطعت الخطوط، ودعتنا زوجته للدخول واحتساء القهوة، ثم اصرت أن أغير ثيابي واحضرت لي سروالاً داخلياً من الكتان الخشن وسترة صوفية محبوكة باليد وجوارب صوفية سميكة . في البدء رفضت ان ارتدي ثياب العجوز لكن نظرة صارمة من والدي جعلتني اطيعها حتى النهاية . واستعار والدي بدوره بنطالاً من الرجل العجوز وارتدى صدرية جلدية قديمة فوق ردائه الكهنوتي ، واعد العجوز لنا عربة مغطاة، ووصلنا فارموس عند الغروب .

وهناك ضحك الجميع من منظرنا .

في الأمسية نفسها طار شقيقي واثنان من رفاقه بواسطة بساط الريح وحلقوا فوق الغابة ، بعد أن امرني شقيقي بأن التزم فراشي ولا اتحرك .

لم يكن بوسعي أن أطير معهم لأنني كنت صغيراً ، بالاضافة الى أن البساط السحري لا يتحمل اكثر من ثلاثة أشخاص . في البداية سمعت صوت حديثهم الخافت وضحكاتهم المكتومة عبر الباب النصف مفتوح ، وكان الرعد يقصف فيمكان بعيد والمطر يتساقط على السطح ، وتضاء الغرفة بومضات من البرق .

بعد ذلك سمعتهم يفتحون النافذة ويلقون البساط السحرى على رواق السطح ويصعدون اليه . تعصف الريح بالبيت فتهتز الجدران وينهمر المطر بغزارة أكثر . لم أستطع أن أتمالك نفسي فهرعت الى الغرفة المجاورة حيث كانوا ينامون ، فوجدتها خالية وقد اختفت السجادة ، والنافذة مشرعة لليل والريح .

في صباح اليوم التالي كانوا متعبين وصامتين ، واثناء تناول الافطار مع العائلة حاولت أن أشير الى موضوع رحلتهم الطائرة ، لكن شقيقي أسكتني بنظراته المتوعدة .



كنت جالساً في كنيسة هيدفغ اليانورا بعد ظهيرة يوم احد في شهر كانون الاول ، استمع الى موشحة باخ الدينية لعيد الميلاد . كان الثلج يتساقط بهدوء ، وفجاة أشرقت الشمس .

توهجت النوافذ الملونة للحظات ، وسقطت حزم الضوء من أعلى القبة وتحرك الكورس بثقة عبر الكنيسة . ان تقوى باخ تشفي عذاباتنا .

برد الطقس ولم تضيء مصابيح الشارع بعد وكان الثلج يخشخش تحت الاقدام والبخار يتصاعد مع انفاسي . برد قارص حل قبل أوانه ، ولا تزال صورة الكورس تطوف بمخيلتي .

عبرت حي شتور غاتن الهادىء يوم الاحد ، واثر خاطرة سريعة دخلت الى بيت الكاهن الذي تفوح منه رائحة المنظفات والقداسة ، تماماً كما كان قبل خمسين عاماً .

كانت الشقة واسعة غارقة بالصمت ، ضياء متسلل من الخارج يتحرك على سقف الصالون ومصباح مكتبي يشع من غرفة نوم أمي ، أما غرفة الطعام فكانت معتمة ، ويعبر أحدهم بسرعة الى حجرة المؤن واسمع أصواتاً خافتة من بعيد ، أصوات نسائية ، وضجـة الملاعـق والصحون الخفيفة . انه موعد قهوة المساء في المطبخ .

انزع معطفي وحذائي وأسير على الارضية الخشبية الملمعة حديثاً . أمي جالسة الى مقعدها وقد وضعت نظاراتها . شعرها غير مرتب ولم يبيض بعد، تنحني على دفتر مذكراتها وتكتب بقلم رفيع.أصابعها قصيرة

وقوية ، يزينها خاتم الزفاف الثقيل وخاتم آخر بجوهرة لامعة . أظافرها قصيرة وبشرتها بلا عناية .

تلتفت بسرعة وتلمحني . (كم اتوق الى هذه اللحظة . منذ أن توفيت أمي وأنا أتوق اليها) . تبتسم بشكلية وتغلق دفترها وتنزع نظاراتها . اقبل جبهتها ، والشامة البنية فوق عينها اليسرى .

« أعرف انني اضايقك ، فهذا وقتك الخاص ، والدي يستريح قبل العشاء وأمي تقرأ او تكتب في غرفتها . لقد كنت لتوي في الكنيسة واستمعت لاحدى موشحات باخ الدينية . كانت جميلة ، والضوء كان جميلا ، وقلت لنفسي : سوف احاول ، ربما أنجح هذه المرة » .

تبتسم امي بشيء من التهكم كما اعتقد . اعرف بماذا تفكر ! انت تمر بهذا الحي كل يوم في طريقك للمسرح ونادراً ما يخطر ببالك أن تأتي لرؤيتنا . كلا ، لم يكن يخطر ببالي .

وتنهض أمي وتسير بسرعة (خطواتها سريعة دائماً) ، تغادر الغرفة وتختفي في عتمة غرفة الطعام ، ثم أسمع همهمة ، وأراها تضيء مصباح الطاولة المستديرة وتعود الى الغرفة وتستلقي على السرير وتتدثر بشالها الازرق .

وتقول معتذرة : « ما زلت متعبة » .

« أريد أن أسأل أمي عن أمر هام ، فمنذ سنوات كنت جالساً في مكتبي بفارو ، وكانت السماء تمطر مطراً صيفياً هادئاً لم نعد نرى مثيلا له هذه الايام . كنت اقرأ وانصت الى صوت المطر ، واحسست فجأة بأن أمي كانت قريبة مني وبوسعي إن امسك بيدها واضمها الي ، لم أكن أحلم بذلك . كنت عرف أن امي معي في الغرفة ، او ربما خيل الي ذلك ! لا استطيع ان اجزم بالأمر ، لذلك اريد أن اسألك يا امي » .

وتجيب بصوت هادىء : « بالتأكيد لست أنا . ما زلت متعبة . هل انت متأكد من أنها لم تكن شخصاً آخر ؟ » .

أهز رأسي ، احساس بالقنوط والاثم .

« لقد أصبحنا أصدقاء ، السنا كذلك ؟ انتهينا من توزيع الادوار القديم ، الام والابن ، وأصبحنا أصدقاء ، نتحدث بصراحة ومودة . السنا كذلك ؟ ألم تصبح الحياة مفهومة ؟ الا اقترب قليلا من الفهم ؟ لا أعتقد انني جالس هنا مضطرباً يقرعني ضميري . ليس الوضع هكذا أبداً. ولكن الصداقة؟ الحب؟ أعرف أننا لا نستخدم هذا التعبير في أسرتنا فوالدي يتحدث دائماً عن حب الله في الكنيسة ، ولكن ماذا عن المنزل ؟ كيف كان يبدو الحب بالنسبة لنا ؟ كيف انتهينا الى قلوب محطمة مشبعة بالكراهية ؟ » .

« تحدث مع أحد آخر حول هذا ، فأنا متعبة » .

« مع من ؟ لا أستطيع أن احدث نفسي . امي متعبة الآن ، وأنا أيضاً اشعر بالتعب في أعصابي واحشائي . وتقول امي : « يجب أن تتسلى قليلا ، اذهب والهو بالعابك الجديدة . لا اريد أن تلاطفني ، أنت تبدو كالفتاة عندما تلاطفني » .

وتشيح بوجهها ، وتحدق بضوء المصباح .

« لقد أخذنا أقنعة عوضاً عن الوجوه ، وهيستريا عوضاً عن المشاعر والخجل والاحساس بالذنب عوضاً عن الحب والتسامح » .

نظرتها كئيبة وساكنة ، وعيناها لا تطرفان أبداً .

« لماذا أصبح شقيقي عاجزاً ؟ لماذا انهارت شقيقتي ؟ لماذا عشت مع داء لا يشفى أبداً ؟ لا أريد أن الوم ، كما أنني لا استرد أية ديون ، اريد

ان أعرف فقط لماذا بات بؤسنا مرعباً الى هذا الحد وراء صيتنا الاجتماعي الهش ؟ لماذا ابتلى شقيقي وشقيقتي رغم كل العناية والدعم والثقة ؟ لماذا لم أكن قادراً على علاقة انسانية طبيعية لمدة طويلة من الزمن ؟ » .

وتنهض أمي وتتنهد بعمق ، والمح الضماد الصغير يلف أصبعها ، ثم تزدرد لعدة مرات .

« لدي مخزون هائل من التفسيرات لكل احساس وكل لحظة وكل توعك جسدي . لقد اندفعت الى هاوية الحياة : انها كلمات ذات وقع رائع ، الاندفاع الى هاوية الحياة ، لكن الهاوية حقيقية وسحيقة وبلا قرار فالانسان لا يقتل نفسه في وهد صغير أو مياه ضحلة . استغيث بامي كما كنت أفعل دائماً ، وانا محموم في الليل ، عائد من المدرسة ، اهرع من المستشفى والاشباح تطاردني ، ابحث عن يد امي في تلك الامسية الماطرة بفارو . لا أعرف . لا أعرف شيئاً على الاطلاق . الى أين نحن ذاهبان ؟ ان ننجح .. نعم هذه حقيقة مؤكدة ، فأنا أعاني من ضغط دم مرتفع ، و قد حدث لي هذا في وقت المذلة والاهانة . انني أسمع عويل شخص ما ، أعتقد انه عويلي .

يجب ان اهدأ وأسيطر على نفسي ، فاللقاء لم يستمر على النحو الذي تخيلته . كان يجب أن نكون أقل كآبة ونتحدث بهدوء عن هذه الاسرار الغامضة . كان يجب أن تسمعي وتفسري ، وكان يجب أن يصوغ كل شيء نفسه بهدوء وكمال كما في كورس باخ . لماذا لم نستخدم أبداً تعبير « بفضل أبي وأمي » ؟ ولماذا كنا مضطرين لان نخاطبهما دائما بلغة قواعدية سخيفة ؟ » .

عثرنا على يوميات أمي في خزانة الودائع ، وبعد موتها كان والدي يجلس كل يوم ويستعين بالعدسة المكبرة لقراءة خطها . وشيئاً فشيئاً

ادرك انه لم يعرف أبداً تلك المرأة التي تزوجها خمسين عاماً . لماذا لم تحرق أمي يومياتها ؟ ربما تركتها كعقاب مخطط له ؟

لماذا كنا نتشاجر ؟ لماذا كل هذه الدموع والانفجارات الغاضبة ؟ لا أستطيع ان أتذكر السبب باستثناء آخرة مرة تشاجرنا فيها عندما كان والدي بالمستشفى ؟ أذكر عندما تصالحنا والاحساس الرائع بالراحة .

* * *

منذ سنوات صورت فيلما عن وجه أمي بواسطة كاميرا من قياس ٨ مم وبعض العدسات الخاصة . فعندما توفي والدي سرقت البومات العائلة ووجدت بحوزتي مادة معتبرة . وهكذا كان الفيلم عن وجه أمي ، وجه كارين ، من الصورة الاولى عندما كانت في الثالثة والى الصورة الاخيرة التي التقطت لجواز سفرها قبل أشهر قليلة من وفاتها .

يوماً بعد يوم قمت بدراسة مئات الصور بواسطة عدسات مختلفة .. ها هي طالبة مع صديقاتها في مدرسة العمة روزا . انه العام ١٨٩٠ ، ترتدي قميصا أبيض روسي الطراز وكأنها احدى فتيات تشيخوف الغامضات . ممرضة شابة في الزي الخاص بها ، امرأة ذات كفاءة عالية ، تملؤها الثقة والاصرار . صور الخطوبة التي التقطت عام ١٩١٢ في أورسا ، الخطيب يجلس الى الطاولة بردائه الكهنوتي الأول يقرأ كتابا والخطيبة تجلس الى الطاولة نفسها تطرز قطعة ثياب ، وتنحني الى الامام قليلا وتنظر الى الكاميرا . الصورة التالية مؤثرة ، وفيها تجلس على مقعد طويل وامامها كلب ضخم ، وتضحك بفرح (وهي احدى الصور القليلة التي تضحك فيها أمي) . انها حرة ، متزوجة حديثا .

الحمل الأول ، امي تنحني باستسلام على كتفي والدي وهو يبتسم بفخر ، فمها ذائل وكانما حصل ذلك من كثرة القبل ، ووجهها ناعم ومنشرح .

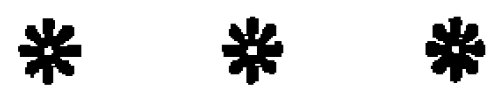
ثم تأتي صور استوكهولم ، الزوجان في شقتهما الجديدة بحي اوستر مالم الهادىء ، يرتديان ثيابا انيقة ويبتسمان شكليا بعد أن تقبل كل منهما دوره وبدأ يؤديه بحماس .

صورة اخرى لامي وهي تضحك . إنها جالسة على درجات الشرفة بفارموس وانا في حضنها ، وربما كنت وقتها في الرابعة ، وشقيقي في الثامنة يقف بعيدا ، ترتدي معطفا قطنيا أبيض وحذاء عاليا رغم حرارة الصيف . انها تضمني بقوة وتشبك يديها على بطني . يداها قصيرتان وقويتان ، اظافرها مقصوصة . واكثر ما اذكر في يدها خط الحياة العميق ، هذه اليد الناعمة ، شبكة من العروق ، تفوح بروائح الازهار والاطفال والمسؤولية والحرص والقوة والحنان والواجب .

تابعت مشاهدة الصور وشيئا فشيئا بدأ ينحسر وجود أمي في صور العائلة . كانت قد أجريت لها عملية جراحية واستئصل رحمها ومبيضاها ، إنها تحدق بوهن ، وابتسامتها لم تعد تصل الى عينيها. مزيد من الصور ، تبدو مرهقة وربما غاضبة ، لقد بقيت وحيدة مع والدي بعدما رحل عنهما جميع الابناء والاحفاد .

واخيرا تأتي صورة جواز السفر . كانت امي تحب السفر والمسارح والكتب والافلام والناس ، أما والدي فكان يكره السفر والزيارات غير المتوقعة والغرباء.ازداد مرضه سوءاً واصبح محرجاً بسبب تلعثمه واهتزاز راسه وصعوبات السير ، وأصبحت امي مقيده به . كانت تزور ايطاليا باستمرار حتى انتهت صلاحية جواز سفرها فتطلب الامر جوازا جديدا لتزور ابنتها وزوجها في انكلترا ، والتقطت صورة لجواز السفر،

ثم تعرضت أمي لنوبتين قلبيتين ، وتبدو في آخر صورة لها وكأن ريحا ثلجية مرت أمام وجهها فجزأت ملامحها الى أقسام ، غارت عيناها ، ولم يعد باستطاعتها ان تقرأ بعد وهي الشغوفة بالمطالعة ، وافتقر قلبها الى الدم الكافي ، ومشطت شعرها الرمادي الى الخلف وابتسمت على عجل .. يجب أن يبتسم المرء أمام الكاميرا . كانت بشرة خديها منتفخة تتقاطع فيها التجاعيد والأخاديد ، وقد جفت شفتاها .



وهكذا ذهبت الى كنيسة هيدفغ الياتورا في مساء يوم الاحد مع حلول البرد ، وشاهدت انعكاسات الضوء على القبب ، ثم صعدت ثلاثة طوابق الى الشقة ووجدت أمي منكبة على يومياتها واذنت لي ان أتحدث معها قليلا .

لكنني سرعان ما أصبحت متناقضا وبدات أسأل عن أشياء اعتقدت انها ماتت ودفنت .

ادعوها للحساب وأوجه الاتهام اليها ، فتتحدث أمي عن تعبها ، وهذا ما كانت تفعله في الفترة الاخيرة ، لقد هزلت واصبحت شبه مرئية . يجب أن افكر بما هو موجود عندي وليس بما هو غير موجود أو لم يوجد قط .

في لحظة سريعة ، اسبر غور آلامها عندما واجهت اخفاقا في حياتها . لم تكن مؤمنة ، وكانت قوية لتحمل اللوم حتى وإن لم تكن مشاركة بما يستحق اللوم . لقد كشفت بصيرتها عن كارثة حياتها .

وها انا الآن اجلس في مقعدها واتهمها بجرائم لم تقترفها ، واطرح عليها اسئلة لا اجوبة لها ، واغرق ببحثي في تفاصيل التفاصيل .

واسأل بعناد كيف ولماذا ، وفي برهة سريعة تومض البصيرة واعتقد انني وجدت اثرا لقوة جدتي الباردة وراء مأساة والدي . فعندما كانت جدتي امرأة شابة تزوجها رجل عجوز له ثلاثة أبناء لا يصغرونها كثيرا. كان زواجا قصير الأمد ، وتوفي الزوج تاركا وراءه زوجة وخمسة أبناء. فما الذي اضطرت الى قمعه وتدميره ؟

ربما تكون الاجابة سهلة لكن الغموض باق ، وأستطيع أن أرى بوضوح ان عائلتنا كانت تتألف من اشخاص طيبي الارادة والنوايا ، لكنهم يحملون موروثا كارثيا من الضمير المعذب والواجبات المسندة اليهم .

أبحث في يوميات أمي عن شهر تموز عام ١٩١٨ ، فأجدها كتبت :

« كنت متعبة خلال الاسابيع الماضية ولم استطع أن اكتب . لقد اصيب اريك بالانفلونزا الاسبانية للمرة الثانية ، وولد ابننا في صباح الاحد ١٤ تموز ، وعندي بحرارة مرتفعة واسهال قوي . انه يبدو مثل هيكل عظمي وله انف احمر كبير ، ويرفض بعناد ان يفتح عينيه ، وبعد أيام من ولادته نفد حليبي بسبب المرض وعمدناه في المستشفى بحالة طارئة ، اسمه انغمار . وقد أخذته امي الى ڤارموس لترعاه ممرضة مختصة . إن امي قاسية جدا تجاه عجز اريك عن معالجة بعض شؤوننا العملية ، وهو بالمقابل يرفض تدخلها في حياتنا الخاصة . أرقد الآن ضعيفة وبائسة ، وأحيانا عندما أكون وحيدة أبكي . اذا مات الرضيع فسوف تطلب امي ان تأخذ داغ وان أعود الى عملي ثانية . تريدني أن انفصل عن اريك في أسرع وقت ممكن قبل أن تدفعه كراهيته الجنونية لشيء خطير . لا اعتقد انني أملك الحق بالتخلي عن اريك . لقد أمضى الربيع الاخير مجهدا وقلقا ، وامي تقول انه يدعي كل ذلك ، لكنني لا أصدقها. ادعو الى الله دون إيمان . يجب على المرء ان يتدبر شؤونه وحده وبأفضل ما يستطيع » .

فاور ١٩٨٦/٩/٢٥

انغمـار برغمـان

(وقائع حياته واعماله)

اعدها : بيتر كوي

١٩١٨ ــ ولادة انغمار برغمان في ١٤ تموز بأوبسالا ، السويد . والده اريك ، (راعي ابرشية هيدفغ اليانورا) ، وامه كارين .

١٩٢٠ ــ العائلة تنتقل الى اوستر مالم باستوكهولم .

١٩٢٢ ــ ولادة شقيقته مارغريتا .

١٩٢٤ ــ تعيين والده قسيسا في المستشفى الملكي ، صوفياهمت .

١٩٣٤ ــ تعيين والده كاهنا في ابرشية هيدفغ اليانورا .

ــ التحاق انغمار بمدرسة بالمغرني بأوستر مالم (وهذه الفترة تشكل قاعدة لفيلم (النوبة)) .

ــ يمضي شـهرا من اجازته الصيفية في تورنيفيا بالمانيا ، وفي طريق عودته للسويد يزور برلين للمرة الأولى .

١٩٣٧ ــ ينال الشهادة الثانوية .

١٩٣٨ ــ يلتحـق لمـدة قصـيرة بالخدمـة العسكرية الالزاميـة في شتراغناس .

ــ [أيار] يخرج مسرحياته الأولى في ماستر ــ أولفسغاردن :

(الحد الخارجي) لڤان ، (رحلة بيتر السعيد) لسترندبرغ، (الطائر الأزرق) لمترلينك ، (المعلم أولف) لسترندبرغ .

١٩٣٩ ــ يفشل بالحصول على عمل في مسرح الدراما الملكي باستوكهولم، ويعمل مساعدا للانتاج في أوبرا استوكهولم .

١٩٤٠ ــ يغادر جامعة استوكهولم .

ــ يخرج (ماكبث) لشكسبير في الماستر ــ أولفسفاردن باستوكهولم .

ــ (البجعة) لسترندبرغ في مسرح الطلاب باستوكهولم .

١٩٤١ ــ (حلم ليلة صيف) لشكسبير في مركز استوكهولم المدني .

ــ (سوناتا الاشباح)لسترندبرغ في مركز استوكهولم المدني .

١٩٤٢ ــ تعيين كارل اندرس ديملنغ مديرا لشركة سفنسك فيلم .

ــ [أيار] : (بيبو المهرج) لإلزا فيشر في حديقة الشعب باستوكهولم .

ــ [أيلول] : (موت المثقب) ، مسرحية من تاليفه ، في مسرح الطلاب .

ــ تدعوه ستينا برغمان للعمل في سفنسك فيلم .

١٩٤٣ ــ [كانون الثاني] : يبدأ عمله في قسم السيناريو بسفنسك فيلم

ــ [آذار] : يتزوج الزا فيشر .

ــ (تيڤولي) لهيلمار برغمان في مسرح الطلاب باستوكهولم .

ـ (قبل أن يستيقظ المرء) لبنغت أولوف فوس في مسرح الطلاب
ـ (من أنا ؟) لكارل اريك سويا في مسرح الطلاب .

ـ (أوبوت ٣٩) لردولف فارلوند في استوديو الكاتب المسرحي باستوكهولم .

ـ (نلز ايبسن) لكاي مونك في استوديو الكاتب المسرحي باستوكهولم .

ـ [كانون الاول] : ولادة ابنته لينا .

١٩٤٤ ـ [شباط ـ ايار] : آلف سيوبرغ يخرج فيلم (النوبة) عن سيناريو لبرغمان .

ـ (بيت اللعب) لهيلمار برغمان في استوديو الكاتب المسرحي باستوكهولم .

ـ (حضور السيد سليمن) لهيلمار برغمان في استوديو الكاتب المسرحي باستوكهولم .

ـ [نيسان] : يعين مديرا لمسرح مدينة هيلسنبورغ .

ـ [ايلول] : (الليدي اشبرغ) لبريتافون هورن والزاكولين في مسرح هيلسنبورغ .

ـ [تشرين الاول] : (من أنا ؟) لكارل اريك سويا في مسرح هيلسنبورغ ، افتتاح فيلم (النوبة) .

ـ [تشرين الثاني] : (ماكبث) لشكسبير في مسرح هيلسنبورغ

١٩٤٥ ـ [شباط] : (سكابن ، بيمبل وكاسبر) مسرحية من تأليفه

في مسرح هيلسنبورغ . (القصة البطولية) لهيلمار برغمان ، مسرح هيلسنبورغ .

ـ [نيسان] : (الاخلاق تتراجع) لشون بيرغستروم ، مسرح هيلسنبورغ .

ـ (تموز) : يبدأ تصوير فيلم (أزمة) .

ـ [تشرين الثاني] : (البجعة) استرندبرغ ، مسرح مدينة مالمو
ـ يطلّق الز فيشر ، ويتزوج هيلين لوند ستروم .

ـ ولادة ابنته ايفا .

١٩٤٦ ـ [شباط] : افتتاح فيلم (ازمة) .

ـ [آذار] : (القداس) لبيورن ـ اريك هدير ، مسرح هيلسنبورغ .

ـ يلتحق بلورانس مارمستدت في تيرا فيلم .

ـ يصور فيلم (انها تمطر على حبنا) .

ـ [ايلول] : (بواب المسرح) مسرحية من تأليفه ، مسرح مالمو

ـ يلتحق بالعمل كمخرج في مسرح مدينة غوتنبرغ .

ـ [تشرين الثاني] : (كاليغولا) لالبير كامو ، مسرح غوتنبرغ افتتاح فيلم (انها تمطر على حبنا) .

ـ ولادة ابنه جان .

١٩٤٧ ـ يكتب سيناريو (امراة بلا وجه) ويخرجه غوستاف مولاندر

ـ يكتب مسرحية (جلك بين الممثلين) .

ـ [كانون الاول] (اليوم ينتهي باكرا) مسرحية من تأليفه ؛ مسرح غوتنبرغ .

ـ [آذار] : (السحر) لشسترتون ، مسرح غوتنبرغ .

ـ يخرج للاذاعة مسرحيتين لسترندبرغ (اللعب بالنار) و (الهولندي) .

ـ يصور فيلم (ارض الرغبات) .

ـ [ايلول] : افتتاح فيلم (أرض الرغبات) .

ـ [تشرين الاول] : (من شدة رعبي) مسرحية من تأليفه ، مسرح غوتنبرغ .

ـ يصور فيلم (موسيقا في الظلام) .

١٩٤٨ ـ ولادة التوءمين آنا وماتس .

ـ [كانون الثاني] : افتتاح فيلم (موسيقا في الظلام) .

ـ [شباط] : (الرقص على الرصيف) لبيورن ـ اريك هوير مسرح غوتنبرغ .

ـ [آذار] : (ماكبث) لشكسبير ، مسرح غوتنبرغ .

ـ يصور فيلم (مرفأ النداء) .

ـ [ايلول] : (لصوص الكرنفال) لجين انويل ، مسرح غوتنبرغ

ـ يتعاون في كتابة سيناريو (ايفا) ، اخراج غوستاف مولاندر

ـ [تشرين الاول] : افتتاح فيلم (مرفأ النداء) .

ـ [تشرين الثاني] : يصور فيلم (السجن) .

يخرج للاذاعة (حب الام) لسترندبرغ .

ـ [كانون الاول] : (رسم الفراغ) ، مسرحية من تأليفه ، مسرح هيلسنبورغ .

١٩٤٩ ـ [كانون الثاني ، شباط] : يصور فيلم (الظمأ) .

ـ [شباط] : (طير متوحش) لجين انويل ، مسرح غوتنبرغ .

ـ [آذار] : (عربة اسمها الرغبة) لتنسي ويليامز ، مسرح غوتنبرغ . افتتاح فيلم (السجن) .

يحرج للاذاعة مسرحيته (رسم الفراغ) .

ـ [تموز ـ آب] : يصور فيلم (الى الفرح) .

ـ يقضي ثلاثة أشهر في باريس مع غان هيغبرغ .

ـ [تشرين الأول] : افتتاح فيلم (الظمأ) .

ـ بنتهي عقده مع مسرح غوتنبرغ .

١٩٥٠ ـ يقدم ملخصاً لفيلم (عندما تنام المدينة) من اخراج لارس ـ اريك كيلغرين .

ـ [شباط] : افتتاح فيلم (الى الفرح) .

(الكلمات المقدسة) لدي فال انكلان ، مسرح غوتنبرغ .

ـ [نيسان ـ حزيران] : يصور فيلم (لحن صيفي) .

ـ [تموز ـ آب] : يصور فيلم (هذا لا يحدث هنا) .

ـ [تشرين الأول] : (أوبرا القروش الثلاثة) لبريخت ، مسرح أنتيما باستوكهولم .

افتتاح فيلم (هذا لا يحدث هنا) .

ـ [كانون الأول] : عرض مزدوج لمسرحيتي (الظل) لهيلمار برغمان و (ميديا) لجين انويل ، مسرح أنتيما باستوكهولم .

ـ يطلق هيلين لوندستروم .

١٩٥١ ـ يكتب سيناريو (طلاق) من اخراج غوستاف مولاندر .

ـ يتزوج غان هيغبرغ .

ـ [نيسان] : (ضوء في الكوخ) لبيورن ـ اريك هوير ، المسرح الدرامي الملكي .

ـ [أيار] : ولادة ابنه انغمار .

ـ [تشرين الأول] : افتتاح فيلم (لحن صيفي) .

ـ [تشرين الثاني] : (الوردة تاتو) لتنسي ويليامز ، مسرح نوركوبنغ .

ـ في فترة اغلاق الاستوديوهات بالسويد ، يصور برغمان مجموعة من الدعايات لصابون بريس .

١٩٥٢ ـ [شباط] : (الجريمة في بار جارنا) مسرحية من تأليفه ، مسرح مالمو .

يُعين مديراً لمسرح مالمو .

– [حزيران – تموز] : يصور فيلم (انتظار النساء) .

– [آب] : يصور فيلم (الصيف مع مونيكا) .

– تبدأ علاقته مع هاريت أندرسون .

– [تشرين الثاني] : (العروس العذراء) لسترندبرغ ، مسرح مالمو .

افتتاح فيلم (انتظار النساء) .

– ينتج ثلاث مسرحيات للإذاعة : (هناك وجرائم) و (عيد الفصح) لسترندبرغ ، و (عرس الدم) للوركا .

١٩٥٣ – [شباط] : افتتاح فيلم (الصيف مع مونيكا) .

– [شباط – حزيران] : يصور فيلم (الليلة العارية) .

– [تموز – أيلول] : يصور فيلم (درس في الحب) .

– [ايلول] : افتتاح فيلم (الليلة العارية) .

– [تشرين الأول] : ينتج للإذاعة (الهولندي) لسترندبرغ .

– [تشرين الثاني] : (ست شخصيات تبحث عن مؤلف) لبيراندلو ، مسرح مالمو .

– [كانون الأول] : (القصر) لكافكا ، مسرح مالمو .

١٩٥٤ – [آذار] : (سوناتا الأشباح) لسترندبرغ ، مسرح مالمو .

– [حزيران – آب] : يصور فيلم (رحلة الى الخريف) .

– [تشرين الأول] : افتتاح فيلم (درس في الحب) .

(الأرملة السعيدة) لليهر ، مسرح مالمو .

١٩٥٥ ـ [كانون الثاني] : (دون جوان) لموليير ، مسرح مالمو .

ـ [شباط] : (بيت الشاي) لجون باتريك ، مسرح مالمو .

ـ [آذار] : (الرسم على الخشب) ، مسرحية من تأليفه ، مسرح مالمو .

ـ [حزيران ـ آب] : يصور فيلم (ابتسامات ليلة صيف) .

ـ تبدأ علاقته مع بيبي أندرسون .

ـ [آب] : افتتاح فيلم (رحلة الى الخريف) .

ـ [كانون الأول] : افتتاح فيلم (ابتسامات ليلة صيف) .

١٩٥٦ ـ [كانون الثاني] : (الطير الفقير) لالكسندر أوستروفسكي ، مسرح مالمو .

ـ يكتب سيناريو (آخر زوجين خارجاً) ويخرجه آلف سيوبرغ.

ـ [أيار] : يفوز فيلم (ابتسامات ليلة صيف) بجائزة لجنة التحكيم في مهرجان كان .

ـ [تموز ـ آب] : يصور فيلم (الختم السابع) .

ـ [تشرين الأول] : (قطة على سطح قصدير حار) لتنسي ويليامز ، مسرح مالمو .

ـ [كانون الأول] : (اريك الرابع عشر) لسترندبرغ ، مسرح مالمو .

١٩٥٧ ـ [شباط] : افتتاح فيلم (الختم السابع) .

ـ [آذار] : (بيير غانيت) لإبسن ، مسرح مالمو .

ـ [نيسان] : يخرج عمله الأول للتلفزيون عن مسرحية (حضور السيد سليمن) لهيلمار برغمان .

ـ [أيار] : يفوز فيلم (الختم السابع) بجائزة لجنة التحكيم الخاصة في مهرجان كان .

ـ [تموز ـ آب] : يصور فيلم (الكرز البري) .

ـ [تشرين الثاني ـ كانون الأول] : يصور فيلم (قريباً من الحياة) .

ـ [كانون الأول] (مبغض البشر) لموليير ، مسرح مالمو .
افتتاح فيلم (الكرز البري) .

١٩٥٨ ـ [شباط ـ آب] : يصور فيلم (الوجه) .

ـ [آذار] : افتتاح فيلم (قريباً من الحياة) .

ـ [أيار] : يفوز فيلم (قريباً من الحياة) بثلاث جوائز في مهرجان كان .

ـ [نيسان] : (القصة البطولية) لهيلمار برغمان ، مسرح مالمو .

ـ [حزيران] : يفوز فيلم (الكرز البري) بجائزة الدب الذهبي في مهرجان برلين .

ـ [تشرين الأول] : (فاوست) لغوته ، مسرح مالمو .

ـ [كانون الأول] : (شعب ڤارملاند) لدالغرين ، مسرح مالمو .
افتتاح فيلم (الوجه) .

١٩٥٩ ـ يلتحق بالعمل كمخرج في المسرح الدرامي الملكي باستوكهولم.

ـ [أيار ـ تموز] : يصور فيلم (الربيع البكر) .

ـ [أيلول] : يتزوج كابي لارتي .

ـ [تشرين الأول ـ كانون الثاني ١٩٦٠] : يصور فيلم (عين الشيطان) .

١٩٦٠ ـ [كانون الثاني] : (جو عاصف) لسترندبرغ ، للتلفزيون .

ـ [شباط] : افتتاح فيلم (الربيع البكر) .

ـ [تموز ـ أيلول] : يصور فيلم (عبر المرآة المظلمة) .

ـ [آب] : (التحذير الأول) لسترندبرغ ، للتلفزيون .

ـ [تشرين الأول] : افتتاح فيلم (عين الشيطان) .

١٩٦١ ـ [كانون الثاني] : (النورس) لتشيخوف ، المسرح الدرامي الملكي .

(اللعب بالنار) لسترندبرغ ، للإذاعة .

ـ وفاة كارل اندرس ديملنغ ، وتعيين انغمار برغمان مستشاراً فنياً لشركة سفنسك .

ـ يكتب سيناريو (حديقة المتعة) بالاشتراك مع أرلند يوزفسن واخراج آلف كيلين .

ـ يفوز فيلم (الربيع البكر) بجائزة الأوسكار لأفضل فيلم أجنبي .

ـ [نيسان] : (عملية المدمة) لسترافنسكي ، اوبرا استوكهولم .

ـ [تشرين الأول] : افتتاح فيلم (عبر المرآة المظلمة) .
يصور فيلم (ضوء الشتاء) .

١٩٦٢ ـ يفوز فيلم (عبر المرآة المظلمة) بجائزة الأوسكار لأفضل فيلم أجنبي .

ـ [تموز ـ ايلول] : يصور فيلم (الصمت) .

ـ [ايلول] : ولادة ابنه دانييل سيباستيان .

١٩٦٣ ـ [كانون الثاني] : يُعين مديراً للمسرح الدرامي الملكي باستوكهولم .

ـ [شباط] : افتتاح فيلم (ضوء الشتاء) .

ـ (لعبة حلم) لسترندبرغ ، للتلفزيون .

ـ [تموز] : يباشر عمله في المسرح الدرامي الملكي .

ـ [ايار ـ تموز] : يصور فيلم (كل أولئك النساء) .

ـ [ايلول] : افتتاح فيلم (الصمت) .

ـ [تشرين الأول] : (من يخاف فرجينيا وولف ؟) لادوار البي، المسرح الدرامي الملكي .

(القصة البطولية) لهيلمار برغمان ، المسرح الدرامي الملكي .

١٩٦٤ ـ [حزيران] : (ثلاث سكاكين من في) لهاريت مارتينسون ، المسرح الدرامي الملكي .

افتتاح فيلم (كل أولئك النساء) .

ـ [تشرين الأول] : (هيدا غابلر) لإبسن ، المسرح الدرامي الملكي.

١٩٦٥ ـ خلال أشهر العام الأولى يصاب بفيروس معد فيلغي مسرحية (الناي السحري) بهامبورغ .

ـ [تموز ـ أيلول] : يصور فيلم (برسونا) .

ـ تبدأ علاقته مع ليف أولمان .

ـ يفوز بجائزة اراسموس (مناصفة مع شارلي شابلن) .

ـ [كانون الأول] : (اليس الصغيرة) لادوار البي ، المسرح الدرامي الملكي .

١٩٦٦ ـ [شباط] : (التحقيق) لبيتر ڤايس ، المسرح الدرامي الملكي.

ـ [آذار] : وفاة والدته .

ـ شركة الفنانين المتحدين تدفع مليون دولار لحقوق فيلم (برسونا) .

ـ ليف أولمان تلد له ابنة يسميها لين .

ـ [أيار ـ أيلول] : يصور فيلم (ساعة الذئب) .

ـ [تشرين الأول] : افتتاح فيلم (برسونا) .

ـ [تشرين الثاني] : (مدرسة للزوجات) لموليير ، المسرح الدرامي الملكي .

يستقيل من عمله كمدير للمسرح ويبني منزلاً في جزيرة فارو.

١٩٦٧ ــ [آذار] : افتتاح مشهد (دانييل) من فيلم (الحافز) .

ــ [نيسان] : (ست شخصيات تبحث عن مؤلف) لبيراندلو ، المسرح الوطني ، أوسلو .

ــ [أيلول ــ تشرين الثاني] : يصور فيلم (العار) .

ــ يؤسس شركته السينمائية السويسرية « برسونا » .

١٩٦٨ ــ [شباط] : افتتاح فيلم (ساعة الذئب) .

ــ يؤسس شركته السينمائية السويدية « سينما توغراف » .

ــ [أيار ــ حزيران] : يصور فيلم (الطقس) .

ــ [أيلول] : افتتاح فيلم (العار) .

ــ [أيلول ــ تشرين الأول] : يصور فيلم (عاطفة) .

١٩٦٩ ــ [شباط] : يفوز فيلم (العار) بجائزة الأوسكار لأفضل فيلم أجنبي .

ــ [آذار] : (ڤويتشك) لغيورغ بوشنر ، المسرح الدرامي الملكي باستوكهولم .

ــ [آذار ــ أيار] : يصور فيلماً وثائقياً بعنوان (فارو) .

ــ يكتب مسرحية تلفزيونية (الكذبة) .

ــ [تشرين الثاني] : افتتاح فيلم (عاطفة) .

١٩٧٠ ــ [كانون الثاني] : التلفزيون يعرض فيلم (فارو) .

ـ [آذار] : (لعبة حلم) لسترندبرغ ، المسرح الدرامي الملكي .

ـ [نيسان] : وفاة والده .

ـ [حزيران] : (هيدا غابلر) لإبسن ، المسرح الوطني ، لندن .

ـ [أيلول ـ تشرين الثاني] : يصور (اللمسة) أول فيلم له ناطق بالإنكليزية .

١٩٧١ ـ وفاة غان هيغبرغ بحادثة سيارة في يوغوسلافيا .

ـ [آذار] : (العرض) للارس فورسل ، المسرح الدرامي الملكي .

ـ [نيسان] : ليف أولمان تستلم نيابة عنه جائزة تالبرغ التذكارية في هوليوود .

ـ [آب] : افتتاح فيلم (اللمسة) .

ـ يصور في الخريف فيلم (صرخات وهمسات) .

ـ [تشرين الثاني] : يتزوج انغريد فون روزن ، وينتقل الى حي كارلابلان باستوكهولم .

١٩٧٢ ـ [آذار] : (البط البري) لإبسن ، المسرح الدرامي الملكي .

ـ يصور فيلم (مشاهد من حياة زوجية) .

ـ [كانون الأول] : افتتاح فيلم (صرخات وهمسات) في الولايات المتحدة .

١٩٧٣ ـ [كانون الثاني] : (سوناتا الأشباح) لسترندبرغ ، المسرح الدرامي الملكي .

ـ [آذار] : افتتاح فيلم (صرخات وهمسات) في السويد .

ـ [نيسان ـ أيار] : التلفزيون السويدي يعرض (مشاهد من حياة زوجية) .

ـ [نيسان] : (مبغض البشر) لموليير ، المسرح الدانماركي الملكي ، كوبنهاغن .

ـ [أيار] : يشارك بفيلم (صرخات وهمسات) في مهرجان كان .

١٩٧٤ ـ [شباط] : (الطريق إلى دمشق) لسترندبرغ ، المسرح الدرامي الملكي .

ـ [نيسان] : يفوز سفن نيكفست بأوسكار أحسن تصوير عن فيلم (صرخات وهمسات) .

ـ يصور في الربيع فيلم (الناي السحري) .

١٩٧٥ ـ [كانون الأول] : التلفزيون يعرض (الناي السحري) .

ـ [آذار] (الليلة الثانية عشرة) لشكسبير ، المسرح الدرامي الملكي .

ـ يسافر إلى الولايات المتحدة للقاء دينو دي لاورينتس الذي يريد تمويل فيلم (وجهاً لوجه) .

ـ [نيسان ـ تموز] : يصور فيلم (وجهاً لوجه) .

ـ يكتب سيناريو لم يصور بعد بعنوان (الأمير المتحجر) .

يمنح درجة الدكتوراة الفخرية من جامعة استوكهولم .

١٩٧٦ ـ [كانون الثاني] : يلقى القبض عليه أثناء بروفات (الرقص مع الموت) .

ـ [نيسان] : يغادر السويد إلى منفاه الاختياري .

ـ [نيسان ـ ايار] : التلفزيون السويدي يعرض فيلم (وجهاً لوجه) .

ـ يوقع عقداً مع مسرح الرزيدانز في ميونخ .

ـ [آب] : ينال جائزة غوته .

ـ [ايلول] : يستقر في ميونخ ويصور فيلم (بيضة الأفعى) لاستوديو بافاريا .

١٩٧٧ ـ [شباط] : افتتاح فيلم (قصر الفردوس) من انتاجه واخراج غونيل ليندبلوم .

ـ [تشرين الأول] : افتتاح فيلم (بيضة الأفعى) .

ـ [ايلول ـ تشرين الأول] : يصور فيلم (سوناتا الخريف) في اوسلو .

١٩٧٨ ـ [حزيران] : (الشقيقات الثلاث) لتشيخوف ، مسرح الرزيدانز ، ميونخ .

ـ [تموز] : يحتفل بعيد ميلاده الستين في فارو بحضور جميع أولاده .

ـ [آب] : تتوقف بروفات (الرقص مع الموت) بسبب مرض اندرس إيك المميت .

ـ [تشرين الأول] : افتتاح فيلم (سوناتا الخريف) .

١٩٧٩ ـ [كانون الثاني] : (طرطوف) لموليير ، مسرح الرزيدانز ، ميونخ .

ـ [نيسان] : (هيدا غابلر) لإبسن ، مسرح الرزيدانز ، ميونخ .

ـ يكتب في الصيف سيناريو فيلم (فاني والكسندر) .

ـ [آب] : (الليلة الثانية عشرة) لشكسبير ، المسرح الدرامي الملكي ، استوكهولم .

ـ [تشرين الأول] : يصور فيلم (من حياة الدمى) .

ـ [تشرين الثاني] : تنتهي قضيته مع مصلحة الضرائب ببراءته التامة .

ـ [كانون الأول] : التلفزيون يعرض الفيلم الوثائقي (فارو) .

١٩٨٠ ـ وفاة آلف سيوبرغ .

ـ [أيار] : (ايفون ، امير بورغندي) لفيتولد غومبروفيتش ، مسرح الرزيدانز .

ـ [تموز] : افتتاح فيلم (من حياة الدمى) في اكسفورد .

ـ [تشرين الثاني] : الإعلان عن فيلم (فاني والكسندر) بمؤتمر صحفي .

١٩٨١ ـ [نيسان] : عرض مزدوج لمسرحيتي (بيت الدمى) لإبسن و (الآنسة جولي) لسترندبرغ ، مسرح الرزيدانز .

ـ [حزيران] : يطرد من مسرح الرزيدانز بميونخ .

ـ [تشرين الثاني ـ صيف ١٩٨٢] : يصور فيلم (فاني والكسندر) .

ـ [كانون الأول] : يعود الى مسرح الرزيدانز بعد تغير الادارة .

١٩٨٢ ـ يعلن اعتزاله للسينما .

ـ [كانون الأول] : افتتاح فيلم (فاني والكسندر) .

١٩٨٣ ـ يصور فيلم (بعد البروفة) للتلفزيون .

ـ (دون جوان) لموليير ، مسرح هوف بسالزبورغ .

ـ يصور فيلم (وجه كارين) في ذكرى أمه .

ـ [أيلول] : يشارك بفيلم (فاني والكسندر) بمهرجان فينيسيا .

١٩٨٤ ـ (الملك لير) لشكسبير ، المسرح الدرامي الملكي ، استوكهولم .

ـ [نيسان] : يفوز فيلم (فاني والكسندر) بأربعة أوسكارات .

ـ [أيار] : عرض فيلم (بعد البروفة) في مهرجان كان .

١٩٨٥ ـ [حزيران] : (جون غابرييل بوركمان) لإبسن ، مسرح بافاريا ، ميونخ .

ـ يصور فيلم (المباركون) للتلفزيون .

ـ وفاة شقيقه داغ برغمان .

١٩٨٦ـ [شباط] : اغتيال اولف بالمه في استوكهولم .

ـ [نيسان] : (لعبة حلم) لسترندبرغ ، المسرح الدرامي ، استوكهولم .

ـ [أيلول] : ينتهي من كتابة سيرته الذاتية (المصباح السحري) .

ـ [كانون الأول] : (الآنسة جولي) لستراندبرغ ، المسرح الدرامي الملكي ، استوكهولم .

ـ [كانون الأول] : (هاملت) لشكسبير ، المسرح الدرامي الملكي ، استوكهولم .

١٩٨٧ ـ نشر كتاب سيرته الذاتية في السويد .

ـ يخبره الأطباء بضرورة الراحة والتخلي عن برنامجه المسرحي اليومي .

١٩٨٨ ـ [نيسان] : (رحلة اليوم الطويلة الى الليل) لأونيل ، المسرح الدرامي الملكي .

* * *

الفهرس

٣٠٠٠ ط١ ١٩٩٤/١٢/١



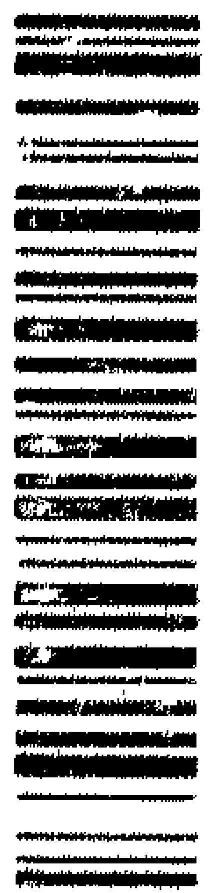
«في بعض الأحيان، ألاحظه بوضوح، وأراه متجسداً، هذا المخلوق الذي نصفه وحش ونصفه الآخر انسان، والذي يتحرك في أعماقي وأوشك على ولادته. لقد قررت أن أتقاعد قبل أن يرى الممثلون ومن يعملون معي هذا المخلوق المرعب، فينظرون إليّ بنفور أو بشفقة. لقد رأيت عدداً كبيراً من زملائي يسقطون في الحلبة مثل مهرجين مرهقين، باتوا يشعرون بالسأم في بلادتهم، وقد قتلهم صمت الآخرين اللبق أو استهجانهم، فدفع بهم بعيداً عن الأضواء بأيد لطيفة وأحياناً قاسية..

سوف أتناول قبعتي مادام بوسعي أن أصل بيدي إلى مشجب القبعات وأمضي خارجاً رغم آلام جسدي..

إن الإبداع في الشيخوخة أمر غير مضمون..»

في ضوء المصباح السحري نقرأ حياة بيرغمان من زوايا مختلفة، من الداخل والخارج، من الطفولة البعيدة إلى الأمس القريب، بكل مافي هذه الحياة من أحداث وأسرار وأحلام وذكريات حب وعمل، وأزمات، وتفاصيل صغيرة ينبشها من الذاكرة ويعيد سردها في ضوء مصباحه السحري.

كان بيرغمان في طفولته مرشحاً لأن يكو... دينياً، ولكنه اختار المعبد الآخر، الفن الأكثر ... بالحياة، حينما اكتشف السينما، وهاهو يعترف ... الصغيرة قبل أن يعترف بنجاحاته الباهرة.




الطبع وفرز الألوان في مطابع وزارة الثقافة
دمشق ١٩٩٤